سيادة القانون

فى ظل الثورة والاشتراكية

بقلم : د. محمد عصفور

القى السيد رئيس الجمهورية كلمة فى حفل افتتاح المؤتمر التاسع لاتحاد المحامين العرب تناول فيها موضوعين أساسيين :

أولهما ـ وحدة القوى الثورية العربية .

وثانيهما ـ القانون والثورة .

وقد قال السيد الرئيس فى كلمته ان الموضوع الثانى ـ وان لم يكن مدرجا فى جدول أعمال المؤتمر فهو مطروح دائما فى أى اجتماع للمحامين ـ وقال كذلك ان هذا الموضوع من أخطر مايواجه الثورة العربية وبالتالى فهو جدير بمناقشة جدية .

وقد طرح السيد الرئيس ثلاثة أسئلة هى :

١ ـ كيف نستطيع ان نجعل القانون يعبر بصدق عن المجتمع ومطالبه ، فان القوانين ليست صياغات بعيدة عن القوى الفاعلة فى المجتمع أو عن حركة هذه القوى ؟

٢ ـ كيف يستطيع القانون أن يعبر عن روح التطور ذاتها ، فان الشرعية ليست هى مجرد الأمر الواقع ، والا كان معنى ذلك أن الشرعية قد أصبحت مادة جامدة لا ينص فيها على أحسن الأحوال أو استبدادا من طبقة أو سلطة تتصور خطأ أنه بوسعها أن توقف الزمن نفسه ؟

٣ ـ كيف نستطيع أن نحقق الوفاق بين حرية المجتمع وحرية الفرد في هذا المجتمع ، وكيف يمكن أن نحقق انسجاما بين الديمقراطية السياسية وبين الديمقراطية الاقتصادية ، ولكم شهدنا من تجارب أهدرت فيها الديمقراطية الاقتصادية ، بدعوى الديمقراطية السياسية أو العكس ؟

ان الأسئلة السابقة تدور في اطار حدده السيد رئيس الجمهورية في خطابه أمام مجلس الأمة حيث قال :

« ان تقنين الثورة حصانة أكيدة للتطور الدستورى السليم ليظل القانون دائما أكبر من مراكز القوة وأعلى من ارادات الأفراد ٠

وفي الوقت الذي يتدارس فيه الشعب بمختلف طبقاته الأسس التي يوضع عليها دستوره الدائم ، وهو أرفع قوانين الدولة وأعلاها ، تنشر « المجلة » هذا البحث الذي يناقش كاتبه ـ وهو من كبار أساتذة القانون ـ هذه الأفكار الجوهرية ذات الصلة الوثيقة بمستقبل تطورنا في مختلف مجالات التشريع ، ونرجو أن ننشر في الأعداد القادمة مناقشات وابحاثا أخرى حول هذا الموضوع الهام ٠

المشكلات القانونية التي تواجه مجتمعا يتحول نحو الاشتراكية :

تمر الأمة العربية ـ في هذه الآونة ـ بمرحلة حاسمة من مراحل تطورها ، فبجانب الضغوط الشديدة التي يتعرض لها شعبها ، تتوزعه داخليا تيارات فكرية متباينة ، من الخطأ الجسيم أن نهون من شأنها بحجة أن التيار الفكرى الغالب هو التيار الذى يندفع نحو الغايات السليمة ، وفي مجالات الفكر بالذات تساؤلات عديدة عن الاتجاه الجديد الذى يجب تبنيه ، وعن سماته المميزة ، واذا كانت هذه التساؤلات قد ثارت في مجالات الفلسفة والفن والأدب ، فانها قد ثارت بصورة أكثر حدة في مجال القانون ، فهناك دعوة عنيفة الى نظرية ثورية في القانون تنادى بهدم البنيان القانونى « القديم » بكافة طوابقه ، وكأنما الثورة لا تأتلف مع أى قانون ، وكان التنكر للاستغلال يعنى كذلك التنكر للأفكار الأصيلة في الحرية وكرامة الانسان وقد يكون حماس الشباب ـ ولا أقول اندفاعه ـ مسئولا عن الخلط بين نظرية ثورية أصيلة للقانون وبين أفكار انقلابية (منقولة عن مجتمعات تقوم بيننا وبينها هوة في التاريخ والفكر والتطبيق) ٠٠ ليس فيها شيء من أصالة الثورية البناءة ٠٠ وان كانت تتوارى خلف مايسمي بنظرية اشتراكية القانون ٠٠

واستنادا الى هذه النظرية نشرت مقالات كثيرة تعلن عداءها لما يسمى « بالافكار التقليدية » أو « البورجوازية » ، وتدعو الى احلال أصول أخرى محلها :

ـ فلقد نودى بمبدأ « وحدة السلطة » بدلا من مبدأ الفصل بين السلطات ٠

ـ وأنكر على القضاء استقلاله بعد أن كان ينظر الى استقلال السلطة القضائية على أنه دعامة من دعامات سيادة القانون ٠

ـ وبدلا من احترام القوانين القائمة الى أن تلغى بقوانين أخرى في نفس مرتبتها وقوتها ، دعى الى التحلل منها باسم « الثورية » وغايات الاشتراكية ، بل والشرعية الاشتراكية ! ولا يتسع المقام لعرض تفصيلي لهذه المقالات ، وانما نكتفى بانتقاء نموذج واحد لها فحسب يوضح هذا الاتجاه ٠

ـ أما مبدأ الفصل بين السلطات ـ والذى برز في الدستور المؤقت ـ فهو لا يتسق في نظر بعض الكتاب الا مع نظام الدولة الذى يمثل مصالح الأقلية المالكة والخاضع لسيطرتها ٠٠ وقد كان ضرورة لابقاء سلطة الدولة الحقيقية في يد الأقلية المسيطرة عليها ، بما تخلقه من وهم لدى الجماهير بأنها قد أصبحت تملك حريتها ممثلة في السلطة التشريعية ، في حين أن السلطات جميعها كانت في قبضة البورجوازية ، وأن الحريات السياسية كانت

مجردة من مضمونها الاجتماعي . ولهذا نودى بمبدأ « وحدة السلطة بوصفه مبدأ اشتراكيا »، وبدعوى أنه « فى نظام اشتراكى ديمقراطى فان سلطة الدولة واحدة تستمدها من الشعب العامل فالسلطة لاتتجزأ ولا تنفصل » (١) .

والنتيجة المنطقية ، بل والحتمية لانكار مبدأ الفصل بين السلطات أن ينكر على القضاء صفته التقليدية كسلطة من سلطات الدولة . فالقضاة مستقلون لايخضعون فى قضائهم الا للقانون ، **ولكن القضاء ليس سلطة مستقلة** ، وأن القضاء شأنه شأن القوات المسلحة كلاهما يحسن أن يرد فى الدستور كضمان للشعب وحماية له، لأن القضاء « فى النهاية يستمد وجوده من سلطة الشعب ، مما يستوجب ربطه بالارادة الشعبية وفق ما يسمح به تطور الظروف الاجتماعية ، فهو عندئذ وعن طريق المحاكم الشعبية — التى تضم عنصرا شعبيا منتخبا الى جانب القاضى المتخصص — يمكنه أن يقوم بجانب هام من اختصاصات سلطة الدولة فى حماية التحول الاشتراكى ، وعندئذ يمكن عند تقنين نظام الحراسة أو الحرمان من الحقوق السياسية أن يوكل تطبيقه الى هذه المحاكم الشعبية التى تمتزج فيها النظرة السياسية بالنظرة القانونية الفنية » (٢) .

وعلى الرغم من أن من بين التوجيهات التى انتهى اليها تقرير لجنة الميثاق عندنا انشاء محكمة دستورية عليا يحدد الدستور الجديد طريقة تشكيلها واختصاصاتها ، يرى بعض كتابنا أن هذه التوصية : « اقتراح محفوف بالمخاطر فسلطة الشعب التى يمثلها المجلس الشعبى لا يجوز معها للقاضى أن يتصدى للحكم على قانون أصدرته ، وأن ينفرد بتقرير مخالفته للدستور ، فان ذلك قد يعنى اخضاع ارادة شعبية لسلطة تقديرية للقضاء ، لذلك فانه يجب البحث عن الوسيلة الملائمة التى تجعل رقابة هذه الدستورية للمجلس الشعبى ذاته فى لجنة تشكل من بين أعضائه ويضم اليها بعض قضاة المحكمة العليا وخبراء القانون(٣) »

وجدير بالملاحظة أن نفس الاتجاه الذى ينكر على القضاء الامتناع عن القانون المخالف للدستور أو الميثاق يطالب المشرع « بأن يصدر قانونا صريحا يمنع القضاء سلطة عدم تطبيق الأحكام القانونية التى تناقض مبادىء التحول الاشتراكى ، وأن هذا القانون .. يمكن القاضى من ألا يقف عاجزا أمام نصوص تتناقض مع التحول الاشتراكى ، وهو فى نفس الوقت يشرك القاضى فى مسئولية حماية مبادىء المجتمع الجديد » .. والى أن يصدر القانون المطالب به .. اقترح على وزير العدل أن يحول (؟!) محكمة النقض الى محكمة عليا تشرف على حسن تطبيق القانون وتعمل على تحقيق وحدة وتجانس النظام القانونى الاشتراكى بأن تبادر (دون انتظار لطعن يطرح عليها !) الى تقديم تفسير متجانس موحد للقانون يحول دون اضطراب أحكام المحاكم وتضاربها، وأن « هذه المعالجة الواعية لشئون العدالة » هى التى تدعم — فى نظر الكاتب — « سيادة القانون وهى التى تحمى للثورة شرعيتها .. »

غير أن ما هو أخطر من ذلك تحديد موقف القضاء من « القوانين » التى مازالت تعبر عن علاقات كانت سائدة فى ظل النظام الرأسمالى وما زالت قائمة رغم التحول الاشتراكى وتعديلها يحتاج الى وقت » . ويتساءل الكاتب : « فماذا يكون موقف القاضى من مثل هذه القوانين ؟ أيقف عند حرفية النصوص ويطبق مفاهيم نبذها الميثاق ، ولم تعد تتفق مع طبيعة الثورة الاجتماعية والاقتصادية ومراميها ؟ أم أن القاضى الملتزم (؟!) يمكنه أن يضفى على النصوص مفهوما يتفق مع أهداف المجتمع الجديد ، ويمكنه أن يقدم حلولا تواجه التغيير الثورى ؟ » .

يرى أصحاب هذا الاتجاه أنه يجب على القاضى أن يضفى على النصوص تفسيرا يجعلها متمشية مع مرامى المجتمع وأهدافه ، وأن القاضى وهو يجتهد لا يصدر فى اجتهاده عن تفكير ذاتى خاص ، بل انه يصدر عن اعتبارات موضوعية جسدتها مبادىء الميثاق ، ولا يحد

---

(١) جريدة « الاهرام » فى ١٩٦٧/٢/١٥ مقال للدكتور جمال العطيفى المحامى بعنوان «تعليق على مناقشات الدستور الجديد »

(٢) جريدة « الاهرام » فى ١٩٦٧/٢/١٦ مقال للدكتور جمال العطيفى « تعليق على مناقشات الدستور الجديد » تحت عنوان « الاتحاد الاشتراكى »

(٣) مقال الدكتور جمال العطيفى — سبقت الاشارة اليه فى جريدة « الاهرام » فى ١٥ من فبراير ١٩٦٧

من سلطته فى هذا الاجتهاد الا المبدأ الذى أكده دستور سنة ١٩٦٤ من أنه « لاجريمة ولا عقوبة الا بنص (٤) » .

والواقع أن هذه الدعوة الى تفسير القوانين بما يجعلها متمشية مع مرامى المجتمع وأهدافه، هى دعوة الى التحلل من أحكام القوانين القائمة ولهذا السبب فانه وان أهاب بالقضاء أن يتقدم معبرا عن القيم الجديدة للمجتمع حارسا عليها، يرى أن تحميله مسئولية مواجهة العلاقات الاجتماعية الجديدة هو تحميل له بأكثر مما ينبغى ، فى حين أن المسئولية الأولى تقع على المشرع .

هذا .. هو نموذج واحد لكثير مما كتب لمواجهة المشكلات القانونية التى تعرض لمجتمعنا الذى يتحول نحو الاشتراكية ، وهى مشكلات دقيقة وخطيرة ، وعلى الرغم من تعددها وتشعبها ، فانها ترتد الى مشكلة وحيدة مثلثة الشعب ، وهى « سيادة القانون » : ماهو مفهومها ، وكيف تتواءم مع ثورة اجتماعية،وعلى أية صورة تتحقق فى نظام اشتراكى ..فكيف تحل هذه المشكلة ؟

ان الحلول التى اقترحها بعض الكتاب، والتى قدمنا نموذجا لها هى فى نظرى حلول غير سديدة ، لما فيها من تشويه «لمبدأ سيادة القانون » كما ورد فى الميثاق ... ولأن معظمها نابع عن الفكر والنظام السوفيتيين على الرغم مما يقوم بينهما وبين فكرنا ونظامنا من فوارق عميقة الجذور .

فمبدأ وحدة السلطة : يعد مبدأ من مبادىء الماركسية اللينينية التى ترفض مبدأ الفصل بين السلطات . لأنه يؤدى فى واقع العالم الحديث ، الى أن يزيد من اضعاف دور القانون الحقيقى – الذى هو ثمرة البرلمان – لصالح سلطات أخرى وبصفة خاصة السلطة التنفيذية أو الادارية . ويعتبر الشراح السوفيت أن نمو أسلوب المراسيم بقوانين ، والتمييز بين القانون واللائحة ، واستقلال السلطة القضائية حيال السلطة التشريعية فى دول الشريعة العامة أو القانون القضائى (Common Law) – يرى الشراح السوفيت أن هذه الصور كلها مظاهر لتشويه مبدأ سيادة الشعب ولهذا السبب يؤثم الاتحاد السوفيتى مبدأ الفصل بين السلطات ، مؤكدا مبدأ وحدة السلطة . لأن الأمر ليس أمر فصل أو توازن بين السلطات وانما هو أقرب الى توزيع الوظائف بين مختلف الهيئات أو المنظمات .. (٥)وهذا هو نفس ما ينادى به الاتجاه الذى نقلنا بعض فقرات له تكاد تكون مصاغة بنفس الأسلوب؟!

وانكار صفة السلطة على القضاء هو كذلك مبدأ من مبادىء التنظيم السوفيتى ، فاستنادا الى مبدأ وحدة السلطة تتركز جميع السلطة تشريعية وتنفيذية بين أيدى مجلس السوفيت الأعلى (طبقا للمادة ٣ من دستور سنة ١٩٣٦) وليست هناك سلطة قضائية تقف على قدم المساواة مع مجلس السوفيت الأعلى ، وانما هناك قضاء فحسب ، يخضعون للقانون(م١١٢ من الدستور) ولهذا السبب لا يمكن التسليم بأن تقوم جهة الادارة (ويمثلها مجلس الوزراء الذى يعد مسؤلا أمام مجلس السوفيت الأعلى) أو القضاء على قدم المساواة مع مجلس السوفيت الأعلى الذى يعد – من الناحية الدستورية الشكلية – قمة السلطة بل ومستودعها . (٦)

وانكار فكرة الرقابة على دستورية القوانين وان كان مأخوذا فى بعض الديمقراطيات الغربية الا أنه سمة من السمات المميزة للنظام السوفيتى الذى يبرر انكار هذه الرقابة بحجة أنها نظام قصد به أساسا حماية مصالح وسلطة الطبقات المالكة ، وأنها تقيم من القضاء حكما سياسيا ، وتؤدى الى احلال حكومة للقضاء محل حكومة الشعب . وأن مثل هذا الحلول خطير لأنه يتخفى وراء نقاب قاعدة القانون وخلف قناع الموضوعية والحيدة اللتين تصوران على أنهما من خصائص الوظيفة القضائية .. فى حين أن قاضى الرقابة يفرض رأيه السياسى وذلك يقاوم التمثيل الشعبى بوضع العراقيل فى وجهه . فرقابة القضاء على دستورية

(٤) مقال للدكتور جمال العطيفى ، « الاهرام » فى ١٩٦٦/١٢/١٥ ، بعنوان « الوجه الثورى للقضاء » .

(٥) R. David : Les Grands Systèmes de Droit Contemporain, Paris, Dallez 1964, pp. 207 — 208.

(٦) المصدر السابق نبذة رقم ١٥٧ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨

القوانين — فى نظر الفقه السوفيتى — هى نظام «أوليجاركى» يضطلع بدور طبقى ، ولا يستقيم مع ديمقراطية حقيقية مؤسسة على سيادة الشعب . ومعنى ذلك أن الفقه السوفيتى يؤثم الرقابة القضائية على دستورية القوانين لسببين

أولهما — الطبيعة السياسية الحتمية لهذه الرقابة .

والسبب الثانى — ممارسة هيئة غير ديمقراطية لهذه الرقابة تقاوم ارادة الهيئة المنتخبة (٧) .

وتحريض القضـاء على اهدار القوانين القائمة — بحجة انها تعرقل مهام التحول الاشتراكى والدعوة الى صدور تشريع بهذا المعنى ، هو تقليد لما جرى عليه العمل فى فترة الشيوعية الأولى ، من تخويل القضاء سلطة الفصل فى المنازعات وفقا لضميره الاشتراكى وقد ثبت للسلطات السوفيتية نفسها كيف ادى هذا النص الى اضطراب لا مزيد عليه ، دفع هذه السلطات الى حذف النص، والعودة الى التقليد الأصيل بالتزام القاضى نصوص القوانين القائمة الى أن تلغى او ان تعدل باداة فى مثل قوتها .

واذا كان من المفيد فى مرحلتنا الراهنة : أن نرجع الى تجارب الدول الاشتراكية الأخرى للأفادة منها ، الا انه من غير المعقول ان نجعل من نظامنا القانونى نسخة مكررة من النظام السوفيتى على الرغم من قيامه على فلسفة سياسية فى الدولة والقانون ، تغاير فلسفتنا السياسية كما صورها ميثاق العمل الوطنى :

ففى الميثاق تأكيد لسيادة القانون على نحو يناهض التصوير السوفيتى للقانون على أنه مجرد اداة من أدوات الاكراه مصيرها الذبول مع سلطة الدولة ذاتها ..

وفى الميثاق فقرات واضحة وقاطعة تندد بتركيز السلطة ، وبالتالى تؤثم وحدة السلطة و « دكتاتورية البروليتاريا » ..

واذا لم تقم لدينا شبهة فى أن مبادىء الميثاق لابد وان تكون أطارا للدستور الجديد المزمع اعداده ، فاننا نعجب كيف تهاجم — باسم الاشتراكية والثورية — المبادىء التقليدية فى شأن الفصل بين السلطات ، وتأكيد سلطة القضاء ، وسيادة القانون ، نعجب كيف تهاجم هذه المبادىء وقد تضمنها الميثاق الذى يعد دليل العملين الثورى والأشتراكى فى المرحلة الراهنة .. ؟

***

يضاف الى ما تقدم أن الاتجاه الذى يناهض المبادىء التقليدية خاطىء فى تدليله، متناقض فى نتائجه ، وخطير فى عواقبه .

أما انه خاطىء فى تدليله فظاهر من مطالعة الحجج الواهية التى ساقها لتبرير العدول عنه .

فلقد قيل ان مبدأ الفصل بين السلطات يتسق مع نظام الدولة الذى يمثل مصالح الأقلية فى حين ان سلطة الدولة فى نظام أشتراكى ديمقراطى لا يجوز ان تتجزأ او تنفصل ولكن اختصاصات هذه السلطة هى التى تتوزع .

واذا كانت لمبدأ الفصل بين السلطات جذور اقتصادية ، الا أننا لا نرى ما يمنع النظام الاشتراكى من أن يعتنق هذا المبدأ الديمقراطى الأصيل والذى يعد — بدون شك — ضمانة اساسية للحريات . كما أننا لا نفهم كيف يفسر مبدأ الفصل بين السلطات تفسيرا حرفيا على نحو يوهم بأن هذه السلطات متنابذة وان مردها كلها الى الشعب ، فى حين أن جميع دساتير الديمقراطيات الغربية تنص على ان الأمة هى مصدر السلطات وهو ما يؤكد ان ما يقوم فى الحقيقة — حتى فى ظل مبدأ الفصل بين السلطات — هو توزيع للاختصاصات أو للوظائف ، لا ينال من سلطة الأمة .

---

(٧) Mouskhely : La natron Soviétique de Constitution.
مجلة القانون العام ، سنة ١٩٥٥ ، ص ٨٩٤ ، ٩٠٨

وأنكر على القضاء صفته كسلطة من السلطات ، بحجة أن القضاء يستمد وجوده من سلطة الشعب . ولسنا نجد أى تعارض بين أن يكون القضاء سلطة وان تكون هذه السلطة ذاتها مستمدة من سلطة الشعب ، أما أشراك الشعب فى القضاء بحجة ان من شأن هذا الاشراك الربط بين القضاء والارادة الشعبية ، فهو أمر مغرق فى الخيال ، ومن شأن الأخذ به اقحام غير المتخصصين فى امور أثبتت التجربة — حتى فى الدول التى أخذت بنظام المحاكم الشعبية — انهم فى الحالات التى لم يكونوا فيها عبأ على القاضى المتخصص ، يتأثرون بصلاتهم ودوافعهم الشخصية أكثر مما يتأثر بها القاضى الذى تدرب على التزام الحيدة . وقد دفعت مساوىء نظام المحاكم الشعبية الكثيرين من النقاد الى أن يصموا هذه المحاكم بأنها « محاكم الظلم » .

***

وليس الأتجاه الذى يناهض « المبادىء التقليدية » خاطئا فى تدليله فحسب وانما هو كذلك متناقض فى نتائجه : ذلك انه فى الوقت الذى ينكر فيه على القضاء حقه فى الرقابة على دستورية القوانين ، يعطى هذا القضاء سلطة أوسع فى مداها من هذه الرقابة وهى سلطة اهدار ما يسميه بالقوانين التى تناهض التحول الاشتراكى ، على الرغم مما تنطوى عليه هذه السلطة من خطورة بالغة ، لأنها لا تحتكم الى نص فى الدستور أو مبدأ من مبادئه (كما هو الشأن فى الرقابة على دستورية القوانين) ، وانما تحتكم الى تغلغل فى النوايا والمقاصد والغايات ، وهى بطبيعتها أمور مرنة وتتفاوت فيها وجهات النظر .

والاتجاه الذى يناهض المبادىء التقليدية ، بجانب خطئه فى التدليل وتناقضه فى النتائج — خطير فى عواقبه .. لأنه فى دعوته الى نبذ مبدأ الفصل بين السلطات يحرم المواطنين من ضمانة أساسية لحرياتهم ، وانكاره لسلطة القضاء ، وفرض غير المتخصصين على المحاكم يشوه العملية القضائية برمتها كعملية متخصصة تضطلع بها هيئة لابد وأن يكفل استقلالها لضمان حيدتها ، وفى انكار سلطة القضاء فى الرقابة على دستورية القوانين بحجة احترام الارادة الشعبية اطلاق لارادة ممثلين للشعب لفترة معينة على نحو قد يناهض الدستور أو الميثاق نفسه .

فالدعوة اذن الى نبذ المبادىء التقليدية — فى الفصل بين السلطات ، وتأكيد أن القضاء سلطة ، وتأكيد حقه فى الرقابة على دستورية القوانين .. دعوة خطيرة واجبة الرفض . والحلول الصحيحة — فى نظرى — للمشكلة التى نواجهها يجب أن تبدأ بتحديد واضح وقاطع لمبدأ سياده القانون ، وتحديد واضح وقاطع لصلة هذا المبدأ بكل من الثورة والنظام الاشتراكى .

***

أولا : هل « سيادة القانون » هى الشرعية الثورية أو الشرعية الاشتراكية ؟

اننا لانستطيع أن نحدد كيف تتحقق سيادة للقانون فى الثورة أو فى الاشتراكية الا اذا حددنا أولا ما اذا كان ما يسمى بالشرعية الثورية ، أو الشرعية الاشتراكية هو شىء آخر أو شىء مماثل لسيادة القانون .

وأبادر الى القول بأنه اذا قصد بتعبيرى الشرعية الثورية والشرعية الاشتراكية مايقصد بهما فى الفكر والنظام السوفيتيين ، فاننا نكون بعيدين تماما عن المعنى المتعارف عليه لسيادة القانون :

— فسيادة القانون أو دولة القانون فى نظر بعض الكتاب السوفييت هى فكرة غير علمية قامت فى الادب القانونى البورجوازى ، تصور الدولة البورجوازية كما لو لم يكن فيها مكان لاستبداد السلطة التنفيذية ، ويزعم أن السيادة فيها للقانون والشرعية ومما يميز نظرية سيادة القانون هذه تأكيدها لأولوية القانون على الدولة ، بمعنى أن القانون شىء مستقل عن الدولة ويعلو عليها ، ويقصد بهذا التصوير اضفاء قناع على الطبيعة الطبقية للدولة وتقوية سلطان البورجوازية ، ليس

هذا فحسب ، وأنما تعتبر المذاهب المنادية بسيادة القانون موجهة الى الحركة الثورية للطبقة العاملة وبالذات بعد انشاء الدول الاشتراكية على هذا الاساس (٨) • وحتى اذا لم تعتبر هذه النظرة هى النظرة السائدة فى الفقه السوفيتى ، فان الذى لاشبهة فيه أن الشرعية الاشتراكية ـ ومن باب أولى الشرعية الثورية ـ لا تعترف بالقانون قيدا على سلطة الدولة على نحو ما يؤكده مبدأ سيادة القانون •• اذ فضلا عن رفض النظرية السوفيتية للتصوير القانونى للسلطة ، فانها لاتتصور القانون الا مجرد أداة فى خدمة هذه السلطة والتى تقبله أو ترفضه حسب تقديرها المطلق أنه يحقق الغايات البعيدة للاشتراكية •

وفى حدود هذا الفهم ، لاتعتبر «الشرعية الاشتراكية» قيدا على سلطة الحكم وانما هى قيد على غيرها من السلطات وعلى المحكومين •

ـ أما سيادة القانون ـ بمعناها التقليدى ـ وعلى الرغم من تنوع صورها فى العالم الغربى ـ فانها ترتكز على فكرتين أساسيتين : سياسية وقانونية :

ـ **أما الفكرة السياسية :** فهى أن الحكام والمحكومين مقيدون على حد سواء بالنظام القانونى القائم ، وأن هذا الخضوع الكامل من جانب الجميع لاوامر القانون ومذاهبه هو نتيجة حتمية للديمقراطية التى تنكر أن تكون ارادة الحكام قانونا فى المحكومين ، والتى تؤكد ـ على النقيض من ذلك ـ أن الشعب هو صاحب السلطة فى أن يضع القوانين التى يخضع لها ويخضع لها حكامه على حد سواء ، على أن تكون « حقوق الانسان » قيدا على سلطة المشرع نفسه :

ـ **وأما الفكرة القانونية :** فمستمدة من المبادىء الديمقراطية ، فانها تستهدف وضع الضمانات للمحكومين فى كافة المجالات ، سواء فى مجال تعامل الأفراد مع الادارة ، أو فيما يرتكبونه من جرائم ، أو فيما يثور بينهم من منازعات ••

ومن الواضح أن الفرق كبير بين مفهوم « سيادة القانون » بمعناه التقليدى ، وبين الشرعية الثورية أو الاشتراكية بمفهومها السوفيتى •• واذا كان من الحق أن المعنى التقليدى لسيادة القانون ، قد ولد فى كنف الليبرالية السياسية والليبرالية الاقتصادية ، وأنه كان لقيام الطبقة البورجوازية دور كبير فى تأكيد المبدأ لحماية أوضاعها •• فهل يعنى ذلك اعتبار هذا المبدأ مبدأ « بورجوازيا » يجب أن ينبذ فى كل نظام اشتراكى ، أم أن « سيادة القانون » صيغة فنية للعلاقات بين الحكام والمحكومين واجبة التطبيق فى أى نظام اجتماعى طالما أنه يعتنق الديمقراطية مذهبا ؟

الذى نؤمن به أن « سيادة القانون » ـ كضمان للحريات وكرامة الانسان ـ ظاهرة لا شأن لها بقيام المذهب الفردى كما أنها لاتنهار بزواله ، وانما هى معنى قانونى يؤكد التزام سلطة الحكم باحترام النظام القانونى الذى يضعه الشعب ، فهى اذن فكرة محايدة ، لانها لا تعدو أن تكون فى جوهرها وضع الوسائل التى تنظم العلاقات الاجتماعية ـ مهما تنوعت صورها واختلفت أسسها وغاياتها ••

ونحن نؤمن كذلك أن « سيادة القانون » يمكن أن تقوم فى نظام اجتماعى لايقدس الملكية الفردية على نحو ما يفعل النظام الرأسمالى •

***

كرامة الانسان كمنطلق لسيادة القانون فى الشرق والغرب

وهذا هو السبب فى أنه على الرغم من الخلاف العميق بين مفهوم سيادة القانون والشرعية فى كل من الغرب والشرق ، فانه تبقى فى تقديرنا حقيقة أكيدة تقرب من بعيد بين المفهومين هى أن نقطة الانطلاق فى

---

(٨) Juridical Dictionary, edited by : P. J. Kudryavtsev.

وكان وقتئذ نائبا لوزير العدل فى الاتحاد السوفيتى) الطبعة الثانية موسكو ١٩٥٦ حـ ٢ ص ١٩٦ نقلا عن The Rule of Law & Socialist Legality.

فى نشرة اللجنة الدولية لرجال القانون رقم ٦ ـ ديسمبر ١٩٥٦ •

الفلسفتين تكاد تكون واحدة ٠٠ وهى الاعتداد بالانسان وقيمته وكرامته ٠٠ وهذا هو وجه الخطأ فيما يذهب اليه بعض الماركسيين فى دحضهم لفكرة كرامة الانسان كمنطق لسيادة القانون ٠٠ فنحن لانشك فى أن ثمة فكرة مسيطرة على الفلسفتين الديمقراطيةوالمركسية وهى الانسان وحقوقه ٠

ففى الغرب :

تعبر سيادة القانون عن قيم تكاد تتفق جميعا على احترام كرامة الانسان الخ ٠٠ ففى مؤتمر عقد فى شيكاغو سنة ١٩٥٧ عن « سيادة القانون كما يفهم فى الغرب » ، كان هناك افتراض بالتسليم بقيم معينة ، وان لم يتفق على ترتيبها بحسب أهميتها ٠ فلقد أشار تقرير وضعه المؤتمر الى أن القوى والدوافع أو الرغبات التى أدت الى أن تظهر النظم الضرورية لسيادة القانون الى الوجود ، والاغراض التى خلقت هذه النظم لاشباعها ، والقيم والافكار الكامنة فيها ـ تنتهى الى أن « سيادة القانون » كما تتحقق فى الغرب ـ تظهر نتيجة أو ثمرة لتلك القوى والافكار والقيم ، وتبلورها فى نظم متسقة ٠ « وأنه داخل نطاق هذا التعميم الواسع كانت احدى المسائل التى أثيرت هى الصلات بين سيادة القانون وبين الاعتراف بحقوق الانسان التى أعلنت فعلا فى اتفاق روما فى ٥٠/١١/٤ أو اعلان الامم المتحدة والدساتير المكتوبة (والدستور الالمانى يبلغ فى هذا الشأن درجة عالية من التحديد) ٠ ولقد أكد بعض المشاركين فى هذا المؤتمر أن سيادة القانون تكون غير مفهومه بدون اعتراف بمدى لهذه الحقوق ٠ وليس يبدو أن هناك من ينكر ـ سواء اعترف أو لم يعترف بذلك صراحة ـ أن سيادة أمثال هذه الحقوق داخل نظام بذاته كانت مظهرا لسيادة القانون » ٠

ولقد كان الاستاذ « كايجى » محقا عندما وضع كرامة الشخص الانسانى أساسا لمبدأ سيادة القانون ، وقد كانت هذه هى نفس الفكرة التى صدر عنها مؤتمر دلهى لرجال القانون عندما قرر أنه لا يجوز للمشرع أن يفرض قيودا على حريات الرأى والاجتماع والجمعيات الا الى المدى الذى تكون فيه هذه القيود ككل ضرورية لكفالة وضع وكرامة الفرد ، ويتساءل « نورمان مارش » ٠٠٠ ما الذى نعنيه بوضع أو كرامة أو قيمة الفرد ؟ وهو يجيب عن ذلك بقوله : « ان هذا لايمكن تأكيده الا فى حدود واقع ما ، والمرشد الوحيد لتحديد المقصود به هو « العقل والضمير » اللذين يزود بهما كل انسان على نحو ما تنص عليه المادة الاولى من الاعلان العالمى لحقوق الانسان وهذا هو السبب فى أنه توجد نقطة معينة يكون من غير المجدى عندها وضع صياغة عامة للقيم التى تقوم عليها سياة القانون ،واذا كان صحيحا أنه من المهم عزل العناصر التى يجب أن يحسب حسابها غير أنها لن تتخذ مادة وتغدو حقيقة الا عندما توضع ـ بعقل ووعى ـ فى الاعتبار والتقدير وذلك فى صلاتها بظروف مجتمع بذاته » ٠

ويعبر عن هذه النزعة الفردية ـ التى تقوم عليها فكرة « سيادة القانون » ـ كثيرون من كتاب الغرب نكتفى هنا بأن نذكر بعض الأمثلة :

يقول نومارن مارش Norman Marsh ان عليها فنرة « سيادة القانون » ـ كثيرون من مختلفة فى النظم القانونية المختلفة غير أن هذه النظم القانونية المختلفة تشترك فى غاية واحدة هى تحقيق حرية الكائن الانسانى الفرد والمحافظة عليها ضد أوجه العدوان التحكمية من جانب السلطة ، فحرية الانسان فى أن يغدو شخصية فردية وأن يبقى واحدا لا توجد الا حيث يحوز مجالا قانونيا للتصرف مكفولا له ، وحيث يكون قادرا على الدفاع عن هذا المجال القانونى ، فالقانون والنظم التى تقام للمحافظة عليه تعوض الفرق فى القوة بين الفرد الضعيف وبين الجماعة القوية وذلك بخلق مجال تتلاقى فيه الدولة والفرد على قدم المساواة وليس هناك أمام الفرد سوى باب واحد ينفذ منه الى التحقيق الكامل لذاته من أجل مصلحته هو ومن أجل مصلحة المجتمع من أجل شىء أسمى ، وهذا الباب هو الفرد نفسه » ٠

ولقد قال الدكتور « صمويل جونسون » بحق : « ليس للمنظمات أرواح تسعى لانقاذها أو أعماق تصل اليها ، والمجتمع الذى يتكون من أفراد عاجزين عن أن يقيموا ويؤكدوا أنفسهم كأفراد يتزايد انزلاقهم الى هاوية الاوهام الايديولوجية » .

***

وأما القيم التى تعبر عنها سيادة القانون فى الشرق فهى ـ بحسب بعض الآراء ـ كرامة الانسان أيضا

ولقد كشف المؤتمر الذى عقد فى وارسو سنة ١٩٥٨ ـ والذى اشترك فيه مراقبون من الغرب ـ عن اعتراف عام من جانب المشتركين فى هذا المؤتمر ، بأن « الشرعية الاشتراكية » ليست مجرد أمر صياغة شكلية، وانما هناك اصرار تام على أن أهم عنصر وأكثره حسما فى الشرعية الاشتراكية ذاتها « بما تنطوى عليه هذه الاشتراكية من قيم ».والسؤال الذى يثور عندئذ هو ما اذا كانت هناك فى فكرة الاشتراكية هذه قيم تماثل القيم التى يعتبرها رجال القانون فى الغرب مفترضة فى فكرتهم عن « سيادة القانون » ؟ ونستطيع أن نجد فى هذا الصدد آراء فقهاء فردية فى مؤتمر « وارسو » تعد ترديدا لآراء فقهاء الغرب ، ومنها على سبيل المثال ما ذكره الاستاذ تشكيفاديز من : « أن الشرعية الاشتراكية تحمى حقوق المواطن السياسية وحرياته ، وهى تحمى حقه فى العمل وفى المسكن وكذلك المصالح والحقوق الأخرى التى تمس أشخاص المواطنين وأموالهم وحياتهم وصحتهم وكرامتهم الانسانية ، فحماية الحقوق والحريات المدنية هى احدى المكونات الاساسية للشرعية الاشتراكية » .

غير أن هناك من جهة أخرى آراء أخرى فى تقرير المؤتمر ، وان كانت تعترف بمكان لحقوق الانسان ، الا أنها تعتبرها مشتقة فى النهاية من مبدأ الاشتراكية ذاتها والذى يعد لذلك أهم العناصر وأكثرها حسما فى الشرعية الاشتراكية.وهو يقول ان الشرعية الاشتراكية لا تنكر حماية الحقوق الفردية لأن هذه الحقوق مستمدة من مبادىء الاشتراكية فى حين أن الرأى الآخر يعطى الأولوية للحقوق الفردية .

وهذا يعنى أن « سيادة القانون » والشرعية الاشتراكية لا تعبران فى الغرب والشرق عن قيم انسانية مختلفة ، وانما هما هما تعبران ـ أرادتا أو لم تريدا ـ عن قيم انسانية مشتركة تتجاوز الحدود القومية والمذهبية ، ولكن الاختلاف الجوهرى هو فى الأساليب المختلفة التى تضع مبدأ سيادة القانون والشرعية موضع التنفيذ، ولعمق هذا الاختلاف تظهر وكأنها تعبر عن اختلاف فى القيم .

***

سيادة الثانون فى الثورة

ما هو المقصود بالثورة ؟ وما هو مداها ؟

فى تحديد الصلة بين الثوره وسياده القانون نرى من الضرورى ان نبين اولا ما الذى نعنيه بالثوره ، وما هو مداها .

ونحن نستبعد من نطاق هذا البحث الانقلابات ونقصر حديثنا على الثورة بوصفها التعبير العنيف عن معنى جديد من معانى القانون . ولقد كان الاستاذ « ليفى بريل » موفقا كل التوفيق عندما عرف الثوره بانها حركة اجتماعية عنيفة تقوم بقوة الشعب دون مراعاة الأشكال القانونيه بقصد احلال نظام قانونى محل نظام آخر ، فالهدف الاول للثورة اذن هو القضاء على نظام قانونى قائم واحلال نظام قانونى جديد محله .. ولهذا السبب تختلف الثورة عن الانقلاب اختلافا واضحا من حيث صلات كل منهما بالقانون :

فالثورة تنطوى على معنى واضح ومحدد للعلاقات السياسية او الاجتماعية أولهما معا.

أما الانقلاب فهو عمل مادى صرف لا يستهدف سوى قلب نظام أو تغيير اشخاص، واذا هو مس النظام القانونى فالى القدر الذى يمكن الانقلابيين من تقلد السلطة ..

وفى حديثنا عن الصلة بين سيادة القانون والثورات لن نتناول سوى ثورة تكون قد أعلنت فى صراحة عن برنامج معين يستهدف تحقيق الديمقراطية أو الاشتراكية ـ أى

الحريتين السياسية والاجتماعية ـ ويكفل سيادة القانون ..

غير أن اعلان الثورة عن التزامها بتحقيق الحريتين السياسية والاجتماعية وسيادة القانون ليس من شأنه تجنب مشكلات دقيقة يثيرها التغيير الثورى فى العلاقات الاجتماعية، ولعل من أهم هذه المشكلات :

أولا : هل هناك تغيير فى الوضع القانونى للحكومة الثورية قبل الثورة وبعدها وكيف تستطيع مثل هذه الحكومة متابعة سلطتها فى اطار من التنظيم القانونى يحميها ويحمى كيانها ؟

ثانيا : هل يستطيع القانون أن يوفق بين الأمان الذى يجب أن يتوافر للفرد وبين متطلبات الجماعة أم أن القانون يعجز عن هذا التوفيق ؟

ثالثا : الى أى مدى يستطيع القانون أن يلاحق التغيير الذى تنشده الثورة ؟ وهل هناك تعارض حقيقى بين مطالب الاستقرار كما يمثلها القانون وبين مقتضيات التغيير الثورى ؟

ان المقام لا يسمح بمواجهة تفصيلية للمشكلات السابقة ولذلك نكتفى بوضع خطوط عامة لها .

***

الوضع القانونى للحكومة الثورية قبل الثورة وبعدها ، ومدى خضوعها لتنظيم قانونى

لا يثور أى شك فى أن القانون الذى يخضع له نظام ثورى يكافح من أجل وجوده، يختلف اختلافا جوهريا عن القانون الذى يجب أن يخضع له نظام توطد مركزه ، ولاجدال كذلك فى أن ضمانات الأفراد وحرياتهم فى ظل ثورة محتدمة ، أقل بكثير من ضماناتهم وحرياتهم فى ظل أمن مستتب .. واذا كان من المبادىء القانونية المقررة أن حماية السلطة لكيانها أمر حيوى ومشروع ، الا أن هذه الحماية لابد وأن تتم فى نطاق اطار قانونى واضح ومحدد، واذا كان من الواجب ان يلقى المذنب جزاءه ، فانه من الواجب أيضا أن يتم ذلك وفقا للقواعد الشرعيه العادية فى العقاب ومحاكماته.

ان الدعوة الى تقنين الثورة قد ارتبطت بالدعوة الى ان يظل القانون دائما أكبر من مراكز القوة وأعلى من ارادات الأفراد ، وحتى يتحقق ذلك لابد وأن يكون القانون صادق التعبير عن روح التطور لا عن السيطرة الواقعية لطبقة من الطبقات أيا كان الاسم الذى تتسمى به .. ولن يكون القانون كذلك ما لم يتحرر من الوصف المهين الذى يطلق عليه فى بعض الدول وهو أنه مجرد « أداة » فى يد سلطة الحكم شأن أدوات القهر الأخرى، وما لم ينظر اليه على أنه المنظم لكيان الثورة فى سعيها لتحقيق الحرية والرخاء للجماهير.

ولا سبيل الى هذه النظرة ما لم تضع الثورة المنتصرة ايمانها فى القانون ، فتبدد وهما خطيرا يقيم التعارض والعداء بين القانون والثورة .. فى حين أن الثورة ـ فى نهاية الأمر ـ فكرة قانونية على نحو ما ، وليس فى خضوع السلطة الثورية للقانون انتقاص من قدرها ، ذلك انها لا تجد مبررها الا فى تحقيق كرامة الانسان وهو هو نفس الهدف الذى يجب أن يكون غاية اى قانون جدير بهذا الاسم ، والجدير حقا بأن يطلب أن تكون له السيادة فى السلم والحرب ، وفى الظروف العادية والثورية على حد سواء .

ونود أن نؤكد أنه ليس فى احترام سيادة القانون ما يهدد أمن الثورة أو سلامتها ، فالاجراءات التعسفية ـ ولا يغير من وصفها هذا أن تفرغ فى صورة قانون ـ ليست السبيل لحماية النظام الثورى ، وانما يستمد هذا النظام حمايته من داخله وليس من خارجه ، وحماية النظام الثورى من الداخل تعنى أن تلتزم الثورة مبادئها وألا توجد هوة بين ما تعلنه وبين ما يجرى عليه التطبيق ..

***

مدى قدرة القانون على التوفيق بين أمان الفرد وحقوق الجماعة

ليست هناك شبهة فى أن مشكلة التوفيق بين حقوق الفرد وسلطة الجماعة مشكلة من

عقد المشكلات فى النظرية السياسية وهى أكثر تعقيدا فى نظام اجتماعى يتحول نحو الاشتراكية :

لقد كان التعارض - فى الديمقراطيات التقليدية - قائما بين سلطة سياسية (تحجم عن التدخل فى النشاط الاقتصادى) وبين حقوق سياسية يمارسها الافراد .. وكانت الحلول السياسية والقانونية كافية فى هذا المجال .

أما التعارض فى نظام اجتماعى يتحول نحو الاشتراكية ، فهو تعارض بين مقتضيات التنظيم الاجتماعى الاشتراكى وبين الحريات السياسية ذاتها .. ولقد واجهت الديمقراطيات الاجتماعية نوعا من هذا التعارض بين الحقوق الاجتماعية والحريات السياسية ، اذ كان من شأن اعطاء المزيد من الحقوق الاجتماعية المساس بكثير من الحريات السياسية .. غير أن التعارض فى نظام اجتماعى يتحول نحو الاشتراكية أكثر حدة ، لأن الامر لا يقتصر عندئذ على مجرد انتقاص من حق الملكية ، وانما هو يتجاوزه فى بعض الاحيان الى انتزاع هذا الحق كلية حيث يقدر انه ينطوى على الاستغلال .. ليس هذا فحسب ، وانما قد تعالج الحريات السياسية من زاوية جديدة غير مألوفة فى الديمقراطيات الغربية ، يكون من شأنها التضييق على هذه الحريات ..

والامر الجوهرى فى التنظيم القانونى لهذه المسائل كلها ، هو أن يحاول القانون أن يوفق بقدر الامكان بين ما يجب أن يتوافر للفرد من أمان وطمأنينة وبين ما تقتضيه متطلبات الجماعة من اتساع وعمق فى تثبيت معانى الحرية ..

واذا لم يكن من حق قلة من الافراد أن تتشبث بما قد تدعيه من حريات لها هى فى حقيقتها امتيازات تتنافر مع الصفة العامة للحرية - الا انه من واجب المجتمع الاشتراكى أن يجرى عملية انتزاع هذه الامتيازات فى حدود تنظيم قانونى يتسم بالعمومية والتجريد ، وفى رحاب نظام لا يستهدف انتقاما وانما يستهدف توفير الكرامة الانسانية للملايين وبلا استثناء ، ذلك أن الثورة الحقيقية لا يمكن أن تستهدف تصفية أشخاص ، وانما هى تصفى فحسب الاوضاع المناهضة لنظامها الاجتماعى .

***

مدى ملاحقة القانون للتغير الثورى ومشكلة التعاون بين جمود القانون ومقتضيات التغير

نطالع فى الكثير من الكتابات وجهة نظر تدعى أن القانون أداة عاجزة عن ملاحقة المفاهيم الثورية ، وعن تحقيق أهدافها .. ولاشبهة فى أن مبدأ سيادة القانون - حتى فى أضيق تفسيراته - يوجب أن تحترم أن القوانين القائمة الى أن تلغى بأداة تعادلها فى القوة ، وليس من حق القضاء أو السلطة التنفيذية أن تتحلل من هذه القوانين أو أن تعطل تنفيذها ، ولا يجدى فى الدفاع عن هذا التعطيل القول بأن القانون متخلف عن مفاهيم الثورة ، أو أن هذا القانون صار متعارضا مع مبادىء الثورة اذ فضلا عن البلبلة التى سوف تترتب على الأخذ بهذا النظر - نتيجة للتفاوت الكبير فى تقدير ما اذا كانت القوانين مناهضة أو غير مناهضة لمبادىء الثورة - فان أخطر ما ينطوى عليه هذا الاتجاه هو أنه يسمح لرجل الادارة أو للقاضى بأن يعلن تقديره الشخصى فوق قاعدة قانونية عامة لم تر الحكومة الثورية نفسها الغاءها بالطريق المرسوم .

على أن مشكلة التعارض بين الاستقرار القانونى والديناميكية الثورية لاتثور فى صدد تعطيل بعض التشريعات التى توصف بأنها مجافية للمفاهيم الثورية ، وانما تثور المشكلة بكل قوتها فى تحديد موقف القانون من التغييرات الثورية الحتمية فى العلاقات الاجتماعية ، وبالتالى امكان التوفيق بين مطالب الاستقرار التى يمثلها القانون وبين مقتضيات التغيير كما تمثلها ارادة الثورة . وربما بدا أن هذا التوفيق أمر مستحيل ، اذ كيف يتصور أن تقيد « ديناميكية » الثورة فى « قوالب » القانون ؟ ومن أسف أن وجهة

النظر هذه قد اعتنقها جانبان متطرفان : يرى أحدهما أن أزمة الحضارة المعاصرة هي في « انهيار القانون » أو سقوطه ، ويرى الجانب الآخر أن في قيام الاستقرار القانوني تهديدا لمكاسب الثورة .

أما وجهة النظر الأولى : فتعبر عنها جهرة من فقهاء الغرب البارزين ، فالفقية «روبييه» يوضح في نظريته العامة عن القانون أن القيمة الاجتماعية الأولى التي يجب على القانون أن يحققها هي « الامان القانوني » – ويقول انه اذا اختفت هذه القيمة الأساسية ، فلن توجد قيمة أخرى يمكن أن تبقى – حتى أن لفظ التقدم نفسه سوف يغدو مثار سخرية ، كما تتزايد المظالم القاسية مع الفوضى ، يترك القانون مكانه لما أسماه احد المعاصرين «الفكرة السياسية » أي مجرد اعتبارات الملائمة ، وعندئذ لن يكون أمام الفقيه ما يقوله ... واعتبر الفقيه « Ripert » أنعله التشريعات المعاصرة هي أنها فقدت القدرة على تحقيق غايتها الأولى وهي الاستقرار ، بل اعتبر أن الانظمة القانونية تعاني أزمة عنيفة أسماها « انهيار القانون » أو سقوطه وأن مصدر هذا الانهيار هو القوانين ذاتها التي لم تملها العدالة ، أو التي عجزت عن المحافظة على النظام . وانهيار القانون مرتبط في نظر « ريبير » باغفال « قانونية عامة » هي غاية ما انتهت اليه الحضارة . وهو يرى أن الأمر في حاجة الى دفاع عن « ثبات القانون » Statisme du droit ، وأنه للمحافظة على الحضارة ، يجب أن يفرض على المشرع احترام المبادئ القانونية التي ترتكز عليها هذه الحضارة (٩) .

ولا شبهة في أن الاستقرار أو الأمان القانوني هو احدى الغايات الكبرى التي يجب أن ينشدها أي تنظيم قانوني جدير بهذا الاسم ، ولايشذ عن ذلك «نظام ثوري» غير أنه لا يجوز أن تكون الدعوة الى هذا الاستقرار ستارا لتجميد الأوضاع الاجتماعية كما هو شأن بعض رجال القانون الذين يتجاهلون مطالب العصر الثوري الذي نعيش فيه ، والذين يصدق عليهم وصف الاستاذ « ليفي بريل » انهم « ينظرون بجزع الى الثورة لا بسبب طبيعتهم المحافظة فحسب ، بل لأنها تهدم أسس عالمهم » ، وان كان يعيب رأي « بريل » تعميمه حين زعم أن رجل القانون محافظ بسبب طبيعة مهنته ، فهو يعيش في عالم ساكن وكل حركة تفزعه لا بسبب انها « تزيل الحدود » حسب وصف « بودلير » لها ، بل لأنها تمس حقوقه ، ولذلك يتجه رجل القانون اتجاها طبيعيا الى أن يكون شعاره « السكون لا الحركة » ومثله الأعلى هو عالم آلي لا يتغير ، ولهذا نستطيع أن نفهم سر تجهمه للثورة ، سواء في لفظها أو في معناها (١٠) .

أما وجهة النظر الثانية : فهي تتطرف في اقامة العداء بين الثورة والقانون مندده بجمود القانون . واذا كان مما يناهض روح القانون أن تستغل الدعوة الى استقراره لتجميد العلاقات الاجتماعية فانه لا يقل عن ذلك عدوانا على فكرة القانون ، رفع شعار الثورية للانفلات من كل قانون ، ودون تمييز بين الرغبة المشروعة في الأمان القانوني وبين مناهضة صارخة لروح التطور . ومن أسف أن الفقه السوفيتي قدرفع هذا الشعار منذ الثورة الروسية ، فأقام العداء – منذ البداية – بين الثورة والقانون . وقد كانت نقطة الانطلاق في هذا الفقه أن سلطة الدولة – في فترة دكتاتورية البروليتاريا – سلطة مطلقة لاحدود لها لاتخضع بطبيعتها لأي قيد قانوني تأسيسا على تمثل هذه السلطة فعلا ماديا عنيفا لايحده قانون وعلى أن دكتاتورية الطبقة العاملة هي حكم الطبقة المسيطرة اقتصاديا التي تملك حق العنف وهو مصدر السلطة والقانون . وقد انتقلت هذه النظرة من الفلسفة السياسية

---

(٩) يراجع في هذا مؤلفي الاستاذ دربيير
Ripert : Le Declin de Droit.
Les Forces Créatrices de droit.
طبعة ١٩٤٩ المقدمة من جالى د – طبعة ١٩٥٥ ص ٩٢ ، ٤١٥
Abbé, Jean Boulier : The Law above the Rule of Law, 1958.

(١٠) نقلا من مؤلف الاب دوجان بولبين

الى النظرية القانونية ، فقضى معنى العنف على مستقبل النظام القانونى ٠٠ والا فأى معنى لقانون يعلوه العنف فى مراتب القيم ؟!

لقد كان من شأن هذه الدعوة ، ومن شأن التفسير الماركسى للقانون على أنه مجرد بناء فوقى لخدمة المصالح الاقتصادية ، أن يجرد « القانون » من كل احترام وأن لا ينظر اليه الا على أنه مجرد أداة لخدمة سياسة الحكام ٠٠ وانه لأمر مؤكد أن التجارب التى ترسبت فى أعماق الفكر الروسى هى التى قوت الاتجاه الاطلاقى فى الفسفة السياسية السوفيتية ، وكذلك كان للنظام الاستبدادى (الذى عاشت روسيا فى ظله قرونا طويلة) أثره الواضح فى طبع الفلسفة السوفيتية للقانون بهذه الصفة المطلقة فى انكار أى قيد على سلطة الدولة ٠

والأمر الذى لا شبهة فيه أن « ثورة اجتماعية » تأخذ بمبدأ « سيادة القانون » سوف ترفض الحلين المتطرفين السابقين :

— فهى مدفوعة — تحقيقا لأمانى الجماهير — الى أن تغير « بالقانون » العلاقات الاجتماعية، فالقانون المتحرك اذن هو أداتها فى التغيير ٠

— غير أنها ملزمة — بحكم تعهدها باحترام الحرية — بأن ترعى للقانون حرمته ، ولن تكون للقانون حرمة أو سيادة اذا نظر اليه على أنه مجرد اداة فى يد السلطة ، فمثل هذه النظرة تهدد النظام القانونى بالانهيار ٠٠ وحسبنا ماقرره الاستاذ « رينيه دافيد » — وهو أحد الثقاة الذين أنصفوا النظام السوفيتى — من أن نظرة السوفيت الى القانون على أنه مجرد أداة ، خطر على مكانة القانون وتبعا لذلك خطر على مبدأ الشرعية ٠٠ فمبدأ الشرعية يعانى — كأمر لا مفر منه — من واقعة أن القانون لم يعد يعتبر قيمة مطلقة ، بل حتى لا يربط بقيم مطلقة ، ويزيد من هذا الخطر أنه اذا اعتبر « القانون » مجرد أداة بسيطة فى خدمة سياسة الحكام ، فان مؤدى ذلك أن يوضع الحكام أنفسهم فوق القانون ٠ فى حين أن المعنى الأول لسيادة القاعدة القانونية أن تكون ذات قيمة مطلقة تملى على الحكام سلوكهم ، وتحول دون أوجه التعسف التى يطوع ارتكابهم لها استحواذهم على القوة وتصرفهم فيها وفرض ارادتهم عن طريقها ٠٠ ولقد أظهرت التجربة السوفيتية أن الضمانات التى اقترحها الفقه السوفيتى بديلة عن مبدأ سيادة القانون — لم تكن فعالة ، وأن أوجه التجاوز فى عهد « ستالين » — التى ندد بها « خروشوف » فى المؤتمرين العشرين والثانى والعشرين للحزب الشيوعى — تشهد بأن هناك خطرا فى أن يفرض الحكام سيادتهم بحجة حماية النظام ٠٠ وأن الاعلان بأن القانون خاضع للمصالح الاقتصادية والسياسية ، من شأنه المساس باحترام القانون ، وأنه لم يغب عن الفقهاء السوفيت الخطر الكامن فى الربط بين القانون والسياسة ، وهم وان لم ينكروا المبدأ ، الا أنهم اجتهدوا فى أن يستخدموا بعض الصيغ التى تصوروا أنها تعالج هذا الخطر (١١) !

ان النظرة الاشتراكية السليمة — المبرأة من العقد النفسية التى أورثها الحكم القيصرى للشعب الروسى — توجب أن تكون للقانون السيادة أكثر مما له فى نظام ديمقراطى غربى وأن تكون هذه السيادة الحائل المنيع بين السلطة المتزايدة حتما فى نظام اشتراكى وبين الانحراف ٠

***

سيادة القانون فى نظام اشتراكى

الزعم بارتباط سيادة القانون بقيام الملكية الخاصة

اذا كانت دولة القانون قد ارتبطت تاريخيا بقيام الفرد ، فهل تندثر سيادة القانون باندثار الفردية الاقتصادية ؟

ان التيار الغالب فى الفكر الغربى يؤكد أن النظام الاقتصادى الفردى — الذى يقدس

(١١) يراجع فى هذا كله مؤلف الاستاذ René David عن المصدر السابق النبذات من ١٤٥ — ٩٤٧ ص ١٩٣ — ١٩٦ ٠

حق الملكية الفردية – هو وحده الذى يسوده حكم القانون ، وأن الحريات المدنية والمشروع الخاص توأمان غير منفصلين وأنهما لا يمكن أن يعيشا الا فى وحدة غير قابلة للانفصام ، ويساق للتدليل على صحة هذا الفرض أن الحريات المدنية بلغت أقصى نموها فى الفترة التى اتسع فيها المشروع الخاص الى أقصى حدوده ، وأن الصناعة الحديثة نبعت من نفس الثورة ضد سلطة الدولة الاستبدادية تماما كما فعلت النزعة الديمقراطية الحرة وأنه لا ينقض من قيمة هذا التدليل مسلك الصناعة العملى حيث تهدر – فى الغالب – الفضائل الديمقراطية فى حياتنا العملية ، والواقع أن جمهرة الفقه الغربى قد ربطت منذ وقت بعيد بين سيادة القانون وبين مذهب اقتصادى يقوم على أساس عدم تدخل الدولة فى المجال الاقتصادى وتقديس الملكية الفردية، وأعتبرت أن هذه الفردية الاقتصادية هى الأساس الوحيد لقيام الحريات وسيادة القانون ، بل ولا يزال الجانب الأكبر من الفقه الغربى حتى الآن يرد الحريات التقليدية كلها الى حق الملكية رابطا مصيرها بمصير هذا الحق ويصعب أن نضمن هذه العجالة آراء هؤلاء الفقهاء كلهم ، غير أننا نكتفى بتسجيل بعض الآراء التى تعبر عن هذا الاتجاه فلقد رأى الأستاذ Reuter مثلا أن المشكلة التى تواجه عصرنا هى : « الى أى حد يمكن أن تستمر الحريات الدينية والثقافية بعد اهدار حرية التملك ؟! » وقال « هو ريو » ان الحرية الفردية هى عملاحرية المشروع الخاص. ودافع الأستاذ Trotabis عن فكرة أن حق الملكية حق مقدس ومنبع الكرامة الانسانية حيث يقول :

« ان اعلان الحقوق لايرى فى الملكية المزايا المادية والثروة بقدر ما يعدها وسيلة للدفاع عن الفرد وحمايته ، فيجب أن يكون الفرد قادرا على أن يكتسب بابتكاره وعمله سلعا تكفل وجوده واستقلاله ، وبالتالى تمكنه من أن ينمو وأن يحترم ، وأن هذا الاحترام للكرامة الانسانية سواء من جانب الأفراد الآخرين أو الدولة هو الذى يدعو الى قيام حق الملكية وتبريره ، أكثر مما يدعو اليه الكسب المادى للسلع أو الثروة .. ولذلك يكون من الخطأ تصوير حق الملكية على أنه مجرد تعبير عن امتياز اقتصادى ، لأنه لو كان الأمركذلك لما أدى اختفاؤه الى الاضرار بافراد، ولذلك نستطيع أن نقول دون خجل انالملكية الخاصة مقدسة الى المدى الذى تكون فيه شرطا لنمو الفرد والدفاع عنه والى الحد الذى لا يقيم حقه فحسب ، وأيضا وظيفته الاجتماعية » .

ويساير كثيرون من الفقهاء الغربيين هذه النظرة ويصلون الى أقصى مداها حيث يقررون أنه لن تقوم سيادة للقانون سواء فى نظام ديمقراطى موجه أو فى نظام اشتراكى.. فيرى الاقتصادى « هايك » أن التوجيه يفرض نظاما من العمل الرسمى يجعل من المستحيل تنبؤ الفرد بما سيحدث له ، وهو يرى أن انعدام التنبؤ يعنى اهدار سيادة القانون ، لان سيادة القانون تعنى فى نظره تقييد الحكومة – فى جميع تصرفاتها – بقواعد محددة ، ومعلنة من قبل ، وهذه القواعد تجعل من الممكن التنبؤ بتأكد تام أية سلطة هى التى سوف تستخدم قوة الاكراه فى ظروف معينة ، وهذه المعرفة هى الأساس الذى يجرى عليه تنظيم أمور الفرد » .

* * *

والذى نراه أن الربط بين سيادة القانون أو الحرية من جهة وبين النظام الاقتصادى الرأسمالى من جهة أخرى ، تحكم لايقبله المنطق ذلك أن الاعتراف للفرد بحقوق معينة فى مواجهة الدولة وكفالة هذه الحقوق قانونا أمر لا شأن له بالنظام الاجتماعى ، وما اذا كان فرديا أو اشتراكيا :

أولا – فمن الخطأ البالغ التأكيد بأن سيادة القانون بتطبيق مذهب اقتصادى معين ذلك أنه لا يترتب على الأخذ بمبدأ المشروعالخاص فرض سيادة القانون ، كما أنه لا يترتب حتما على التوجيه الاقتصادى أو الاشتراكية اهدار هذه السيادة .. وبعبارة أخرى أن سيادة القانون ليست مرتبطة بشكل خاص من أشكال التنظيم الاقتصادي فالمجتمع الذي يقوم اقتصاده على

المنافســـة والمشروع الخاص لا يحتكر الحرية وسيادة القانون ، كما أن النظام الاشتراكى لا يكفل بذاته الحرية وسيادة القانون ، وانما يتوقف الأمر فى النهاية على أسلوب الحــكم وارادة المحكومين وتصميمهم ، فتتوافر الحرية وسيادة القانون فى أى نظـــام للحكم يحترم آدمية المحكومين ، ويصر المحكومون من جانبهم على التمسك بالحرية وسيادة القانون ويقاومون بصلابة أى اعتداء عليهما .

وحتى اذا نحن اعتبرنا سيادة القـــانون متوقفة على الاعتراف بالحريات التقليدية ، فان اهدار حق الملكية أو التضييق عليها لا يؤدى بداهة الى اهدار سيادة القانون طالما احترمت الحريات ، ووجه المبالغة فى موقف الرأسمالية أنها تضخم حق الملكية الى حد يبتلع معه سائر الحريات والى حد يجعلها تعتبر المســـاس به مهدرا للحريات كلها ! واذا كانت الآراء التى تمثل التيار الغالب فى الفكر الغربى تنتهى الى نتيجة واحدة هى أن النظام الذى يقدس حق الملكية هو وحده الذى يسوده حكم القانون ، فان كتابا محايدين قد أوضحوا أنه اذا كان هناك أمر مشترك بين الاقتصاد الحر والليبرالية فهو فقط الرغبة فى التحرر من تقييد الحكومة ، غير أن المذهبين يختلفان اختلافا عميقا فى الغرض من هذا التقييد : « فالليبرالية » تريد الحرية التى تحقق ازدهار الأفراد وتكفل حرية التعبير عن الرأى .. أما « الاقتصادى الحر » فلا يريد الا تلك الحرية التى تكفل تشـغيل رأس المال تشغيلا مربحا دون مبالاة بالنتائج العملية لهذا الربح ، ولذلك يكون من المحتوم قيام التعارض بين التيارين ، لأنه حيث يسيطر مذهب الاقتصاد الحر ، فلن يسـمح بالحريات التى تجرؤ على مناقشة الأسس المادية النفعية التى يقوم عليها نظام اقتصـــادى حر ، ولقد سجل الكتاب المنصفون أن « العمل الكبير » قد عاق حرية التعبير وعاقب الفــــكر الجرىء المستقل (وظهر ذلك سواء فى الأوســـاط العلمية أو الصحافة العالمية) وأنه آمن لسنوات كثيرة بأن مصلحته تقتضى أن تكون جمــاهير الشعب طيعة وغير منظمة .

يضـــاف الى ما تقدم أن « حق الملكية » وما تفرع عنه من حقوق تتعلق بالنشاط المادى والتجارى لا يمكن أن تبلغ فى أهميتهـــا أو قداستها أو استقرارها مبلغ الحريات اللصيقة بشخص الانسان والتى يعد المساس بها مساسا بكرامته واعتباره ، ومن المعقول ان يتطور وضع حق الملكية مع تطورات الجماعة ومطالبها وأن يتحدد مضمونه وفقا لهذه المطـــالب دون أن يدعى أن سيادة القانون قد أهدرت لأن الدولة أرادت أن تقلم أظافر الملكية الطاغية .. وهى هذه الملكية التى يضفى عليها — المدافعون عن الرأسمالية — قداسة مبالغا فيها ، وقد فاتهم أنه يجب ألا ينظر الى « حق الملكية » فى ذاته وانما من حيث أنه أداة لرفاهية الانسان وخيره فهو وسيلة وليس غاية ، وانما الغاية الجديرة بحماية القانون هى حق الانسان فى الحياة ، فاذا كان حق الملكية فى صورته المطلقة ينتهى الى قيام الاستغلال والتسول والبطالة والرعب من المستقبل الغامض بالنسبة للملايين ، فكيف يقال بعد ذلك أنه مصدر الكرامة الانسانية ؟ لقد تنبه الى هذه الحقيقة اقتصـــاديون غير اشتراكيين — مثل الاقتصـــادى الملكى Villenenne Bargement وسجلوا فى دراســـاتهم أن الحريات التى تكفلها الحرية الاقتصادية هى حرية الموت جوعا ، ولذلك لا يجوز أن يقال عن النظم الاجتماعيـــة أو المذاهب الاقتصـــادية التى تريد أن تحمى الملايين من لعنة هذه الحرية أنها نظم لايسودها حكم القانون ، لأنه اذا كان الأمر كذلك فهو اذن قانون غير مشرف وغير انســـانى ، لأنه قانون الغاب .

فسيادة القانون اذن أمر مستقل عن طبيعة النظام الاجتماعى ، وما اذا كان اشتراكيا أو رأسماليا ، بل وهى ظاهرة مركبة ومعقـــدة لا تتوافر بالنظام الاجتماعى الذى يوصف دون غيره بالحرية أو الديمقراطية ، وانما هى تتوافر بالمزج بين النظامين والتزاوج بين الأساسيين الاجتماعى السياسى .

ثانيا — والخطأ الثانى الذى يرتكبـــه المنكرون لسيادة القانون فى ظل نظام موجه أو اشتراكى هو تصور هم أن لسيادة القانون صورة واحدة لا تتغير ، وهو أمر غير صحيح

حتى بالنسبة للنظم الديمقراطية الغربية ذاتها، وانما الصحيح أن فكرة سيادة القانون تأخذ مظاهر مختلفة باختلاف النظم القانونية وباختلاف الأزمنة ، ولا يهدر الفكرة التحويرات التى توجب ادخالها ظروف قاهرة ، طالما لم ينازع فى جوهرها ، وهو خضوع سلطة الحكم للقانون الذى يضعه المحكومون أو ممثلوهم ، فسيادة القانون قيمة من القيم الديمقراطية يجب أن تتخذ من الصور ما يتفق مع الصور الجديدة التى تتشكل فيها سلطة الحكم على خلاف ما كان سائدا فى القرن التاسع عشر ، ولا يستطيع منصف أن ينازع اليوم فى أن « دولة الرخاء » قد صارت حقيقة من حقائق العصر الذى نعيش فيه (وهى حقيقة راسخة لن تزول ، بل ربما كان الأكثر احتمالا أن تزداد سلطة دولة الرخاء نتيجة الازدياد الحتمى لوظائفها) ولهذا كان لزاما أن يتحدد معنى سيادة القانون فى ضوء هذه الحقيقة ، ولقد كان الفقيه Friedman محقا عندما قال : « ان محاولة العودة الى نظرية التسبب الاقتصادى المحض وانقاص نشاط الدولة الى وظائف العهد القديم كجابية للضرائب وكشرطى وحارس – هذه المحاولة هى فى الحقيقة رفض لاتجاه الحضارة الحديثة بكل قوتها نحو تزايد سلطة التشريع التفويضى ونحو تزايد قوة البيروقراطية ، ونحو تناقص سلطة البرلمان، ونحو تركيز سلطات الدولة سواء فى الضرائب أو الاشراف على عديد من الصناعات الأساسية هذا الاتجاه حقيقة لا يمكن انكارها ، ولا يمكن التخلص منها » .

ولقد اعتبرت مظاهر هذا الاتجاه عند keeton ومن تابعهم وتابعوه دافعة النظم الديمقراطية الى حافة الدكتاتورية ، أو متجهة بها فى الطريق الى موسكو ، والواقع أن هذه المظاهر ليست فى ذاتها وجها للدكتاتورية ، وانما هى تعبيرات عن القوى الاجتماعية ، التى لم يعد الحكام فى حل من تجاهلها ، أو لم يعودوا يستطيعون تجاهلها ، وهى بدون شك تضغط كثيرا على الدساتير والقوانين التى وضعت فى ظروف العالم المعاصرة ، وبذلك تحول دون عملها على وجهها القديم .

ولكن اذا فهم القانون على وجهه الصحيح وهو « أنه تعبير حى ومتطور عن المعانى والقيم السائدة فى مجتمع ما » ، فانه لا مانع يحول دون أن يتحرر معنى سيادة القانون . واذا كان الأمر كذلك فانه لا مانع يحول دون كفالة سيادة القانون فى نظام موجه .

* * *

واذا كان من الخطأ الربط بين « سيادة القانون » ونظام اجتماعى بعينه هو النظام الرأسمالى الذى يقوم على أساس تصوير خاص لوظائف الدولة ومهامها ، فانه لا يقل عن ذلك خطأ نفى قيام سيادة القانون لمجرد اعتناق النظام فكرة التوجيه الاقتصادى بحجة انعدام الأمان والتنبؤ فى ظلها .

فوجهة نظر الدوائر المالية الواسعة النفوذ تروج للفكرتين معا ، حيث تماثل بين سيادة القانون وبين وجهة النظر الرأسمالية فى وظائف الدولة ، كما وأنها تصم كل اتجاه معارض للرأسمالية ، ولا سيما التوجيه الاقتصادى بأنه اهدار لسيادة القانون .. وعلى الرغم من أن هذا التصوير لا يعبر عن سيادة القانون بمعناها المتعارف عليه – بل يعبر عن وجهة نظر اقتصادية فردية فى وظائف الدولة – فاننا نود أن نناقش هذا التفسير الاقتصادى الرأسمالى لسيادة القانون لنرى ما اذا كان يمكن أن يثبت أمام فحص :

فهل تحرر الاقتصاد غير الموجه من عدم التبصر الذى يدعى أنه أساس التوجيه الاقتصادى ؟

وهل يتطابق عدم التبصر هذا والاستبداد أم أن هذه الاجراءات التى تتم والتى ما كان يستطاع أن يتنبأ بها قد تحقق سيادة القانون كمعنى شعبى وان خرجت على معناها الشكلى الذى تريد الرأسمالية فرضه عليها ؟

لقد أجاب « فريدمان » على السؤالين بتفصيل فأوضح أولا أن « هايك » ومن شايعوه يغفلون أن المجتمع غير الموجه لا يخلو هو أيضا من انعدام التبصر . فالعديد من الحقوق والمصالح الخاصة تهدرها تصرفات غير

متنبأ بها وبدون تعويض ، ويوضـــح أحد الأحكام الصادرة من المحاكم الانجليزية سنة ١٨٩٢ كيف يستطيع اتحاد أقوى اقتصـاديا أن يحطم عملا مشروعا منافسا دون أى جزاء قانونى ٠٠ كما أنـــه قد تحطمت مصــــالح واختراعات مشروعة نتيجة التكييف القـانونى « لبراءات الاختراع » وتفسيرها على أنها لاتخول الاستئثار باستخدام اختراع ما ، بل وأيضـا السلطة فى عدم استعماله ، كما أن الاتحادات القوية داخل صناعة ما (عن طريق نظـام التراخيص المتبادلة أو المشتركة واستنادا الى سلطتها فى أن ترهب مخترعا غير مقتدر ماليا وأن تخرجه من النزاع تستطيع أن تكره هذا المخترع على بيع اختراعه أو أن تضع قيودا على الانتاج ٠

هذه الأمثلة القليلة ـ وأكثر منها يحدث فى العمل ـ توضح أنه اذا كانت سيادة القانون تتنافر حقيقـة مع انعـــدام التبصر لوجب أن يعتبر الاقتصاد الرأسمالى مهدرا لســـيادة القانون ، لأنه لا يمكن أن تنظم فى ظله أمور الأفراد على أساس تنبؤ واضح ومؤكد ، بل ربما كان انعدام التبصر فى الاقتصاد الرأسمالى أفدح فى ضرره : فمشـــترى المنزل ـ فى اقتصاد موجه ـ الذى قد تنزع ملكيته بسبب توسيع مدينة ما ، سوف يعوض استنادا الى قوانين ولوائح توضح مقدما فى حين أن رجل الأعمال الذى يكره على تصفية أعماله بسبب تصرف اتحاد ما مضاد له ، لن يجد تعويضا ٠ ففى الاقتصاد الموجه تضع القـوانين واللوائح ـ مقدما ـ معايير لما يعتبره « هايك » أمورا لا يمكن التنبؤ بها وتجعل هـــذه الاجراءات أقـل ضررا من تلك الأمـور التى تحدث فى اقتصاد رأسمالى ٠

وأوضح « فريدمان » ثانيـــا أن الاجراءات التى يتخذها الاقتصاد الموجه (والتى تعد فى نظر « هايك » مهدرة لسيادة القانون لأنــه لا يمكن التنبؤ بها) أكثر تحقيقا لســـيادة القانون من مسلك النظام الرأسمالى ، فلقـــد تحطمت المصالح المشروعة فى ظل هذا النظام الأخير نتيجة انعدام الاشراف العام (فيما عدا القليل) على الأمور الخاصة ، فى حين تركت الحرية للمشروعات القوية فى أن تتدخل فى هذه الأمور ٠ والفرق بين التدخل عن طريق التصرف العام والتدخل الذى يتم عن طريق المشروعات الخاصة القوية هو أن التدخل العام يخضع لنوع من الرقابة العامة والسياسية ، وكذلك يخضع لالتزامات واسعة فى التفويض المالى ، فى حين أن التدخل الخـــاص يتدعم ويتحكم دون رقابة ودون تعويض ، ولهـــذا طالب الأفراد والجماعات بحمـاية الدولة عن طريق القوانين المناهضة للاحتكارات لتقييد أوجه التعسف فى الاختراعات وفرض العقود الجماعيـة فى الصـــناعية وغـير ذلك من الوسائل ٠

ويقول « فريدمان » اننا لو سايرنا «هايك» فى وجهة نظره لتركنا المصالح الخاصة تتحكم فى شئون الجماعة باسم سـيادة القانون التى لا معنى لها عند « هايك » سوى كفالة استمرار هذه المصالح وثباتها ! ولكن أى انتهاك للقانون فى أن تتعرض هـــذه المصالح لبعض من عدم الاستقرار والتضحية فى ســـبيل تحقيـــق مصلحة عامة أسمى : كتوفير مستوى معين من الصحة القومية أو التنمية الاقتصـــادية أو فرض رقابة على مصادر الثورة القومية ؟

ويرى « فريدمان » أن هناك مبادىء يمكن باتباعها المحافظة على أسس القانون والحرية الفردية فى مجتمع موجه ٠٠ وهذه المبادىء فى نظره هى :

أولا ـ تأكيد رقابة القضاء الادارى لمنـــع التدخل غير المشروع أو التعسف فى التقدير من جانب السلطات العامة وهو يشير الى السبل العديدة التى يمكن انتهاجها فى تحقيق هـــذه الغاية تبعا لاختلاف النظم القانونية ٠ فللدول الخيار فى أن تتبـع النظــام الكامل للمحاكم الادارية على غرار النظام الفرنسى ، أو تنتهج نظاما يوفر حماية المواطن عن طريق الرقابة العادية من جانب المحاكم العادية ، أو الجمع بين النظامين، بأن تكون الرقابة فى الأصل للمحاكم العادية ، على أن يرفع الطعن فى نقط القانون الى محكمة ادارية عليا ٠ ويرى « فريدمـان » أن الخيار بين أى من هذه النظم هى مسـألة

قانون ادارى ولا يعبر عن نظرية قانونية أساسية ٠

ثانيا ـ غير أن فرض رقابة على تصرفات الادارة لن يحقق غرضه ما لم يتوسع فى وضع معايير محددة لضبط التدخل العام فى الحقوق الفردية ٠

ثالثا ـ يجب على المشرع أن ينتهج سياسة كريمة فى الضمانات ، فيتوسع فى مبدأ التعويض المعقول عن التدخل فى المصالح الفردية المشروعة وأن يكفل تنفيذ هذا المبدأ عن طريق اتاحة الفرصة للطعن فى التقدير أمام محاكم متعددة الدرجات ٠

رابعا ـ لا يستقيم مع سيادة القانون فرض أية حصانة على تصرف من تصرفات الادارة ولئن كانت التطورات التشريعية الحديثة قد قطعت شوطا بعيدا فى هذا الاتجاه الا أنه لا تزال بعض أوجه الشذوذ قائمة ٠

خامسا ـ المناقشة والعلنية والاشراف السياسى عن طريق البرلمان والرأى العام اذا هى تضافرت مع الوسائل الادارية (من تفتيش تمارسه سلطات ادارية عليا وغيره) من شأنها أن توفر للمواطن الحماية الضرورية فى مجتمع موجه ٠ (١٢)

* * *

واذا كان من الممكن وضع ضوابط عامة لنظام قانونى حر يكفل « سيادة القانون » ـ يعمل فى ظل اقتصاد موجه ـ فهل يمكن أن توضع ضوابط ليقوم مثل هذا النظام فى ظل اقتصاد اشتراكى أم انه يمكن أن تتحقق سيادة القانون فى صورة نظام قانونى آخر ؟ أم ان النظام الاشتراكى يتنافر بذاته مع سيادة القانون ؟

لقد قيل انه مهما شاب النظام الاقتصادى الخاص من عيوب ، وحتى لو وجدت نزعة مناهضة للحرية ، فانه يخضع مع ذلك لمؤثرات المنافسة وتأثير الرأى العام ٠ ومثل هذه القوى الطبيعية سوف تختفى فى اقتصاد جماعى تسيطر فيه الحكومة على الجهاز الاقتصادى كله ولا تكون فيه حكما ، وقد ضرب النظام السوفيتى مثلا لذلك ، وبهذا نسب الى الاشتراكية انعدام الشرعية استنادا الى انهيار الحريات فى النظام السوفيتى ٠

غير أن هذا النظر ظاهر التحامل لأنه على الرغم من الانتقاص الشديد فى الحريات التقليدية فى النظام السوفيتى ، فان منصفا لا يستطيع أن يغفل مكاسب الشعب فى مجالات أخرى ٠٠ وفضلا عن ذلك فان النظام السوفيتى لايمكن أن يعد نموذجا لكل نظام اشتراكى يقوم فى المستقبل ٠٠ وليس من طبيعة السيطرة الاقتصادية للدولة على وسائل الانتاج الأساسية أن تصاحبها سيطرة على الرأى أو الحريات ، فضلا عن أن المظهر الخاص للحريات التقليدية فى روسيا هو نتاج تاريخها السابق الذى لم يعرف قبل الثورة حريات بالمعنى الصحيح ، ومصائب الحرب الأهلية ، والحصار الدولى المفروض من حولها ، لذلك فانه ليس هناك ما يمنع من احتفاظ الشعب ـ فى ظل نظام اجتماعى ـ بسيطرته الكاملة على الحكومة وكفالة الحريات كما وأنه مع التسليم بأن هناك عناصر موازنة فى النظام الاقتصادى الحر تجعله محتملا فان اختفاء هذه العناصر فى نظام جماعى ليس من شأنه حتما اختفاء الحريات (١٣) ٠

ويذهب « شليز نجر » نفس المذهب مشيرا الى أنه لا يمكن أن ينظر الى القانون على أنه أكثر من وسيلة اجتماعية ـ ضمن وسائل أخرى ـ لتنظيم السلوك البشرى ، وانه بالتأكيد ليس أسمى مما يضطلع هو بتنظيمه ٠٠ وهو لذلك يعيب على الذين يتحدثون عن انهيار « سيادة القانون » فى النظام الاشتراكى انهم لا يتحدثون عن القانون بصفة عامة ، وانما هم يتحدثون عن « نموذج معين من القانون الذى ألفوه ، وهم بهذا يناقشون ـ ضمنيا ـ المزايا المفترضة فى نوع معين من المجتمعات

---

(١٢) يراجع فى هذا كله مؤلف
Friedman : Legal Theory.
ص ٥٠٧ ـ ٥٠٩

(١٣)
Freenkel : Our Civil Liberties pp. 257-9.

لا يختلف موقف هؤلاء عن موقف المؤيدين للاشتراكية أو المعارضين لها فى ذاتها .. فقد يرفض الناس الاشتراكية بغض النظر عن توافقها مع حكم القانون لأنهم يخشون أن يكون التنظيم القانونى فى مجتمع اشتراكى ضيقا للغاية ، ومن ناحية أخرى قد يقبل الناس الاشتراكية رغم تعارضها المفترض مع سيادة القانون لأنهم يعتقدون أن الاشتراكية تتطلب وسائل جديدة لتنظيم السلوك البشرى تكون أسمى من القانون التقليدى الذى تأثر بفكرة القانون الطبيعى ، ولذلك فانهم يأملون أن يطبق المجتمع الاشتراكى - فى مراحله العليا - أشكالا من التنظيم الاجتماعى أسمى من القانون ، وذلك بتجنب النظرة القانونية الآلية للقضايا ، التى وان تساوت فى شكلها تختلف فى جوهرها . هذه المسألة العاطفية أو العقيدية لا شأن لها بقيام سيادة القانون أو بانهياره فى ظل النظام الاشتراكى ، ولذلك يجب أن نفصل فصلا تاما بين مسألتين :

المسألة الاولى - هى صواب الاشتراكية أو خطؤها ومدى تقبل الناس لها أو رفضها كمذهب .

المسألة الثانية - هى اذا ما كانت الاشتراكية تتفق أو لا تتفق مع تطبيق الشكل القانونى للتنظيم ، أو بالاحرى هل يمكن أن يقوم القانون - فى مجتمع اشتراكى - كأداة لتنظيم العلاقات البشرية وكيف سيكون شكله ؟

ويقول « شليزنجر » أن مسألة شرعية النظام الاشتراكى لاتقتصر على اذا ما كان هذا النظام فى حاجة الى أداة أخرى غير القانون (تكفل بصفة آلية العمل المنتظم للتنظيم الاقتصادى) ، وانما هى تثير بصفة أساسية مسألة ما اذا كان المواطن يستطيع أن يتمتع ، على الأقل بالنسبة لحاجته بالاستقرار والأمن ، الى المدى الذى يتمتع به فى مجتمع رأسمالى .

ويجب أن تحل هذه المسألة فى ضوء القوى والحقائق القائمة فى المجتمع المعاصر : فالمجتمع الحديث يختلف تماما عن هذا التركيب «الحر» للمجتمع وهمى يتكون من أفراد مستقلين يوازن بعضهم البعض . فالمجتمع المعاصر مجتمع منظمات ولم تعد للفرد فيه - والعامل بصفه خاصه - القـوه التى يجعله يواجه احتكارا للصلب الأمريكى ، أو مشروعا من المشروعات العامة فى روسيا ، ولذلك تعتمد كفالة حقوق الفرد والعامل على قوة منظماته ونصيبها فى ادارة الدولة ، وليس هناك سبب يمنع قيام منظمات طائفية ونموها فى ظل المجتمع الاشتراكى ، وأن تبلغ هذه المنظمات من القوة ما يكفى لاستخلاص الحقوق التى يمنحها هذا المجتمع .

ويقول « سليزنجر » أن مسألة شرعية الضرورات العاجلة أظهرت الدولة فى روسيا أن لها مصلحة فى ان تمنح مواطنيها الشعور بأن حقوقهم مكفولة عن طريق التنظيم القانونى وهذا التنظيم يختلف عن التحكم فى أنه يقوم على احداث توازن معين ، غير أنه ليس بشرط أن يقوم التوازن بين « الأفراد » بعضهم وبعض (كما تصورت الليبرالية مغفلة أثر تدخل السلطة الاقتصادية وخصوصا الاحتكارية فى عمل الأداة القانونية) فقد يقوم هذا التوازن بين جوانب مختلفة للمصلحة الاجتماعية تمثلها هيئات متميزة عن الجماعة ، كما هو الشأن بين الأفراد الذين أضحت سلطتهم الفعلية فى موازنة بعضهم الآخر محل شك فى الظروف الراهنة التى قامت فيها احتكارات واسعة النطاق سواء كانت احتكارات خاصة أو ملكا للدولة .. أما ما هو هذا القانون (الذى يقوم بهذا التوازن فى الظروف المعاصرة ويؤمن الفرد على حريته فى نظام اشتراكى) وما اذا كان يتطابق أو يختلف عن القانون التقليدى فتلك مسألة أخرى (١٤) نرجو أن نعود الى بحثها فى مقال قادم .

(١٤) Schlesinger : Soviet Legal Theory, 2 ed. pp. 268.

الدراسات التاريخية ومناهجها الحديثة



بقلم : محمد أحمد حسين

اذا اردنا ان نحدد اتجاها بارزا فى الدراسات التاريخية الحديثة ، فلن نكون مغالين اذا قلنا ان معظم البحوث التاريخية هى بحوث فى التاريخ الاجتماعى والاقتصادى Social History والتاريخ الاجتماعى له مدلولات واسعة ، فهو تاريخ الثقافة ، وتاريخ الحياة اليومية لشعب من الشعوب فى عصر من العصور ، وهو لا يعنى بتاريخ العمل والحركات العمالية فحسب، بل يعالج حياة الاسرة وتاريخ الديانات التى سيطرت على الشعوب، وتاريخ الثقافة والحضارة التى كونت الحياة فى حقبة من الحقب . فهو تاريخ الانسان وتاريخ العلاقات التى شكلت طبقاته ، وتطور هذه العلاقات على مدى العصور فالتاريخ الاجتماعى يعنى بتتبع الحوادث التاريخية ، ويتحدث عن اصولها طبقا للمذاهب الاقتصادية والاجتماعية . وقد حاول المؤرخ الانجليزى تريفليان ان يعرف التاريخ الاجتماعى فى جملة واحدة فقال « انه تاريخ الشعوب فى جميع المجالات مع حذف مايتصل بالتاريخ السياسى «The history of a people with the po- litics left out».

والتاريخ السياسى قلما يعنى بتاريخ الحركات العمالية والعوامل الاجتماعية التى أثرت فى الشئون السياسية .

على ان كثيرا من المؤرخين قد حددوا مدلول التاريخ الاجتماعى Social history. بتاريخ العمل والحركات العمالية ، وما قصده مؤرخو القرن التاسع عشر من مدلول الاصطلاح «Die Sociale Frage» la Question Sociale.

وليس من شك فى ان الثورة الفرنسية قد وجهت أنظار المؤرخين الى العوامل الاجتماعية والاقتصادية واثرها فى تطوير الانسان ، كما ان الفيلسوف أوجست كونت Auguste Comte. (١٧٩٨ - ١٨٥٧) قد وجه اهتمامه الى الاثر البعيد لهذه العوامل على الحوادث التاريخية . ولا يفوتنا ان نذكر نمو الطبقة العاملة ، ودورها الكبير فى تطوير المجتمع وانتشار المبادىء الاشتراكية منذ منتصف القرن التاسع عشر من العوامل التى دعت المؤرخين لدراسة الماضى

من النواحي الاجتماعية والاقتصادية ، والتركيز على ما يتصل بالانسان وعلاقاته الاقتصـــادية والثقافية ، ومدى تأثير هـذه العنـاصر على السياسة وشئونها ٠

لقد كتب المؤرخ الفرنسي لاروى لادورى Emmanuel Le Roy مقالا ممتعا بالملحق Ladurie التيمز بتاريخ ٨ سبتمبر سنه الادبي لجريدة ١٦٦٦ بعنوان From Waterloo to Celyton

يوضح فيه كيف تغيرت الدراسات التاريخية من دراسة المعارك الحربية طوال القرن التاسع عشر الى الدراسات التاريخية المتصلة باحوال السكان الاجتماعية في العصور الماضية ٠فبدلا من اهتمام المؤرخين بمعـركة مثل معـركة « ووترلو » أصبحوا يدرسـون أحوال القرى مثل قرية كوليتون ، تلك القرية المجهـولة في جنوب انجلترا ، وليس من شك في أن هذه الاتجاهات الحديثة قد ساعدت على احياء الماضي في أذهاننـا في صورة تمس الحيـاة الحقيقية للانسـان في العصـور المختلفة ٠ وقد كان للاحصائيات التي جمعها العلماء عن السكان في البيئـات المختلفة العون الكبير للمعـاهد القومية للدراسات السـكانية مثل المعهـد القومي للدراسات السكانية بباريس Institut National d'Etudes Démographiques.

لقد تناول المؤرخون في ابحاثهم احـوال الاسرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر فيما يتصل بمراسم الزواج وكذلك المـواليد والوفيات ٠ فاثبت المؤرخون امثال لويس هنرى Louis Henry. وجوبرت Pierre Goubert. ان كثيرا من المقاطعات الفرنسية لم تعرف شيئا عن تحديد النسل ايام لويس الرابع عشر مع استثناء بعض النواحي في الجنوب الغـربي من فرنسا ايام لويس الخـامس عشر ٠ فمن الناس من حاول تحديد النسـل بالرغم من انتشار الكاثوليكية في هذه المناطق والغـريب ان بعض المؤرخين الانجليز امثال رجلي E. Wrigley.

قد برهن على ان الناس في قرية كولتون Colyton.

قاموا بتحديد النسل منذ عام ١٦٥٠ ، على انه يلاحظ من دراسات المؤرخين واحصائياتهم عن السكان في فرنسا ان الطبقات الفقيرة منذ ايام لويس الرابع عشر لم تعن بتحديد النسـل ، بينما اتخذ النبلاء الوسائل لتحديد نسلهم ٠ على انه منذ أواخر القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر بدأ الناس في الريف الفرنسي باتخاذ وسائل تحديد النسل، ويرجع المؤرخون ذلك الى ضـعف الشـعور الديني ، اذ ان الثورة الفرنسية قد سـاعدت – على العموم – على اضعاف سلطة الكنيسة ودحض كثير من الاراء الدينية ، على أن بعض المؤرخين قد طلع علينا برأى جديد ، وهو أن الفرنسيين في الريف كانوا يعيشون عيشة تقشف بينما كان الانجليز في القرن السابع عشر طبقا لاحصائيات رجلي Wrigley. ولست Peter Laslett اكثر حرية ، ويقولون ان فرنسا كانت متقشفة بينما كانت انجلترا اباحية ٠

«In a sense it is France that is austere and England that is Libertine».(١)

لقد درس المؤرخون ما يتصل بالوفيات ، واثر ضعف الانتاج وانتشار الأوبئة في المقاطعات الفرنسية والانجليزية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر واستخلصوا نتائج تسـتدعى التمحيص ، فقد اثبتوا ان انجلترا قبل الثورة الصناعية كانت قليلة السكان وكانت نسـبة الوفيات أيضا قليلة ٠ وكان الناس يتزوجـون في سن متأخرة ولا يتقيدون كثيرا بالمحافظة على قواعد الزواج ٠ اما فرنسا فكانت تعاني من كثرة السكان وكانت نسبة الوفيات مرتفعة، وكان الناس يتزوجون في سن مبكرة ويميلون الى التقشف والتزمت ، أى ان الناس شمالي المانش كانوا على شيء من الاباحية بينما كانوا في جنوبه اكثر صرامة وتزمتا ، وهكذا استعار المؤرخون وسائل حديثة في دراسة البيئات في القرون الحالية ، واعتمدوا في بحوثهم على العلوم الاجتماعية ، كما استخدموا وسـائل علمية طبقت في مجال العلوم الطبيعية ونحن نذكر ان ماركس قد استخدم قواعد الرياضيات

(١) Ladurie, Emmanuel Le Roy : *From Waterloo to Colyton*, T.L.S., 8th. September, 1966. P. 792.

فى تحليل الاحصائيات المتصلة بالسكان والتطوير الاقتصادى • لقد تمكن المؤرخون عن طريق جمع الاحصائيات وتحليلها طبقا لاصول الرياضيات وبوسائل الكترونية من الوصول الى معلومات عن الماضي فقدنا مصادرها الاصلية ، وليس من شك فى ان الوسائل الالكترونية قد ساعدت على استخلاص كثير من المعلومات التاريخية ، كما ان هذه الدراسات قد ساعدت على بيان مدى ترابط العلوم وان هذا النهج التاريخي قد ساعد على التقريب بين فروع العلم ، كما برهن على وحدة المعرفة • وعلينا ان نلاحظ ان اصول الرياضيات لا يمكن تطبيقها فى قياس مسائل انسانية كثيرة مثل القيم الثقافية فى العصور المختلفة ، كما انه يصعب قياس تأثير المذاهب الاجتماعية على الطبقات المختلفة فى عصر من العصور •

ان العلوم الاجتماعية تسير على العموم فى نفس الطريق الذى سارت فيه كثير من العلوم الطبيعية فى تطبيقها لاصول الرياضيات الا ان العقل الالكترونى لابد هو خاضع للعقل البشرى (١)

لقد نادى كثير من المؤرخين امثال Lucien Febure.

ان تاريخ الانسان يجب ان يكون شاملا لنشاطه فى جميع المجالات ، اى ان الدراسات المتصلة بالانسان تكون وحدة لا انفصام بين اجزائها، ولكننا نعلم كيف تسير المناهج التاريخية فى الجامعات وفقا لخطط لاتساعد على تطبيق هذه النظرة الشاملة •

لقد اصبح التاريخ الاقتصادى والتاريخ الاجتماعى من الاسس القوية للتاريخ العام ، غير انه من الصعوبة بمكان ان يعنى المؤرخ بتاريخ العلوم والفنون ، وقد حاول بعض المؤرخين ان يدرسوا التاريخ الثقافى للشعوب ومراعاة تطور نماذج الثقافية

Kulturgeschichte.

فى العصور المختلفة ، ولكن مثل هذه الاتجاهات يشق امرها على المشتغلين بالتاريخ الاجتماعى وهى اقرب صلة بالدراسات المتصلة بعلم Cultural Anthropology.

«المنحى الثقافى لعلم الانسان » اى علم الانسان الثقافى •

ان التاريخ الاجتماعى فى كثير من الدول يقوم بدراسة العمل وشئون العمال وليس من شك فى ان الثورة الروسية فى اكتوبر سنة ١٩١٧ كانت مبدأ عصر جديد فى كتابة تاريخ العمل والعمال ففى ديسمبر سنة ١٩٢٠ اسس الحزب الشيوعي بالاتحاد السوفيتي معهدا لدراسة آراء ماركس وسمى فى اول الامر معهد ماركس وانجلز اما الآن فهو يسمى معهد الماركسية اللينية • Institute of Marxism Leninism.

ويضم المعهد مكتبة تحوى مؤلفات عن الحركات العمالية فى أوربا ، وقد أصدر المعهد طبعة لجميع مؤلفات ماركس وانجلز مع شروح علمية Historische kritische Ausgabe.

ولكنهم عدلوا عن الاستمرار فى اصدارها عام ١٩٣٥ وقد ظهرت طبعة روسية تحوى جميع مؤلفات ماركس صدر منها حتى الآن ٣٣ مجلدا •

وقد انشئت معاهد على نسق هذا المعهد لدراسة احوال العمل فى وارسو وبلجراد وبودابست وبراج وبرلين الشرقية ، ولكن معهد امستردام الدولى للتاريخ الاجتماعى الذى أسس عام ١٩٣٤ يحوى الجزء الأكبر من مؤلفات ماركس وانجلز وقد حصل المعهد على مايربو على ١٥٠٠ خطاب تبودلت بين ماركس وانجلز كما يضم محاضر المؤتمرات العمالية الدولية وهو بمحتوياته التى تبلغ ٤٠٠٫٠٠٠ مجلد يعد اكبر معهد فى تاريخ العمل والتاريخ الاجتماعى • هذا وقد قام معهد امستردام بنشر كثير من مكاتبات ماركس وانجلز مع ليبكنشت Liebeknecht. وكذلك مكاتبات بوكانين •

كما يقوم منذ عام ١٩٥٦ باصدار مجلة International Review of La-bour. History المجلة الدولية لتاريخ العمل •

اما المعهد الفرنسى للتاريخ الاجتماعى Institut Français d'Histoire Sociale.

فيقوم بجمع مايتصل بالحركات العمالية فى فرنسا ، فجمع مكاتبات مونتات Montate. الذى قام بثورات كان لها الاثر الكبير فى

---

(١) Kahk, J., *Mathematics and Complexity* T.L.S. 8th September, 1966 p. 804.

الحركة العمالية وقام بتحرير مجلة Revolution Proletarienne.

ويقوم المعهد باصدار مجلة فى شئون العمال تسمى Le Mouvement Social. ويقوم Jean Maitron. ما ترون باصدار معجم ضخم عن الحركات العمالية الفرنسية منذ عام ١٧٨٩ ـ ١٩٣٩ باسم Dictionnaire Biographique du Mouvement Ouvrier Français de 1789-1939. وقد ظهر من هذا المعجم اربعة مجلدات تحوى ما يتصل بالتراجم منذ١٧٨٩ـ١٨٦٤وسيصدر ثلاثة مجلدات اخرى تحوى مايتصل بالفترات من ١٨٦٤ـ ١٨٧١، ١٨٧١ ـ ١٩١٤،١٩١٤ـ ١٩٣٩ ٠

والخلاصة ان هذه المعاهد تختص بدراسة المسائل التى تتصل بالاشتراكية وتاريخ الحركات العمالية على الصعيد القومى والدولى ٠

لقد عقد فى ستراسبورج فى العام الماضى مؤتمر لدراسة ما يتصل بالتاريخ المعاصر واقترح تشكيل لجنة دولية لدراسة شئون هذا التاريخ٠ وقد لوحظ ان الاعضاء لم يرغبوا فى وضع تعاريف دقيقة ، وكان هناك اتفاق بينهم ان المؤرخ الذى يعنى بالتاريخ المعاصر يمكنه ان يرجع الى عام ١٧٨٩ اذا كانت الموضوعات التى ترجع الى الثورة الفرنسية ذات اتصال بموضوعات معاصره وقد رفض بعض الاعضاء ان يعد دراسات التاريخ المعاصر دراسات أكاديمية علمية بحجة أن كثيرا من الوثائق والمصادر لاتزال طى الكتمان ، ولو ان كثيرا من مؤرخى القرن التاسع عشر تناولوا موضوعات معاصرة ٠ ذلك ان ظروف حياتهم العملية كانت تضطرهم الى ذلك ، فكان منهم رجال دين ورجال قانون وسياسة ٠ اما الآن فالامر بخلاف ذلك ، فمعظم المؤرخين اتخذوا التاريخ مهنة وبدأوا حياتهم الجامعية وتدرجوا فى وظائفهم العلمية ونحن نلاحظ ان كثيرا من المؤرخين قد جعلوا القارة الاوربية محورا لدراساتهم وتقسيم التاريخ من قديم ومتوسط وحديث على اساس التاريخ الاوربى مع ان لكل من الصينى والهندى والبرازيلى تاريخه وحضارته وكيف يمكن ان تكون حدود التاريخ الصينى مثلا هى حدود فرضتها الحضارة الاوربية ، والمؤرخون الأوربيون انفسهم غير متفقين فى آرائهم من حيث التوقيت فبيترفيلد Butterfield.

يعد الفترة من ١٦٨٥ ـ ١٧١٥ مبدأ التاريخ الحديث ، بينما يعتقد بعض المؤرخين ان الثورة الفرنسية هى مبدأ هذا التاريخ وليس من شك فى ان ظهور الولايات المتحدة الامريكية على مسرح الحوادث التاريخية قد اوجب اعادة النظر فى تقسيم العصور التاريخية ٠ فاذا كنا نرى المؤرخين مختلفين فى تحديد مبدأ التاريخ الحديث فكيف يتفقون فيما يتصل بدراسة التاريخ المعاصر ، ولا تزال الدول تتباين فى تحديد الوقت الذى يسمح فيه بالاطلاع على الوثائق الرسمية،فقد نادى فريق من المسئولين الانجليز بوضع حد مدته خمسون عاما ويسمح بالاطلاع على الوثائق فيما قبل ذلك ، ونادى فريق آخر بأن تكون الفترة مدتها ثلاثين عاما واتفق اخيرا ان تكون هذه الفترة اربعين عاما٠ وقد سبق القول ان اوروبا لم تعد محور الحوادث التاريخية ، فقد ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية قوميات ودول نامية فى افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية ٠ وكان المؤرخون قبل ذلك يكتبون عن هذه القارات وهذه الدول من وجهة نظر اوروبية ، ولكن الحال قد تغيرت وبدأوا يكتبون من وجهة نظر جديدة يبحثون ماضى هذه الدول نفسها من داخلها ويشرحون كيف اثر هذا الماضى نفسه على التاريخ الاوروبى وقد تغيرت مناهج الجامعات الاوروبية نفسها ، فاسست معاهد لدراسة تاريخ افريقيا وآسيا وغيرهما ٠ والاتجاهات الحديثة فى الدراسات الخاصة بالدول الافريقية والآسيوية هى الاهتمام بالشئون الاجتماعية والاقتصادية ، ونحن نعلم انه منذ القرن التاسع عشر اهتم المستشرقون بالدراسات اللغوية والادبية ولكن منذ الحرب العالمية الثانية بدأ المؤرخون يدرسون الشئون الاجتماعية والاقتصادية للدول الافريقية والآسيوية٠ فهم يدرسون مثلا المجتمع الصينى وتطوره اقتصاديا وثقافيا غير متأثرين بتطور الثقافات الاوروبية ومذاهبها ٠

لقد كان لاستقلال الدول الافريقية والقضاء على الاستعمار وانشاء الجامعات اثر كبير فى تطوير الدراسات المتصلة بهذه القارة حيث كان الاستعمار يعمل على طمس تاريخ الدول

الافريقية حتى ان بعض المؤرخين كان يرى ان تاريخ هذه الدول قبل الاستعمار لا أثر له ولا قيمة ترجى من دراسته .

لقد نشأت مراكز للدراسات الافريقية فى لندن وادنبره وبرمنجهام واكرا ودار السلام والخرطوم والقاهرة وأديس أبابا ، وعقدت فى مدرسة اللغات الشرقية والافريقية بجامعة لندن مؤتمرات منذ عام ١٩٥٣ لدراسة مايتصل بافريقيا ، وصدر عام ١٩٦٠ مجلة التاريخ الافريقى Journal of African History. وعلينا ان نلاحظ ان تاريخ القارة يجب ان يدرس من وجهة نظر الافريقيين ومصالحهم كما ان المصادر يجب ان تشمل الوثائق الاوروبية والعربية والتركية ، ودراسة الوثائق العربية المتصلة بغرب افريقيا وانتشار الاسلام فى هذه الجهات امر ذو أهمية كبيرة ، وقد جمع فى غانا كثير من المخطوطات العربية تعد مصادر اصيلة لدراسة تاريخ القارة فى القرن السادس عشر ، وقد اسس فى نيجيريا مركز للتوثيق العربى على صلة وثيقة بمعهد الدراسات الافريقية بجامعة ابدان ويقوم هذا المركز بجمع صور المخطوطات عن غرب افريقيا سواء باللغة العربية أو باللغات الافريقية التى تستخدم الابجدية العربية ، وتوجد مصادر اخرى لدراسة تاريخ غرب افريقيا اهمها مؤلفات المؤرخين والجغرافيين العرب وكذلك ماكتبه الرحالة الاوروبيون ، ووثائق البعثات الدينية والوثائق الهولندية والألمانية والايطالية ووثائق الفاتيكان كل ذلك مصادر أصيلة لها أهميتها فى كتابة تاريخ افريقيا على منهج جديد ..

ان استقلال الدول الافريقية والقضاء على الاستعمار قد أثر فى المناهج التعليمية ايضا فقد اصبح لزاما على المدرسين ان يقوموا باعداد الكتب التاريخية التى تؤرخ للدول الافريقية طبقا للمصادر الافريقية ، فنحن نعلم ان كثيرا من هذه الكتب التى الفت فى عهد المستعمرين كانت تهتم فى اغلب الاحيان بشرح ما قام به هؤلاء المستعمرون من اصلاحات وما اثاروه من حروب فى سبيل الغزو والتوسع . كما نعلم أيضا أنه لايزال فى تاريخ افريقيا فترات غامضة تحتاج الى الدراسة والبحث ، وعلى الأخص مايتصل بأحوال التجارة قبل الاستعمار واثر الحكم العثمانى فى شمال افريقيا على التجارة والثقافة والعلاقات مع العالم الاسلامى ومعلوماتنا عن وسط السودان والجزء الغربى منه فى القرنين السابع عشر والثامن عشر محدودة ، ولا يقتصر الامر على دراسة المصادر الاصلية بل ان تفسيرها من وجهة النظر الافريقية هى اهم ما يشغل المؤرخ فى عصرنا الجديد ، ولا يمكننا ان نغفل عن الاستعانة بمراكز البحوث فى الدول الأوروبية وعلى الاخص مركز الدراسات الافريقية فى باريس Centre d'Etudes et de Documentation sur l'Afrique et l'Outre-Mer.

هذا وقد قامت كثير من الجامعات الاوروبية والامريكية بانشاء مراكز للتوثيق للدراسات الافريقية حيث تجمع المصادر وتصنف وتترجم النصوص وتعد للباحثين .

لقد سبق القول ان المناهج الحديثة للدراسات التاريخية قد ساعدت على ترابط العلوم واتساع مدى الاستفادة من البحوث فى جميع العلوم الاجتماعية والطبيعية فلم يغفل المؤرخون عن الاستفادة من البحوث فى علم النفس فآراء فرويد ايونج وادلر فى التحليل النفسى كان لها الاثر الكبير فى تفسير بعض حوادث التاريخ وعلى الاخص ما يتصل بالعقل الباطن (Id.) وكان لكتاب فرويد الذى اصدره عام ١٩٢٣ «The Ego and the Id». وكذلك كتاب «Ego and the Mechanism of Defence». لمؤلفه انا فرويد Anno Frued. الاثر العظيم فى تحليل بعض الشخصيات التاريخية وفى تفسير كثير من مظاهر عقلية الجماعات وقد بدأ بعض علماء الاجتماع وبعض الاخصائيين فى العلوم السياسية بالتدريب فى معاهد التحليل النفسى فى نيويورك وبوسطن، وعلى المؤرخين الآن أن يقرأوا مراجع عن التحليل النفسى مثل Facts and Theories of Psychoanalysis. لمؤلفه Ives Hendrick. هذا وقدكتب Fitz Schmidt. مقالا ممتعا عن « التحليل النفسى والتاريخ » فى مجلة «The Psychoanalytic Quarterly».

عام ١٩٦٢ بعنوان
Psychoanalysis and History. (١)
وقد لفت النظر الى اهمية تطبيق قواعد علم النفس فى الدراسات التاريخية المؤرخ الامريكى وليم لنجر William Langer. فى مقاله الافتتاحى فى اجتماع الجمعية التاريخية الامريكية بعنوان(٢) The next Assignment. وتزخر الدوريات العلمية مثل The Psycho-Analytic Review. بالمقالات المتصلة بتطبيق مبادىء علم النفس على البحوث التاريخية وتراجم رجال السياسة وقد عكف كثير من المشتغلين بالتحليل النفسى على دراسة هتلر ورجال الرايخ الثالث وذهب كثير من العلماء الى سجن نورمبرج وتحادثوا مع جورنج ، واصدر جلبرت G. Gilbert. كتابه المشهور عن الدكتاتورية ، واصدر المؤرخ نولته Ernest Nolte. كتابه عن الفاشية ، وحلل فيه شخصية هتلر (٣) وقد بالغ بعض المؤرخين فى مدى تطبيق مبادىء علم النفس على البحوث التاريخية حتى اعلن بعض النقاد ان مؤرخى الغرب قد اعتنقوا مبادىء فرويد بدلا من مبادىء ماركس ، ولم يعن المؤرخون الانجليز والألمان بتطبيق هذه النظريات بينما وجه المؤرخون الفرنسيون عناية كبيرة للاستفادة من علم النفس والتحليل النفسى والامل معقود على الجامعات فى ان يقوم العلماء برعاية هذا النوع من الدراسات ، فيضيف المؤرخون اتجاها جديدا فى بحوثهم، فلا يقتصر الامر على الاعتماد على العناصر الاجتماعية والاقتصادية فى تفسير الماضى بل يعتمدون ايضا فى ايضاح غوامض النفس البشرية على مبادىء علم النفس الحديث .

لم يقتصر الامر على الاستعانة بعلم النفس فى تفسير حوادث التاريخ بل لقد استخدم المؤرخون العلوم الكيميائية الذرية لتاريخ آثار ما قبل التاريخ ونال العالم الامريكى ولاردلبى Wilard Libby الاستاذ بجامعة شيكاغو جائزة نوبل لاكتشافه (كربون ١٤) وتمكن من استخدامه فى تحديد تاريخ آثار ماقبل التاريخ ونحن نعلم كيف اختلف علماء الآثار فى تحديد اثار ماقبل الاسرات ، واخذ بعض علماء الآثار المصرية بالتاريخ الطويل (حوالى ٤٢٠٠ سنة قبل الميلاد) كمبدأ للاسرة الاولى وعلى رأس هؤلاء فلندرزبيترى Flindres Petrie.

وقد أخذ فريق آخر بالتاريخ القصير (حوالى ٣٢٠٠ سنة قبل الميلاد) كمبدأ للاسرة الاولى وكان على رأس هؤلاء المؤرخ ادوارد ماير E. Mayer.

وقد ظل المؤرخون مختلفين فى توقيتهم للتاريخ المصرى القديم الى ان تمكن لبى Libby. من كشف (كربون ١٤) وقاس مدة اشعاع ذرة هذا الكربون ووجد انها تفقد نصف وزنها الذرى بعد ٥٥٦٨ سنة ثم يضيع اويشع نصف ماتبقى اى نصف النصف بعد ١١١٣٦ سنة وعن طريق فقدان الوزن الذرى للكربون ١٤ فى وقت معين وتطبيق نظريته على بعض الآثار تمكن من قياس الزمن وتحديد عمرها ، وقد تمكن من تحديد زمن قطع خشبية من مركب جنائزية فى الاسرة الثانية عشرة وقطع خشبية من مقبرة زوسر وقطع من آثار الوزير حمكا من الاسرة الاولى (٤)

هذا اتجاه هام فى تطبيق العلوم الطبيعية للكشف عن حضارة الانسان الماضية .

ونحن نرى كيف اصبحت الدراسات التاريخية طريقا ووسيلة لفهم الماضى كوحدة متكاملة وتحليل العناصر المكونة لحوادث هذا الماضى . ولهذا اعتمدت الدراسات التاريخية على شتى العلوم والفنون التى تسهم فى تصويره والعلوم الاجتماعية هى بلا شك محور هذه الدراسات.

(١) Marlich, Bruce, *Inside the Whales*, T.L.S. 28th July, 1966, P. 667.

(٢) Langer, William : *The next Assignment* American Historical Review LXII No. 2 Jan. 1958).

(٣) Nolte, Ernest : *Der Fachismus in seiner Epoche*, *Three faces of Facism*, 1963.

(٤) أنظر البحث القيم الذى كتبه الاستاذ أحمد على ابرهيم عن ويلارد لبى وطريقته لتاريخ ما قبل التاريخ فى قافلة الزيت ، أغسطس ١٩٦٢ .

ان أية حادثة تاريخية هى نتيجة لتفاعل عدة عناصر وعوامل ، والأمر الصعب المنال هو ان ندرك كيف تم هذا التفاعل بين العناصر المتعددة ، وكثيرا ما يلجأ المؤرخ الى استنباط عوامل محددة يعدها المحور والسبب الرئيسى للحادثة التاريخية ويختلف المؤرخون فى العصور المختلفة فى طريقة اختيار هذه العناصر والعوامل فطورا تكون دينيا وطورا تكون اقتصاديا أو فكريا .

والامر الذى لامراء فيه ان التاريخ لم يعد سجلا لاحوال الملوك والسلاطين بل اصبح سجلا للحياة اليومية للشعب .

وكثير من مؤرخي العرب مثل ابن تغرى بردى فى كتابه « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ، وعبد الرحمن الجبرتى فى كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والاخبار » ومحمد بن احمد بن اياس فى كتابه « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » قد كتبوا التاريخ على نظام الحوليات ومزجوا السياسة بالدين والاقتصاد بعلم الاجتماع .

لقد استفاد المؤرخون كثيرا من تقدم « علم الانسان » فعلم الانسان البيولوجى يدرس تطور الحياة والتغاير السلالى للانسان ، وعلم الانسان الثقافى يدرس نشوء الثقافات وتطورها ونحن نعلم ان الجزء الهام من عمل المؤرخ هو تحليل التغير فى المجتمع ودراسة التسلسل الزمنى وتفسيره .

ان العلوم الاجتماعية تساعد المؤرخ على فهم سلوك الجماعات ، والمؤرخ الذى لايفهم سلوك الجماعات فى عصره لايستطيع فى الغالب ان يفهم الحياة فى فترة ماضيه ، وليس من شك فى ان معرفة الحاضر تزيد من فهمنا للماضى .

ان النظريات فى العلوم الاجتماعية هى مجرد وسائل لتوجيه البحث ، تقدم العون فى عملية التحليل والتفسير وهى ليست قوانين كقوانين العلوم الطبيعية بل هى بيانات تساعد المؤرخ فى الوصول الى الحقائق التاريخية .

ان مجلس البحوث فى العلوم الاجتماعية بالولايات المتحدة الامريكية الذى اسس منذ عام ١٩٢٣ قام بتشكيل لجان لدراسة مايتصل بكتابة التاريخ ونشر عام ١٩٤٦ تقريرا بعنوان « النظر والتطبيق فى الدراسة التاريخية » واثار هذا التقرير جدلا كثيرا ، فدعى المجلس لجنة ثانية لدراسة ما يتصل بالاتجاهات الحديثة فى الدراسات التاريخية ووجهت اللجنة عناية المؤرخين للاستفادة من اساليب البحث التى اخذت بها العلوم الاجتماعية الاخرى ونشرت تقريرا بعنوان « دراسة التاريخ وعلاقته بالعلوم الاجتماعية »

وقد اسهمت مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر (بيروت) فى ترجمة هذا التقرير الى اللغة العربية .

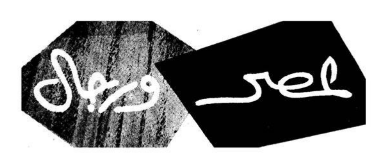
ليس قصدى ان اتقدم بمقترحات فيما يتصل بدراسة تاريخنا القومى على هدى من فلسفتنا الاشتراكية ، فالامر يجب ان يقوم به المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية فله لجانه الكثيرة المتخصصة التى تقدر على تنسيق البحوث فى العلوم الاجتماعية .

ان الامر يهم وزارة الثقافة وقد سبق ان شكلت لجان لاعادة كتابة تاريخنا القومى ولا نعلم مدى ما قامت به هذه اللجان من اعمال .

ان الامر يهم أيضا وزارة التربية والتعليم وهى تقوم الآن بالنظر فى المناهج والخطط والمؤلفات التاريخية التى يقرأها الطلبة .

ان الامر يهم أيضا الجامعات وهى تعمل على تطوير الدراسات وتعديل المناهج ، وقد سبق القول ان الجامعات الامريكية والبريطانية قد عدلت من مناهج التاريخ واصبحت الدراسات الافريقية والآسيوية تنال قسطا كبيرا من الرعاية واخذت المعاهد والهيئات العلمية تنشر البحوث المستفيضة عن افريقيا وآسيا من وجهات نظر جديدة .

ان وثائقنا ومصادر تاريخنا القومى لاتزال مشتتة فى دور الوثائق الاجنبية والامر يقتضى رسم الخطط لتجميعها والعمل على نشرها حتى يتمكن المؤرخون من القيام بالدراسات التاريخية الاصيلة »



والبكاء على العهود الخالية

بقلم فتحى رضوان

يمكن دائما أن يجـــد الناس دموعا فى عيونهم يسفكونها على أى عهد من العهود التى خلت ، ويمكن أن تصبح هذه الدموع فيضا متدفقا ، اذا كان العهد المبكى عليه ، قريبا من الباكين ، شهدوا بعض أيامه ، واتصلوا برجاله ونسائه وتأثروا بهم ٠

وفى الناس ميل الى البكاء ، لأن لكل منهم ألما ظاهرا أو دفينا ، معلنا أو مضمرا ، كما أن فى أكثرهم ميلا الى استدرار العطف على أنفســـهم اما بظهورهم فى مظهر المنـــكوب المحزون أو فى ثوب المواسى العطوف ، أو فى دور (المخلص) الذى لا يناله لقاء حســـن نيته ، وعظيم أريحيته الا تمزيق الغـــالى من أثوابه ، وفى الناس آخر الأمر ، من يسره أن يبدو عادلا ، يقيم موازين الحق ، ويكره أن يعتدى معتد على حرمات الماضى المقدس ، أو الماضى المهيض الجناح ، أو الماضى المجهول الذى يتحدث عنه الجاهلون الأغرار بغير علم أو فى طيش ونزق ٠

ولقد قدرت سلفـــا كل هذا ، وأنا أخط فصول كتاب (عصر ورجال) ، وقدرت أن الكثيرين سيغضبون أو سيتظاهرون بالغضب، أو سيقترضون غضب سواهم، وأن العديد ممن ينقدون شفويا ، أو تحريريا ، سيجلسوننى منهم اما مجلس المتهم من القاضى ، أو التلميذ من الاستاذ ، أو المدين من الدائن ، ولكن ذلك لم يردنى عن مواصـــلة الكتابة ، اذ ما أتفه الحياة الفكرية ، من غير متاعب ، ومشاق ، ومن غير مرارة تجرع النقد ٠

والحق أن النقد الذى شغلنى هو النقـــد الشفوى ، فما أكثر ما اسمعنى أصدقائى ، وأصدقاؤهم وأفاضل جمعتنى بهم الصدفة ، فصححوا لى تاريخا أو اسما ، وناقشونى فى

الاحكام التى أصدرتها فى الكتاب بين ساخط غاضب ، ومجامل ملاطف ، وراض مشجع ، ومؤيد متحمس .

وقد بدا لى أن ما تجمع لدى من هذه الملاحظات الشفوية ، وما تفضل على به النقاد الأدباء فى أربع أو خمس تعليقات قصيرة سريعة ، وطويلة شاملة(١) ، قد يكون خليقا، بأن يسوى مقالا قائما بذاته ، لا يعنى أول ما يعنى بالدفاع عن (عصر ورجال) بقدر ما يعيد الحديث فى شأن هذا العصر من الزوايا التى أثارتها الملاحظات الكريمة التى سمعتها من الأصدقاء ، والسادة النقاد .

وأغرب ما فى هذا الأمر ، أن ما كتبته عن عصر ما بين ثورتى ١٩١٩ و ١٩٥٢ ، وقع فى نفس بعض الذين قرأوه موقع الاشادة المسرفة بأفضال وخيرات وأيادى هذا العهد، فقالوا انى نسبت له ، ما ليس فيه من مناقب ، ووهم بعض هؤلاء ، اننى فعلت ذلك ، لانى خشيت أن أتهم بالتحامل عليه ، فكنت كالقضاة الذين حكموا بالظلم ليشتهروا بالعدل .

فى حين أن آخرين ، ذهبوا الى النقيض تماما ، فقالوا اننى وضعت رجال هذا العهد ، ولهم أياد فى أعناقنا ، أولهم على الأقل فضل الاجتهاد ، فى ظل ظروف شاذة وقاسية ، وضغوط ساحقة وصارمة ، وضعت هؤلاء وكل ما كتبوا ، وكل ما قالوا ، وكل ما فعلوا فى (زكيبة) قديمة ، وألقيت بهم فى البحر ، من ورائهم حذاء قديم .

وقد يدفعنا هذا الى القول بأن الحكم على عهد من العهود وعلى عهد كامل برجاله ونسائه، وأحداثه وتطوراته ، وأفكاره وآرائه ، وأعماله ومنجزاته ، وخيره وشره ، من أشق الامور ، على الانسان سواء كان هذا الانسان مؤرخا يصطنع أسلوب العلم ، أو أديبا ، يعبر عن خلجات واحساسات نفسه ، ولكنى لست من هذا الرأى فى شىء . فما أيسر أن تحكم على العهد ، بجوهر أعماله ، أو بالحساب الختامى، لكل ما صدر عنه ، وما صدر فيه . فما خلا عهد من الخير ، وما خلا عهد من الشر ، بل ما من فرد ذهبت حياته وكلها حسنات ومناقب ، أو ذهبت حياته وكلها شرور وآثام .

وقد وجد — على مر الحقب — الطغاة والجواسيس ، والجلادون ، ومدبرو الجرائم الكبرى ومرتكبوها ، ثم وجد من يكشف عن جوانب خيرة فى حياة هؤلاء ولكل عهد أقيسته ومعاييره التى نقيس بها الخير والشر ، والتى نقيس بها العظمة والانحطاط والتى نقيس بها الشرف والعار ، ولكن تبقى للانسانية ، بعد كل هذه الفروق ، أقيسة خالدة تطرح بها وتجمع ، العيوب والحسنات ، ثم تخرج بنتيجة ، ان لم تكن العدل كله ، كانت أقرب الاشياء الى العدل الانسانى .

هذا شىء ، وشىء ثان لا يجمل أن يغيب عنا ، هو أن الحكم على عهد من العهود ، يتأثر بالزاوية التى ينظر بها الانسان اليه ، فقد يشغل الناقد ، وهو يقوم عهدا بالاعتبارات السياسية ، فيراه عهد خيانة وانحلال ، ثم يعود فينظر اليه ، متأثرا بالاعتبارات الفكرية والذهنية ، فيراه عهدا ذهبيا جديرا بأن نحسر له رءوسنا ونحنى الهامات .

خذ مثلا عهد ما قبل الثورة الفرنسية ، وعهد ما قبل الشيوعية ، بل خذ عهد ما قبل الاحتلال البريطانى ، تجد جيشانا وثورانا ، وتجد أسماء ضخمة ، وعمالقة فكر ، وفى ما قبل ثورة ١٧٨٩ ، كان فولتير وروسو وديدرو ومونتسكييه والموسوعيون، وكان هناك ميرابو ، وتيرجو ونكر ، ومدام رولان ، وخطباء شبان وكهول ، وكان التحضير للثورة، والاستهداف لخطر مواجهة الملكية والاقطاع .

ولكن الى جانب هؤلاء جميعا ، والى جانب هذا كله ، كانت الخطابات المغلقة ، وسجن الباستيل ، وطغيان الحكومة وافلاسها الاقتصادى والروحى ، وفضائح القصر ، ومخازى الاشراف ، كان الجبن والخوف ، ومن ناحية أخرى كان يجرى شيئان متناقضان حتى فى الجانب السياسى : فقد كانت الملكية الطاغية ، تستبد بالشعب الفرنسى ، وتنتهك حقوقه الأساسية ، ثم تمد يدها فى الوقت نفسه لمساعدة الثورة الامريكية الجمهورية ضد الملكية البريطانية ، وترسل المعونات العسكرية

(١) أنظر مقال الاستاذ فتحى خليل عن كتاب « عصر ورجال » فى العدد السابق من « المجلة »

والمالية لهذه الجمهورية ، التى سبقت حتى جمهورية الفرنسيين ٠

وقبل سنة ١٩١٧ ، ازدانت سماء الفكر الروسى بهذه الكواكب الساطعة ، تولستوى ودوستيفسكى وتشيكوف وتورجنيف وبوشكين وجوجول ، وكان تشيكوفسكى وكورساكوف وليرمانتوف ، والمغنى شليابين ، والراقصة أنا بافلوفا ، وكانت فنون المسرح والباليه ، تزدهر وتنمو ٠ ولكن كان العهد آخر الأمر عهد طغيان ورجعية ، وكان عهد فقر وجمود ، كان فى كلمة عهدا ينتهى ويسلم أنفاسه ٠

والامر الذى لا يشك فيه أحد ، والذى يقرره العلم ، أن مامن عهد ينتهى بثورة ، الا وكانت تلك الخاتمة دليلا على أنه بلغ الغاية فى الافلاس ٠ فالثورة هى العملية الجراحية التى تلجأ اليها الحياة فى الامة ، بعد أن تسد فى وجهها السبل الطبيعية للتدفق والانسياب فالحياة كالمياه ، تشق لنفسها المجارى والجداول ، فان وجدت عقبة دارت حولها ، فان تعذرت كل محاولة فاضت وحطمت الجسور ، وأغرقت ما حولها ، حتى تشق طريقا طبيعيا ٠

وعهد ما بين سنتى ١٩١٩ و ١٩٥٢ بدأ بثورة ، وانتهى بثورة ، فورث مساوىء ما قبله ، ولم يتخل عنها ، بل اعتبرها الاساس ، وأقام عليها بناء وجوده ، فما زالت الشروخ والصدوع ، تعمل فيه وتؤثر عليه ، حتى انهار انهيارا مروعا ورجال ما قبل الثورة ، يمكنهم أن يعيشوا الثورة ، قبل ميلادها ٠ يمكنهم أن يبشروا بها ، وينثروا بذورها ، ويؤكدون وقوعها ، ويضربون فى صروح العهد الذى يعيشون فيه ، ويعملوا على هدمه ، فيكونون بهذا — خير اعتذرا للعهد ، وخير تكفير عنه ويلحقون بصفوف الثوار ، وان عاشوا مع الكافرين الظالمين ، وأعداء الحرية وخصوم الشعب ٠ لقد حضر روسو وفولتير للثورة ، وحضر تولستوى ، وتورجنيف لها ، ولكن ماذا فعل كبار كتابنا ؟ ماذا كان موقفهم من الذين ناضلوا ضد الملكية ، وضد الانجليز وأين كانوا وعناصر الثورة تتجمع ، وأى جهد بذلوه فى التمهيد لها ، وفتح الطريق أمامها ، ورفع ألويتها والنفخ فى بوقها ؟ ٠

بهذا المقياس ، حاولت أن أقيسهم ، وفى هذا الميزان وضعتهم وأعمالهم ٠ فانا لم أقصد الى تقويمهم بالمعايير الادبية البحتة ٠ بل نظرت الى أدبهم ٠ كتعبير وافصاح عن موقفهم من حياة أمتهم ومشكلاتها ٠ ولذا لم أنكر عليهم أنهم كتبوا وترجموا ولخصوا وخطبوا واذاعوا بل لم انكر عليهم حرفا قالوه ، أو سطرا خطوه ، أو خطوة خيرية ، سعوا بها ، أو بارقة شجاعة لمعت فى حياتهم ، أو نوبة مفاداة وتضحية ، شملتهم فأخرجتهم عن منهج الحريص الذى يبلغ فى الاحتياط حد الجمود ٠ لم أجحد فضلهم ولم أنكره ٠

ولم يكن ثمة سبيل الى ذلك ، وقد تعلمت على أيديهم ، وفتحت العين على ما كتبوا ، وأطرب سمعى ما قالوا ، وخلبوا لبى فى صباى وشبابى ، وجريت وراءهم أملأ عقلى مما يقولون وأملأ عينى بالنظر الى وجوههم ، مأخوذا معجبا ٠

ولكن مهما جاملناهم فلا سبيل الى انكار الحق ، الذى ان لم نقله اليوم قاله الذين سيأتون بعدنا ٠ ونحن جديرون بان نقوله لأن فرص الحياة ، اتسعت أمامنا ، ولن نبلغ ما نسعى اليه ، ونطمح فيه ، ما لم نتسلح بالصراحة ، ومالم نقتحم من مجالات القول والفكر ، ما تواصينا واتفقنا على أن نتحاشاه ونتقى الاقتراب منه فضلا عن الدوس فيه ٠

ولقد كان الاقتناع يملأ نفسى ، طوال سنى ما قبل الثورة ، ان قادة الفكر والرأى عندنا شاخوا قبل الاوان ، ونفدت بضاعتهم مع اشتداد الطلب ، وكثرة الحاجة ٠ لقد قالوا ما عندهم — كل ما عندهم من فى السنين الاولى للشباب ، ثم ظلوا يعيدون أنفسهم حتى ملوا القول ، فأصبحوا أبواقا لغيرهم ، فتداولتهم الاحزاب ، فقالوا باسمها ولحسابها ، ما أنكروه فى شبابهم ، وما عملوا ضده طوال سنين عديدة ٠ ولا أدل على ذلك من أنهم تركوا المعركتين الكبيرتين : معركة الشعب مع الملك ومعركة الشعب مع الانجليز ٠ فلم يخوضوا

قتالا ولم يمتشقوا سيفا ، بل انهم وقفوا فى الجانب الآخر ، يمدحون الملك ، ولا يحصبون الانجليز بحصاة فما أسوأ الخاتمة ، وما أقبحها !

ولكن ما أشد حزننا لهم ، انه حزن مساو لحبنا لهم ، أو هو أكبر • وما أكثر حبنا لهم، وما أعظم اعترافنا بالفضل لهم •

ولسنا نقول القول هنا على عواهنه اذ ما على الذى يكذب هذا القول ، أن يضع أيدينا على الدليل الذى ينقضه • ولا يكفى فى هذا المجال ، البكاء أو التباكى •

لقد دار أكثر هؤلاء المفكرين الكتاب على الأحزاب حزبا حزبا ، وتبادلوا مواقفهم • فمن كان يدافع عن الوفد ، هاجمه وخرج عليه ، ومن كان يهاجم الوفد ، انضم اليه ، وتحمس له ، وأصبح من غلاة المدافعين عنه • ومن كان يهاجم الملك ، تغزل فيه ، وحرق البخور بين يديه • وفى أى وقت ؟ بعد أن تدهورت سمعة الملك ونفوذه !

ولسنا نحب أن نسمى هنا الأشخاص ، حسبك أن تعلم أن فلانا كان دستوريا ، ثم اتحاديا ، ثم دستوريا ، ثم وفديا ، ثم وفديا ملكيا •

وأن فلانا كان نحاسيا ثم خصما للنحاس ، ثم دستوريا أو صديقا للدستوريين ثم سعديا، ثم سعديا ملكيا •

ثم انظر الى هذه الاحزاب ، فاذا هى جميعا - وبغير استثناء - تؤمن بالمفاوضة مع الانجليز ، ثم هى تنفذ المعاهدة البريطانية بحماسة ، ثم تستنكر تزييف الانتخابات ثم تزيفها ؛ وتستنكر الأحكام العرفية ثم تعلنها وتطيل فرضها ، ثم تتسابق على رضى الملك فى الحكم ، وتزمجر زمجرة مكتومة ، عندما تطرد منه •

فهى أجزاء من كل ، وهذا الكل هو حزب الامة ، ثم حزب الوفد بعد ذلك • هذا هو التاريخ الذى لا سبيل الى انكاره • ولذلك فقد كان من السهل الميسور دائما ، أن يأمر الانجليز بأن يؤلف زعماء هذه الاحزاب جبهة لتقوم الجبهة فى الحال ، وليوقع كل أعضائها على معاهدة واحدة ، ليثبت لكل ذى عينين أنهم جميعا من طينة واحدة •

ولما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، وبدا واضحا جليا أن عالما جديدا يهم بالخروج من أحشاء هذا العالم القديم الذى تهاوى تحت ضربات آلاف الطائرات أولا ثم القنبلة الذرية أخيرا قفزت جميع المشكلات التى أراد العالم القديم أن يحجبها ويخفيها عن الأنظار • فتح موضوع حريات الافراد، وكيف تصاغ وتحمى من جديد ؟ ماذا تكون ؟ وفتح موضوع حريات الشعوب وكيف لا تصبح سلعة فى أيدى الأقوياء ، يتداولونها ، ويكسبون منها ، ولا يصيب الشعوب أصحاب هذه الحريات الا الخسران • فتح موضوع السلام العالمى ، وعلى أى أساس يقوم ، فتح موضوع التكتلات الاقليمية وكيف تعمل • ولدت مشكلة فلسطين ، ومشكلة الوحدة العربية ، وفى الداخل تكاثرت المشكلات ، مشكلة الحكم ، ومصير الدستور ، ومعنى الحرية الفردية ، وطبيعة الديموقراطية وهل تبقى سياسية ليبرالية أم تصبح اجتماعية اقتصادية ، وصلاتنا بالمعسكرين الغربى والشرقى ، وصلاتنا بأفريقيا والعرب •

ومعنى هذا كله أن منابر جديدة أعدت ليرقاها أساتذتنا الكتاب الكبار ، وأن يقولوا فى هذا كله كلاما جديدا ، وأن يقودوا الشباب فى مفترقات الطرق ، وأن يتحدثوا اليه بصراحة وصدق وشجاعة ، ونظر الشباب الى هؤلاء ، فاذا هم هم ، يجرون على نفس المنهج ، ويقولون نفس الكلام ، هذا يسب زعيما ، وذاك يسب زعيما آخر ، ويكتب كل منهم مقالا فى هذه الجريدة أو تلك حسبما اتفق • مرة فى الشرق ، ومرة فى الغرب ، وتخرج الكتب فى المناسبات وفى غير المناسبات عن سن يات سن ، وجناح ، وأبى نواس ، وبيكون ، وكلها عجالات تكاد تكون تلخيصا أو تضمينا أمينا ـ كما كان يقول الاستاذ أحمد الصاوى محمد ـ لكتاب أو كتابين أوربيين • ثم حدث فجأة شئ غريب • أصيب الكتاب الكبار، بهوى الاسلام •

فهيكل والعقاد وطه حسين لاعمل لهم الا تاريخ الاسلام وتأريخ حياة نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام ، وحلفائه وصحابته : كتابا اثر كتاب ، ومجلدا وراء مجلد .

لو كنت أجنبيا عن هذا الوطن ، لظننت أن هؤلاء قد انتهوا آخر الأمر ، بعد طول المطاف الى الايمان بأن العودة الى الاسلام هي سبيل النجاة السياسية والاجتماعية والروحية لبلادنا . ولكن الذين يعيشون في مصر ، كانوا يعلمون أن هذه الكتب ، لا تزيد عن أن تكون حلقة في سلسلة الكتب التى كانت تصدر عن هؤلاء الكتاب أنفسهم بلا منهج ولا هدف ، وأنها أقرب ماتكون من الحديث عن بيكون ، ونيتشه ، وتولستوى ، وعن تلخيص المسرحيات الفرنسية ؛ والدراسات السريعة الموجزة عن اليونان والرومان ، وبلاد تركب الأفيال .

وقد تعترض على ، فتقول انك تكلف الأدباء والمفكرين شططا ، حين نطلب منهم أن يتأثروا بكل كتاب يكتبون ، فمن كتب عن غاندى وجب أن ينضو عنه ثيابه ويكتفي بشملة ، ومن كتب عن موسوليني ، وجب أن يرتدى القميص الأسود ، ويدعو الى القوة ، ومن كتب عن مصارع ثيران تحتم عليه تعلم المصارعة ، والبحث عن حلقات القتال ..

والحق أننى لم أكن لأريد من هؤلاء الأساتذة ، أن يفعلوا هذا أو بعضه ، وانما أريد من هؤلاء الذين يتتابع انتاجهم فى اتجاه واحد ، أن يكون هذا الاتجاه ، دليلا على تحول فكرى ، وأن يكون لهذا التحول الفكرى ، أثره فى نشاطهم السياسى — وفى أسلوب حياتهم .

خذ مثلا تولستوى كان قصصا فلما اضطربت نفسه ، ثم ثابت الى الايمان بالمسيحية ، انقلبت حياته رأسا على عقب ، وتأثرت أفكاره فى الكل والتفاصيل ، وأصبح العمل الادبى ثانويا بالنسبة لدعوته الجديدة . وهجر بيته وأسرته ، وغير ملبسه ومأكله .

وليس تولستوى الا مثلا صارخا ، وليس كل الادباء والمفكرين فى مثل مزاجه وحيويته

ولكن هذا المثل المتطرف يرينا كيف يأخذ الكتاب ، مايكتبونه ، مأخذ الجد . فهم لا ينظرون الى أنفسهم نظرة الانسان الى المطبعة التى تخرج كتبا فى الرياضة والفقه وحساب المثلثات والشعر ، تنشر للمعسكر الغربى والشرقى ، وللمسلمين والملحدين فاذا كان الكاتب زعيما سياسيا ، ينتخب للمجالس النيابية ويشارك فى الحكم ، فيلى الوزارة ، أو يكون مستشارا للوزراء فتبعته تزيد ، ومسئوليته تكبر ، ويصبح من حق القراء عليه أن يحسبوا ان التحول الى الكتابة فى موضوع معين ، ثم المثابرة والاصرار عليه ، والتنويع فى أسلوب التحدث فيه تارة بالكتابة التاريخية وأخرى بكتابة التراجم ، وثالثة بكتابة القصص ورابعة بالدفاع السياسى — من حق القراء أن ينتظروا من وراء هذا التحول ، نتائجه الطبيعية فاذا وجدوا أن الامر ليس الا ثمرة صدفة محض حولت دفة القارب الادبى فى بلادنا الى هذا الاتجاه ، وأن رواج الكتب اوكسب المادى ، هما صاحبا الفضل فى نشوء هذا الاتجاه ولا شىء غير ذلك ، كانت خيبة الامل فادحة ..

هذه هى جملة الراى ، فى هؤلاء الكتاب ، هو رأى لا يبغى فى قليل أو كثير ، أن ينتقص قدر ما أخرجوه لنا من كتب ، وما نظموه من شعر ، وماترجموه أو لخصوه أو علقوا عليه ، فقد كان ذلك كله زادا لجيلنا .

الوارث لا يكون جاحدا ان هو قرر ان مورثه ترك له بيتا ، ولم يقل انه ترك له مصنعا للحديد والصلب مثلا ، اذا كان المورث قد ترك بيتا بالفعل ولا يكون ناكرا للجميل ، ان قال أن البيت كانت تنقصه الابواب ، أو الشبابيك ، وأنه لم تصل اليه المياه أو الكهرباء ان كان البيت كذلك .

على أن الوارث لا يليق به أن يعدد عيوب تركة أبيه حتى ولو بالحق ، الا أن أراد أن يرمم ما تصدع من بناء عقاراتها ، وأن يحسن فى صقع أراضيها ، وأن يسدد ديونها ، ولم يكن هذا التعديد لمجرد التنديد بالاباء والاجداد أو ليشكو الحظ ، فما أجدر الابناء بأن يسمع منهم الثناء على الاباء .

وقد قلت فى هذا المسلك من كتابنا الكبار فى صفحة ٢٥ : « ولك أن تتساءل بعد أن تفرغ من قراءة هذه الكتب الكثيرة ما الفارق بين هيكل والعقاد وغيرهما حينما لم يكونوا يذكرون الاسلام الا نادرا وهيكل والعقاد وزملاؤهما حينما وجهوا جهدهم الأدبى ووقفوا دراساتهم أو كادوا على الاسلام وأبطاله وأحكامه وقد لا يروقك أن تعلم أنه لا شيء مطلقا أولا شيء تقريبا » ... فما من شيء فى حياتهم تغير بتغير موضوع دراساتهم وكتاباتهم ، وما من شيء تأثر فى أسلوب تفكيرهم ، وكان الطبيعى ، وقد بلغ الاعجاب عندهم بالاسلام الى هذا الحد الكبير ، أن ينعكس على مسلكهم فى الحياة العامة وعلى تفكيرهم السياسى »

ولذلك تولانى عجب شديد حينما وجدت أن التعليق على هذه الالفاظ الواضحة ، والمعانى الجلية ، هو اننا نكون متعسفين اذ نعتبر العودة الى التراث العربى على يد طه وأحمد أمين ، وأمين الخولى نكوصا على الاعقاب أو ردة .

نكوص وردة ؟

من الذى ذكر النكوص والردة ولو من بعيد ، وهل يكون لمثلى أن يعتبر العودة الى التراث العربى والتراث الاسلامى نكوصا وردة؟ اذن ماذا تكون النقاهه والتماثل للشفاء والصحة والعافية ؟!!

على أنه مما يزيد من غرابة هذا الغرام الاسلامى المفاجىء أنه جاء فى أعقاب فترة كان فيها كتابنا الأعلام (علمانيين) أو (علميين) أو (لا دينيين) ، واختر لنفسك اللفظ الذى يروقك .

ولقد كان لعلمانيتهم أو لادينيتهم هذه آثار فيما يقولون وفيما يكتبون ، أشار الدكتور محمد حسين هيكل الى بعضها فى صفحة ٢٣٦ من كتاب « ثورة الأدب » فقال :

« والمصريون والشرقيون الذين لم يفطنوا بما يجب من الدقة الى هذا الاتصال التاريخى بين الدين والعلم والفلسفة والأدب فى الغرب ، والذين فتنوا بأدب الغرب ؛ هؤلاء وأولئك خيل اليهم أنهم قديرون على نقل صور الأدب الغربى الى الشرق كما هى . فخيل اليهم أن فى الشرق كنيسة ككنيسة الغرب ، وأن ما انتهى اليه النضال بين الدولة والكنيسة فى الغرب يجب أن تبدأ عنده حملتهم على هذه الكنيسة الموهومة فى الشرق ، وخيل اليهم أنه يجب الفصل بين الكنيسة والدولة على نحو ما حدث فى فرنسا ، وأعترف أن خواطر كهذه جالت بنفسى فى أوقات متفاوتة » .

ولكن كتابنا الأعلام ، فى فترة اللادينية أو القتال ضد الكنيسة الموهومة ، فى الاسلام ، ما كادوا يمتشقون سيوفهم ليحققوا الاصلاح الدينى المنشود ، وليحرروا العقول من ربقة (الكنيسة) ، ويدعوا الى فصل العلم عن الدين ، مما عبر عن بعضه كتاب « فى الشعر الجاهلى » حتى أحسوا أنهم داعبوا أسدا هصورا نائما ، فتقهقروا بغير انتظام عماقالوه، بل عن كل ماكان فى نيتهم أن يعلنوه وماأعلنوا بالفعل بعضه وتابوا وأنابوا ، ولم يعد أحدهم يقول شيئا من هذا حتى ولو همسا ، فقد تأكد لهم أن مستقبلهم السياسى سيدمر ، وأن مستقبلهم الأدبى سيتحطم ، وأنهم لن يستطيعوا أن يحققوا ماحققوه فيما بعد من المكانة المادية والأدبية ، فيصبحوا وزراء ، وزعماء ، ويقتعدوا مركز القيادة الأدبية ، ويواصلوا تحرير هذه المقالات اللطيفة السريعة ، التى تلم بكل شيء ، فتتحدث فى الأدب والفن ، والسياسة والتاريخ ، وتلخص المسرحيات والقصص ، وتترجم للأحياء وللأموات ، وتؤبن وتهنىء وتنقد وتزكى أصحاب الاسماء التى صنعت تاريخنا الادبى الحديث .

وليس حتما أن تفهم بالضبط ماذا وراء هذه الأشتات المتناثرة ، فان كلا منها على حدة شيء طريف ممتع ، وليس هناك كثيرون ينافسون السادة الاعلام فى جمال ما يكتبون ولا حسن وقعه فى النفوس .

وجملة القول أن هذا العصر ، كان لا يؤمن بشيء ، وان كان يهم بالايمان بأشياء ، وأنه عصر يحسن التخلى عن أفكاره ، عند أول بادرة

خطر، ولعل أحسن مثل يضرب على ذلك مارواه الدكتور هيكل عن سعد زغلول فى موضوع الخلافة الاسلامية بعد سقوطها فى استامبول على يد مصطفى كمال (أتاتورك) سنة ١٩٢٤ ٠ فقد قال الدكتور هيكل ان سعد زغلول وعده بحديث لجريدة السياسية يؤيد فيه رأى الاحرار الدستوريين فى أن الخلافة كانت عبئا على تركيا، أثقلها فى نهاية أيامها، وأنها ستكون كذلك على مصر ان هى نهضت بها، فلا يصيبها منها الا الوبال ٠ ولكن سعدا أدرك أن وراء ذلك اثارة لغضب الرأى العام، فأمسك لسانه وآثر السلامة فى حين كان مركزه يقتضيه أن يقود متحملا المسئولية، لا أن يقاد فارا من التبعة ٠

هذه سمة العصر الأصيلة ونقولها للمرة الثانية أو الثالثة، نقص في الايمان، ونقص فى الشجاعة، واتقاء للمكاره، وأخذ للأمور من أيسر السبل، والتخلى عن الأفكار، والتنقل بين الأحزاب، ومصالحة متجددة مع الانجليز والملك ٠

لكنا لا نستطيع أن نقول انه عصر بلا ايمان، ولا عصر بلا شجاعة، ولا عصر بلا معارك جزئية، ولا عصر خلا من التوثب على الانجليز حينا، وعلى الملك حينا، ومن مغازلة للأفكار الجديدة، أو الدعوة اليها ٠ ولكنه أيمان غير ثابت، ــ ان صح ان هناك ايمانا غير ثابت ــ وشجاعة تخون أصحابها عند اشتداد الأزمة، ومخاصمة غير مشوبة بالتودد، ومعارك مع الملك تنتهى بلثم عتباته الملكية ٠

لكن هذه الفضائل الجزئية، للعهد أنتجت أشياء ستبقى على الزمن، أحصيتها فى كتاب (عصر ورجال) ٠

ومن هنا كان أسلوبى فى تأريخ هذا العصر، وفى تقويم دور زعمائه، ينضح بالحب والتقدير، وفى الكتاب مائة دليل ودليل على ذلك؛ لا بفقرة واحدة ولا بفقرات وانما بصفحات اليك مثلا :

استفتح الكتاب بهذه الفقرة :

« لكم أحببت هذا الكتاب، وهو بعد فكرة فى رأسى ٠٠ لا لأن ماكتبته فيه حقق بالضبط ما أردته، بل لأنه أتاح لى أن أعيش مع أصحاب الاسماء التى صنعت تاريخنا الادبى الحديث، وان أزداد منهم قربا، ولهم فهما »

وفى صفحة ٧ من الكتاب عدت أقول :

« والوفاء يقتضينى أن أعبر مرة أخرى عن شعورى بالدين العميق لهذا الكتاب الذى جمع أرواح وعقول هؤلاء الكبار حولى، والذى أتاح لى أن أتأملهم واحدا واحدا؛ وأن أتأملهم جميعا، وأن أبتعد عن صورتهم لأراها أكثر وضوحا، ثم لأقترب منها لأدقق النظر فى تفصيلات الصورة، وأنا بين الابتعاد والاقتراب، وبين النظر اليهم مجتمعين والنظر اليهم متفرقين ٠٠٠ نشأت بينى وبينهم مودة أكثر ادراكا ومعرفة، فليس أدعى الى نشوء الصداقة من الاقتراب الودود، ومن التأمل الذى يبحث ليفهم لا ليقع على العيوب، ولا ليغمض العين عنها » ٠

ثم قلت :

« لقد استطعت أن أرى هؤلاء الكتاب وهم يبنون أنفسهم ويبنون وطنهم : منهم من كان يحمل الأحجار الثقيلة فوق كتفه، ومنهم من كان يحمل بين كفيه حفنة من تراب ٠٠٠ ولكنهم جميعا كانوا يودون أن يعيشوا حتى يروا بأعينهم بناء شامخا لأمتهم » ٠

وفى عشرات أو مئات من المواضع ترانى أثنى على العصر، حيث يستحق فى نظرى الثناء، وأعدد حسناته حيث أجد هذه الحسنات ٠

وقد تساءلت أهو حقيقة عصر ذهبى كما تردد على خاطرى فترة وأنا أتهيأ فى الكتابة عنه ؟

أهو عصر عمالقة الشعر وكبار الكتاب، وبذر بذور النهضة والتحضير لها واعداد ضمائرها ؟

أهو عصر اضطراب وقلق وتمرد، حاول أن يثور على الاستعمار والملكية، وعلى حكومات الأقلية، واحتضن ما استطاع قضية العمال ــ

ودافع ما وسعه الدفاع عن الحريات الدستورية ، والحقوق الأساسية للشعب ؟

أهو العصر الذى ترجمت فيه الكتب الغربية ، وبدأت حركة التنوير ، وتلاحقت على مدى سنين مؤلفات لم يشهد العصر الذى قبله بل العصور التى سبقته شيئا مماثلا لها ؟

أنحسبه عصر العظائم . أعلن فيه الدستور ، وبنيت فيه الجامعة ، وكثرت فيه الصحف ، وبدأت الوحدة العربية تعلن عن نفسها ، وتطل برأسها وعرضت فيه قضية مصر فى الأمم المتحدة وألغيت المعاهدة » .

وعددت الشعراء الذين ازدحم بهم العهد وتساءلت من جديد : فهل عرفت مصر قبل هذا العهد مثل هذا العدد الكبير من الشعراء على اختلاف مدارى السفر ؟

ولم أكتف بكل هذا الاقرار بالفضل فالتمست لهم المعاذير فقلت فى صفحة ٨٥ :

« واذا كان الجيل الجديد قد تلقى عنهم الرسالة فقد تلقاها مفتوح العينين مدركا تمام الادراك انه تعثر فيه سلفه محيطا بنقص التركة التى ورثها ، عارفا لمزاياها ، منتفعا بالاخطاء ، وقد كان للذين سبقوه أكثر من عذر يعتذرون به ، كان الاحتلال جاثما على الصدور ، فارضا ثقله على الحياة السياسية والعقلية ، وكانت الملكية قائمة ، تسد أكثر من سبيل فى وجوه المفكرين، وكان دور بلادنا فى الحياة الدولية لا يوحى بالطموح والتطلع الى المساهمة الجدية .. الخ »

ومن كل هذه الفقرات التى لم أرد أن أزيد فى التوسع فى نقلها لكيلا أثقل على القارىء يتضح :

أولا ـ ان الاقرار بفضل عصر ما بين الثورتين ، فاضت به عبارات الكتاب ، بمقدمته وفصوله، فلم يرد هذا الاقرار فى جملة واحدة تائهة وسط محيط غريب عنها .

ثانيا ـ أننى سجلت بغير مواربة أن هذا العصر ، كان له التحضير ، فلا أساس مطلقا للقول بأنى أتهمته بأنه عصر بلا دور .

ثالثا ـ وبالتالى لم أزعم قط أن العصر ، انقطعت صلته بعصرنا وأفكارنا وأحلامنا ومحاولاتنا بل أكدت العكس بأكثر من عبارة.

وفى صفحة ٨٠ بعد تساؤلات كثيرة ـ كنت اضمنها دائما حسنات العهد ، وأضرارها تساءلت ماذا فعل هذا العصر ، وماذا فعل رجاله ؟ ماذا يساوى هذا العصر ، وهل ذهب وكله أخطاء وآثام وعجز وحيرة ، أم كان لرجاله فضل لا ينكر ، ومقام لا يجحد ؟

وأجبت فى صفحة ٨٣ :

« لقد تركوا شيئا له أثره ، وقيمته ، وقالوا كلاما نافعا ، وتعرضوا بين الحين والحين، لبعض الاذى ، وأثاروا أحلاما فى النفوس ، وخواطر فى العقول ، ومشاعر فى القلوب ، وتحدثوا عن الحرية والدستور ، وعن الادب والحياة ، وترجموا ولخصوا .. »

ثم قلت فى ص ٨٥ :

« ولكنا لا نملك أنفسنا من توجيه التحية لهؤلاء الاساتذة ، ومن الاقرار لهم بالجميل ، والاعتراف لهم بالفضل ، فقد أعطونا أحسن ما عندهم .. »

ولم أحس ، بعد أن فرغت من الكتاب ، أنى هاجمت أحدا ، فقد كتبت فصول الكتاب كلها ـ كما قلت بروح الود والتقدير ، حتى الفصول التى اشتدت فيها نبرة النقد ، لم تخل قط من ذكر الفضل ، التنويه به ، والتأكيد عليه ، لا تلطيفا للهجو ، ولا تخفيفا للعنف ـ بل تعبيرا عن عاطفة صادقة ، وميل لا شبهة فيه .

* * *

أما منهج الكتاب ، فأعجب أن يخفى على قارىء فضلا على ناقد . فانا لم أعد ، لا بتأريخ حياة كل كتاب عصر ما بين سنتى ١٩١٩ و ١٩٥٢ ، ولو فعلت لاقتصر نصيب كل منهم على صفحة أو صفحتين ، ليصبح الكتاب ، مرجعا الى الاسماء وتواريخ الميلاد والوفاة ،

وأسماء الكتب ، الى آخر ما يطلبه الراغب فى مطالعة عجالة صغيرة ٠

ولكن ما وعدت به القارىء هو تصوير العهد من خلال تراجم بعض كبار كتابه وشعرائه ٠ وقد تصورت أن وضع هذه التراجم الواحدة منها الى جانب الأخرى ، كفيل بأن تجتمع فيه صورة كاملة للعهد ، لأن كل ترجمة ستروى جانبا من حياة العهد ، ومنهجا من مناهج العيش والتفكير فيه ٠ فاذا كانت هذه غايتى ، فليس من الانصاف فى شىء أن يقول لى قائل : «لقد تركت فلانا» ـ أو تركت بعض من وعدت بأن تكتب عنهم ، ذلك بأن عدد الكتاب ، ليس شرطا من الشروط التى فرضتها على نفسى ، ولقد كان اختيارى لهؤلاء الكتاب والشعراء ، بقصد خدمة الغرض الذى صدر الكتاب ليحققه ٠ وليس من حق الناقد للصورة أن يأخذ على مصورها ، انه لم يستعمل كل ألوان الطيف ، وانما له أن يقول أن الصورة لأنها افتقدت لونا بعينه ، بدت كئيبة أو ضعيفة ، وان اللون الذى استعمل فيها ، لا يتفق مع موضوعها ٠

وأنا أزعم أن الاثنى عشر ترجمة ، تعاونت فى رسم مشهد عام لحياتنا الفكرية خلال هذه الفترة ، التى جعلتها موضوعا للحديث ، ولما حضر لها واتصل بها اتصالا مباشرا ٠

ويتصل بهذا النقد أننى وضعت الى جانب شوقى عبد الحميد الديب ، والى جانب هيكل الغاياتى ، والى جانب المازنى يوسف حلمى ، ومن أن التفاوت فى اقدار هؤلاء ، كبير ، الى الحد الذىيقع معه فى نفس الانسان، أنالاختيار وقع اعتباطا ٠ والواقع أن هذا الاختيار كان مقصودا لذاته ، وقد فرضه موضوع الكتاب ، فالتأريخ لهذه الحقبة لا يكمل بترجمة حياة شوقى ، دون عبد الحميد الديب ، فعبد الحميد الديب ، يروى لنا بحياته ، جوانب من حياتنا فى تلك الفترة لا ترويها حياة شوقى ، فى حياة الغاياتى ويوسف حلمى ، ما اذا جهلناه ، جهلنا جوانب أخرى من تلك الحياة ، ليست أقل خطرا ، ولا أضعف أثرا من حياة شوقى وان كان أكبر شعراء عصره ، وكانت الناس قد نسيت الغاياتى ، وكان الحظ لم يتح ليوسف أن يلعب الدور الذى تاق اليه ، وحلم به ٠

ولا تثريب على أن اشترطت على نفسى أن يكون الكاتب أو الشاعر ممن لحقو بالرفيق الاعلى ، أو ممن عرفتهم معرفة شخصية أو ممن ترجموا لأنفسهم أو ترجم آخرون لحياتهم ، فهذه شروط لا تغير من النتيجة النهائية شيئا، اذ أنه أيا ما كانت الشروط التى اتبعتها فى اختيارهم للحديث عنهم ، فان الشرط المراعى فى اختيارهم جميعا ، هو أن يطلعونا من نافذة دنياهم ، على الدنيا التى عاشتها بلادنا خلال ثلاثين عاما أو يزيد ٠

وقد كان بودى أن أتناول ملاحظات أخرى ، بيد انى أحس أن الكلام طال ، ويخيل الى أنه ستتاح باذن الله مناسبات قادمة ، نكمل فيها القول ، عن عصر ، يستحق منا أن نكثر من الحديث عنه ، والتأمل فيما أهدى لبلادنا وما صنع لمستقبلنا ٠

عروس السماء

شعر: حسن كامل الصيرفي

يا عروس السماءِ ما كنت جسماً ... يتجلى فى الناس ،بل كنتِ نسْمَهْ

عبرتْ عالماً كثيرَ الزرايا ... عبرةً كلها سلامٌ ورحمه

يا عروس السماءِ ما كنتِ إلاَّ ... أملاً باسطاً على الليلِ حُلْمَهْ

لم يَدُمْ طيفه ، وأيقظ فينا ... شبح الحزن ، ثم عاودَ نَوْمَهْ

يا عروس السماءِ ما كنتِ إلاَّ ... وَمْضَةَ النورِ فى كثيف الظلمه

ضوَّأَتْ خطفةً ، فلمَّا انتبهنا ... لم نجدْ بيننا ضياءَ النجمه

يا عروس السماءِ ما كنتِ إلاَّ ... بسمةً لألأتْ كأقصر بسمه

ما فرحنا حتى توارت ، وغامت ... دمعةٌ فى العيون أقتمَ غيمه

يا عروس السماءِ ما كنتِ إلاَّ ... زهرة فوحت بأطيب فغمه

أين راح العبير ، أين تلاشى ... وشباب الربيع لم تستتِمّهْ ؟

قُطفتْ زهرة ، وغُيِّب ضوء ... وتوارَى فى ليلةٍ مدلهمَّه

كم بَنَيْتِ الآمال أوسعَ ما قد ... شادَ بانٍ من المنى وأتمَّهْ

وترقبتِ — والغيوم تغطى ... ما ترقبت — فى جلال وعصمه

كنتِ أعلى من سنِّك الحق هدياً ... كنت أعلى من سنِّك الحق حكمه

رقة كالنسيم يعبر بالفجـ ... ـر ، وفيه أصداء . أجمل نعمه

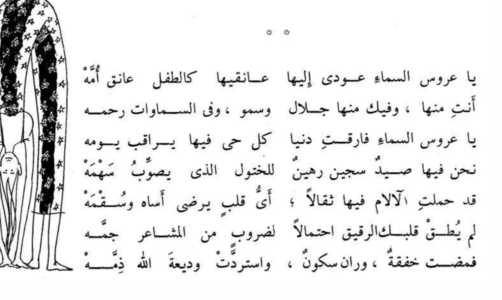
وكتسبيحة المصلى إذا ما ... حرسته الأملاك والطهر ضمَّهْ

وذكـاء كأنه النـور يمضى في الظلام الكثيف حتى يعمَّهْ
يا عروس السماءِ كنتِ على الأر ض خـيالاً يسعى ليُسعدَ قومه

* *

إيه يا أَرض يا طريق الرزايا زحمتنا الأَقدار أَحشد زحمهْ
لسـتِ أهـلا لأَن تكونى مقاماً لعروس ، ولستِ أَهـلاً لنعمه
كم تحيلين فـرحة الناس حزناً وتحيلين نعمة العيـش نقمه
تبتليـن الأَجسـام بالأَلم الدا مى ، وترمين بالخطوب الملمَّه
ما رأينـا السرور إلا مشـوباً بدمـوع تمحـو رواه ورسمَّه
تسكبين الشراب صـفواً زلالاً وتصبِّين مُـرَّه أَو سـمَّه
ما عرفنا الطريق إلا صخـوراً نعتليها فـلا نرى بعدُ قِمَّه
الشكوك التى تطلسـم حـقًّا هى أُفقٌ نمضى إليه بهـمَّه
فى فراغ ندور ، والكلُّ وَهْـمٌ وعجيبٌ أن يرتضى العقلُ وَهْمَهْ
الصراع الـذى نحطِّم فيه هو سعىٌ وراءَ زيفٍ ورِمَّهْ

* *



يا عروس السماءِ عـودى إليها عـانقيها كالطفل عانق أُمَّهْ
أنتِ منها ، وفيك منها جـلال وسمو ، وفى السـماوات رحمـه
يا عروس السماءِ فارقـتِ دنيا كل حى فيها يـراقب يـومه
نحن فيها صـيدٌ سجين رهينٌ للختول الذى يصوِّبُ سَهْمَهْ
قد حملتِ الآلام فيها ثقالاً ، أَىُّ قلبٍ يرضى أَساه وسُـقْمَهْ
لم يُطـقْ قلبـكِ الرقيق احتمالاً لضروب من المشـاعر جمَّـه
فمضـت خفقةٌ ، وران سكونٌ ، واستردَّتْ وديعةَ الله ذِمَّـهْ





[١] فى مختلف العصور

بقلم : عبدالحميد ابراهيم محمد

القصة عمل فنى معقد ، يحتاج الى عقلية تحليلية، تستطيع المزج بين عناصر القصة المختلفة ، وتقدر أن توائم بين الشخصيات فى علاقة بعضها مع الآخر ، وتلائم بين الشخصية وحوارها ومسلكها .. ثم توجه كل هذه العناصر لخدمة غرض معين وهدف فى ذهن الكاتب .

وهى عمل يحتاج الى خيال مبتكر خلاق ، يحاكى الطبيعة فى صنع الأحداث ، ويشاكل الحياة فى ابتكار العلاقات .

وقد أنكر بعض المعاصرين على العرب قدرتهم على خلق قصة ، وحكموا بخلو الادب العربى من هذا الفن .

فالأستاذ **الزيات** يؤمن بقصور العرب فى القصص ويرى أن هذا القصور استمر حتى « وضح ابن المقفع الفارسى مناهج النثر ، وفكر فى تدوين شىء من القصص ، فكان ما ترجمه هو وأمثاله من نحو « كليلة ودمنة » و « هزار أفسانه (ألف خرافة) » « ودارا والصنم المذهب » ـ حديا للعرب ونموذجا لهم فى وضع ماوضعوه منها (١) » .

ويجمل الأسباب التى أدت الى هذا القصور فى أن مزاولة القصة تقتضى الروية والفكرة ، والعرب أهل بديهة وارتجال ، وتتطلب الالمام بطبائع الناس وهم قد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهم ، وتفتقر الى التحليل والتطويل وهم أشد الناس اختصارا للقول وأقلهم تعمقا فى البحث ، وقد قل تعرضهم للأسفار البعيدة والأخطار الشديدة وحرمتهم طبيعة أرضهم وبساطة دينهم وضيق خيالهم واعتقادهم بوحدانية الههم ... كثرة الأساطير ، وهى أغزر ينابيع هذا الفن .. الخ (٢) .

والأستاذ **توفيق الحكيم** يرى أن الأدب العربى ـ فى الفترة السابقة للاسلام ـ خلق فنى ناقص التكوين ، فاذا تأملت الآداب القديمة ، وجدت أنه قد عاصرتها فنون كبرى ، فالمعابد العظيمة والتماثيل الرائعة فى مصر القديمة ، والهند ، والاغريق ، خليق أن يعاصرها أدب عظيم مثل الملاحم والتمثيل والقصص ، ولكن الأدب العربى نشأ فى بيئة قاحلة، فكان أقصى ما عاصر لغة امرىء القيس ، أولبيد أو زهير تلك المسوخ والتهاويل لآلهة من الحجر أطلقوا عليها الهبل واللات والعزى .. (٣)

والدكتور **أحمد أمين** يعتقد فى تقصير العرب فى هذا النوع من القول .. وان كان يخفف الأمر فيرى أن هذا الضرب أحد مظاهر الخيال لا مظهر الخيال كله فالفخر والحماسة والغزل والوصف والتشبيه والمجاز ـ كل هذا ونحوه مظهر من مظاهر الخيال . والعرب قد أكثروا القول فيه كثرة تسترعى الانظار ، وان كان الابتكار فيه قليلا . كذلك ما ملىء به شعر العربى من الغزل وبكاء الأطلال وذكرى الأيام

والحوادث ، وما وصف به شعوره ووجدانه وما صور به التياثه وهيامه – لا يمكن أن يصدر عن عواطف جامدة ، ولكنه يجمل رأيه فى عربى الجاهلية بأن « خياله محدود وغير متنوع ، وقلما يرسم له خياله عيشة خيرا من عيشته ، وحياة خيرا من حياته يسعى وراءها ، لذلك لم يعرف المثل الأعلى لأنه وليد الخيال ، ولم يضع له فى لغته لفظة دالة عليه ، ولم يشر اليه فيما نعرف من قوله ، وقلما يسبح خياله الشعرى فى عالم جديد ، يستقى منه معنى جديدا ، ولكنه فى دائرته الضيقة استطاع أن يذهب كل مذهب ٠٠» (٤) ٠

وغير هؤلاء كثيرون ممن يؤمنون بضيق الخيال العربى وعدم توفيقه فى انشاء القصة أو خلق الاساطير (٥) ٠

* * *

ولعل هؤلاء وغيرهم متأثرون بما احتفى به بعض الباحثين فى القرن التاسع عشر وما بعده من **مناداة بالفروق بين الأجناس البشرية** ، أو بنظرية « العروق » كما يسميها « غوستاف لوبون » ٠

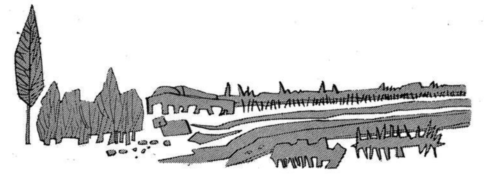
ويمكن تعريف العرق أو النوع البشرى بأنه يدل على جماعات ذات أخلاق مشتركة ، تنتقل اليها بالوراثة المنتظمة ٠٠ ويرى غوستاف أن أثر البيئة أو التوالد يكاد يكون معدوما فى العروق العريقة « فقد دلت حوادث التاريخ على أن العرق اذا ما استقرت أخلاقه وسجاياه بالوراثة ، وبلغ من الكبر عتيا ، عجزت البيئة عن التأثير فيه ، وصار أهون عليه أن ينقرض من أن يتحول (٦) ٠

وشرع بعض الباحثين يبوبون الصفات العقلية والوجدانية لكل جنس ، فهذا جنس آرى ممتاز ، وذاك جنس سامى أقل منه ، هذا جنس آرى قد منحه الله الدهشة نحو العالم وأفاض عليه العاطفة المشبوبة والخيال الواسع ، فأخرج للانسانية القصص الرائعة والمسرحيات الذائعة ٠ وذاك جنس سامى لم يوسع الله عليه ، فحرمه الخيال المبتكر ، والعاطفة الخلاقة ، فلم يبتكر قصة ولم يخلق مسرحية ٠

ويتحدث «دى بو» عن النظر العقلى عند الساميين فيقول :

« لم تكن للعقل السامى قبل اتصاله بالفلسفة اليونانية ثمرات فى الفلسفة وراء الألغاز ، والأمثال الحكيمة ٠ وكان هذا التفكير السامى يقوم على نظرات فى شئون الطبيعة متفرقة ، لا رباط بينها ، ويقوم بوجه خاص على النظر فى حياة الانسان وفى مصيره ٠ واذا عرض للعقل السامى ما يعجز عن ادراكه لم يشق عليه أن يرده الى ارادة الله التى لا يعجزها شىء ، ولا يدرك مداها ولا أسرارها ، ونحن نعرف هذا الضرب من الحكمة فى العهد القديم ، ويدل على تكوينه لدى العرب ما جاء فى التوراة من قصة ملكة سبأ ، وما يحكى عن شخصية لقمان الحكيم مما هو وارد فى المأثورات العربية » (٧) ٠

وأعتقد أن هذه الآراء كانت مظهرا للغرور الذى أصاب أوروبا فى القرن التاسع عشر وما بعده بسبب حركاتها الاستعمارية وقوتها الصناعية ، وانتصاراتها العلمية ، فخيل اليها – وهى فى تلك النشوة المثملة – أنها جنس ممتاز ودم فريد من حقه ، بل من الواجب عليه ، أن يتولى أمور الأجناس الأخرى وأن يتملك زمامها ٠ وقد وقع الأستاذ جب « Gibb » على سبب شبيه بهذا ، وهو يعلل لبعد العقل الغربى فى القرن التاسع عشر عن استيحاء الشرق فى آدابه ، اذ « شغلت الغرب يومئذ آراؤه الفلسفية الحديثة ، ومبادئه السياسية الجديدة ، والتطور الصناعى



العظيم الذى شمله فلم يعد بحالة يستطيع فيها الاصغاء الى الشرق ، بله العمل فى صبر وأناة على تفهم الروح الشرقى ، وقضى الشعور بالوطنية على ذلك المثل الأعلى الذى كان يراه جوته فى وجود أدب عالمى ... » (٨) .

ومن الطريف أن هذه النظرة الاستعلائية تصيب ـ كما يدل التاريخ ـ كل قوم أقيمت على أيديهم حضارة انسانية . فالمصريون القدماء كانوا يسمون الشعوب الأخرى « بالبربر » . والعلماء والكتاب اليونانيون كانوا يسمون كل من عداهم من الشعوب « بالبربر » لا يستثنون المصريين ، ولا الكلدانيين ، ولا الفينيقيين ، ولا الفرس ، ولا غيرهم (٩) .

وحين أتيح للحضارة الاسلامية أن تزدهر أصاب الغرور العرب أيضا ، فرأوا أنهم أفضل الأمم ، وأن حكمتهم أشرف الحكم(١٠) .

والحق أن هذه الآراء التعصبية ـ سواء كانت من جانب الأوربيين أو من جانب العرب أو من غيرهما ـ ينقصها التمحيص العلمى الدقيق ، والنظرة التاريخية الكلية .

أما النظرة التاريخية الكلية ، فانها ترى أن الحضارات الانسانية لم تكن وقفا على جنس دون آخر ، وأن كل حضارة هى مرحلة طبيعية ترضع مما سبقها من حضارات وترضع ما يلحقها من حضارات .

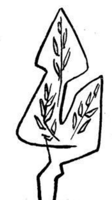
***

بعد هذا الاستطراد الذى كان لا بد منه لهدم الأساس الذى بنى عليه من رمى الادب العربى بالجدب، وعدم التنوع فى الأفانين الأدبية ـ أعود الى المنكرين للقصة فى الأدب العربى فأعرض عليهم دليلا أقوى مما سبق ، **وهو واقع الأمة العربية التاريخى** .

فالحقيقة أن القصة واكبت الأمة العربية فى سيرها التاريخى ، وفى كل عصر كانت أداة فنية ، تعبر عن حاجات العرب ، وتشف عن ظروفهم التى كانوا يمرون بها .

فالصحراء العربية صحراء رهيبة ، يشعر أمامها العربى بالضآلة ، فاذا ما هجم الليل ، لف العربى وخيمته ، فلا يستطيع أمامه مهربا ، كما يومىء النابغة الى ذلك وهو يعتذر للنعمان ، والعربى أمام الصحراء وليلها يشعر بالرهبة والجلال ، يحيط به هزيع الرياح ، وتتطلع اليه نجوم كأنها عيون ذات شرر وتتساقط عليه شهب كالقصر . فماذا يفعل العربى ـ فى تلك الفترة المبكرة ـ أمام هذه المظاهر الرهيبة ؟! لقد جسدها وأضفى عليها الكثير من الأساطير والقصص . فهناك الجان التى تتلصص على الملكوت الأعلى ، وتحاول أن تخترق الحجب عسى أن تجد تفسيرا لهذه المتناقضات التى تحيط بالعربى فى صحرائه ، وقد جاء القرآن بابطال هذا الصنيع ، فقد امتلأت السماء حرسا شديدا وشهبا ، تمنع الجن من الوصول الى أسرار الغيب « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » (١١) والعربى فى ضعفه أمام مظاهر الصحراء يلجأ الى الجن ، « فكان الرهط من عرب الجاهلية اذا أمسوا فى واد أو قفر وخافوا من الجن، لجأوا الى الاستعاذة بعظيم الجن ، المسود فيهم . فيقولون : نعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه. ثم يبيتون آمنين » (١٢) وقد أشار القرآن الى هذه القصيدة فى قوله «وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن ، فزادوهم رهقا » (١٣) . وقد حيكت أقاصيص كثيرة حول الجن ، فهناك رجال من الانس يتزوجون من الجن ، وهناك عشاق من الجن للانس، وقد ذكر ابن النديم ستة عشر كتابا فى أسماء عشاق الانس للجن وعشاق الجن للانس (١٤) وهناك رجل من بنى عذرة يقال له «خرافة» سبته الجن ، وكان معهم ، فاذا استرقوا السمع أخبروه ، فيخبر به أهل الأرض فيجدونه كما قال (١٥) . وقد كان أبرهة ذو المنار من أجمل الناس وجها فعشقته امرأة من الجن ، ثم تزوجت منه، وولدت له ولدين: العبد ذا الاشرار ، وعمرا ذو الاذعار (١٦) ، وكان العبد اذا أضل طريقه استنجد بالجن فتعينه (١٧).

وقد استغل الكهان والعرافون هذه العقيدة ، فأشاعوا بين الناس أن مع كل واحد منهم رئيا من الجن مثل حازى جهينه ، وظريفة بنت الجد الحجورية التى أتاها آت فى المنام ، فخيرها بين العلم والولد فاختارت العلم (١٨) . وورث العلم (١٩) من بعدها سطيح وشق (٢٠) . وحاكوا الاساطير حول هذه الشخصيات الجنية ، فشق نصف آدمى ، له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة (٢١) . وليس له مفصل ولا عظم يخرج ممسوحا ، وماله رأس ولا عنق (٢٢) . أما سطيح فقد عمر حتى بلغ ثلاثمائة سنة ، وجهه فى صدره ولد هو وشق فى يوم واحد،

لا عظم فيه الا الجمجمة ، لا يقدر على الجلوس الا اذا غضب ، له سرير يوضع فيه اذا أريد نقله من مكان الى مكان ، واذا أريد استخباره عن المغيبات فانه يحرك كما يحرك سقاء اللبن ، فينتفخ ويمتلىء ويعلوه النفس ، فيسأل ، فيخبر عما سئل عنه ، وهو الذى تنبأ بظهور محمد (ص) وبغلبة العرب (٢٣) ٠

وقد علل المسعودى لهذه الأساطير التي شاعت بين العرب تعليلا منتزعا من البيئة ، ومن موقف العربى ازاء هذه البيئة ، فقال :

« وقد تنازع الناس فى الهواتف والجان ، وان ما تذكره العرب وتنبىء به من ذلك ، انما يعرض لها من التوحد فى القفار والتفرد فى الأودية ، والسلوك فى المهامه الوحشة ، لأن الانسان اذا سار فى المهامه روع ووجل وجبن ، واذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة ، والأوهام المؤذية السوداوية الفاسدة ، فصورت له الأصوات ، ومثلت له الأشخاص ، وأوهمته المحال ، كما يعرض لذوى الوساوس ، لأن المتفرد المتوحد يستشعر المخاوف ، ويتوهم المتالف ،ويتوقع الحتف لقوة الظنون الفاسدة على فكره ، وانغراسها فى نفسه ، فيتوهم ما يحكيه من هتف الهواتف به واعتراض الجان له » (٢٤) ٠

***

والعرب ـ فى معظمهم ـ قبائل تنتجع الغيث والكلأ، وما أكثر أن تشح السماء ، فلا تمطر نباتا الا فى بقع قليلة ، يتقاتل عليها العرب ، وتدور بينهم الحروب ، ولذلك يعدد المؤرخون « أيام العرب » (٢٥) ٠

وقد روى الرواة حول هذه الأيام قصصا ، وسواء أكانت واقعية ، أم فيها شىء من المبالغة فانها تعتبر من التراث القصصى ، وبعض هذه القصصى تعد مآسى انسانية رائعة ، وتشف عن عواطف مختلفة ، وتصطرع فيها المتناقضات فى نفس انسانية واحدة، كقصة « حرب البسوس » ، فكليب بن ربيعة بغى وطغى ، وداخله الغرور على قومه ، حتى انه كان يحمى مواقع السحب ، ويجير على الدهر ، ويجير الوحش فى فلواتها ، ولا تورد أبل مع ابله ، ولا توقد نار مع ناره ٠٠ وفى يوم تسربت ناقة « للبسوس » يقال لها « سراب » ، ووردت الحوض مع ابل كليب فأرداها بسهم ، فاستغاثت بابن أخيها « جساس بن مرة » ، فأحمسته ، وتسارعت فيه عواطف النجدة والنخوة والدفاع عن أقربائه المقربين ، والتحرر من هذا الطغيان الكليبى ، فركب فرسا له ، مغرورا به ، وأخذ آلته ؛ وتبعه عمرو بن الحارث ؛ حتى دخلا على كليب الحمى فقتلاه ٠٠٠ وهنا تتأزم الأمور وتدور المعارك المهولة بين بكر وتغلب ابنى وائل ، تلك المعارك التى امتدت رحاها الى كثير من القبائل العربية ، وأصبحت وكأنها ملحمة ، يشعر فيها الشعراء ، ويقص حولها القصاص ؛ ووسط هذا ميدان من المتناقضات ، تلك هى جليلة بنت مرة ، الضجيج ، كانت هناك نفس انسانية تحولت الى زوج كليب المقتول ؛ وأخت حساس القاتل ، فهى بين نارين من حبها لأخيها ، وحبها لزوجها ، ولجأت الى الأشعار عسى أن تخفف من حرة هذا التناقض ٠٠ وأخيرا لحقت أو ألحقت بقومها(٢٦) ٠

***

وهناك ضرب من القصص انتشر بين العرب ، وكان هذا الضرب مغبى ، يهدف الى اظهار تجربة والكشف عن عظة ، وهو تلك القصص التى تجد فى ثناياها أمثالا سائرة بين الناس ، فيها خلاصة التجارب التى تنير للأجيال حياتها ٠ فما المثل ـ فى اعتقادى ـ الا جملة قد اقتطعت من حكاية ، فهذه الجملة تحمل مغزى القصة ، اكتفى ـ تمشيا مع ميل العرب العام للايجاز(٢٧) ـ بهذه العبارة لتكون رمزا للقصة كلها ، وليس عبثا أن يتكلم البيانيون(٢٨) عن مورد المثل ، وعن مضرب المثل ، فما مورد المثل الا القصة

الأصلية التى حكيت للعبرة والعظة ، ومـا مضرب المثل الا الجملة التى اقتطعت من القصة والتى أصبحت تحمل معنى القصة الأصلية ، وتداولها الناس ليفيدوا منها فى حالات مشابهة للحالة الأولى التى ورد فيها المثل • جاء فى تفسير المنار ما يلى :

« والمثل فى اللغة الشبه والشبيه ، وضربه عبارة عن ايقاعه وبيانه ، وهو فى الكلام أن يذكر لحال من الأحوال ما يناسبها ويشابهها ، ويظهر من حسنها و قبحها ما كان خفيا ، ولما كان المراد به بيان الأحوال كانت قصة وحكاية •• هـذا ما قاله الأستـاذ الامام » (٢٩) •

* * *

ومن المدهش أن تجد القصة منتشرة فى العصر الجاهلى ، انتشارا واسعا « فلم يكن الشعر وحده هو الذى تهفو له النفوس ، وتسمو اليه الأعين عند عرب الجاهلية ، بل كان القاص يقوم أيضا مقاما هاما الى جانب الشاعر فى سمر الليل ، بين مضارب الخيام لقبائل البدو المتنقلة وفى مجالس أهـل القرى والحضر » (٣٠) ، واننى أقترح أن ترجع الى ما ذكره وهب بن منبه فى كتاب «التيجان» عن ذى القرنين (٣١) فستندهش لهذا الخيال الخلاق الذى يكاد يكافىء أقوى الأخيلة المعاصرة ، ارجع — بنوع خاص — الى تلك الرؤى العجيبة التى كان يراها ذو القرنين (٣٢) • أو الى ما ذكره عن أرض الملائكة حين أشرف ذو القرنين على دار مفردة بيضاء ، فيها بيت واحد ، وعلى باب الدار رجل أبيض واقف ، وعلى سطح الدار رجل مبيض واقف ، قد أخذ شيئا كمزمار ، فجعبسه فى فمه ، وأمسكه بيديه جميعا ، وعيناه تشخصان الى السماء ••• الخ (٣٣) ، أو الى ما ذكره عن أرض قطربيل ، اذ أنها أشبه بالمدينة الفاضلة التى نادى بها الفلاسفة ، فأهلها : « لا غنى فيهم ولا فقير ولا قاض فيهم ولا أمير ، ولا ناه فيهم ولا آمر ، ورأى مواشيهم بلا رعاة ••• » (٣٤) • وانظر الى العوالم العجيبة التى كان يلتقى بها ذو القرنين ، فمرة يلتقى بقوم « آذانهم كبار من أعلى رأس أحدهم الى ذقنه فاذا رقد وضع شقا عليها ، وغطت الأخرى الشق الأعلى ••• » (٣٥) ومرة يلتقى بقوم «صغار الأعين صغار الوجوه ، مشعرين ، وجوههم كوجوه القردة ، وهم لا يظهرون فى النهار ، وانما يظهرون فى الليل ، يختفون فى حر الشمس فى المغارات والكهوف فى الجبـال » (٣٦) وغير ذلك من عوالم عجيبة تشبه ما نقرؤه فى رحلات جاليفر من غرائب ومدهشات •

وان الأمر — بعد — يحتاج الى رسـالة مطولة فى ميثولوجيا العرب وقصصهم (٣٧) ، ولكن يكفى — فى هذا التمهيد اليسير — أن أقول :

ان القصة فى العصر الجاهلى ، كان لهـا أسر كبير لقلوب عـامة العرب ، حتى ان القرآن — وهو تنزيل من حكيم عليم — رأى باعجازه أن يضرب على هـذا الوتر الحساس ، فاتخذ تلك الأداة المحبوبة وسيلة لجمع القلوب ، واعتنى بالقصص عناية فائقة ، فهناك سورة تسمى باسم « القصص » وهناك سور تقص قصص الأنبياء وغيرهم ، وتسمى بأسماء شخصيات وردت فى هذه القصص مثل : سـورة ابراهيم، وسورة يونس ، وسورة آل عمران ، وسورة يوسف، وسـورة أهـل الكهف ••• الخ ، ووردت مادة « قصـص » فى القرآن أكثر من سبع وعشرين مرة • (٣٨)

وقد صادفت هذه القصص حاجة فى نفوس العرب فأقبلوا عليها اقبالا هال زعماء الشرك فأراد النضر ابن الحارث أن يصرفهم عنها بقصص أخرى ، فتحدث عن رستم واسفنديار ، فاذا قام محمد صلى الله عليه وسلم من مجلسه ، يجلس فيـه النضر ، فيحدثهم من متلقفاته ، ثم يقول : بالله اينا أحسن قصصا ، أنا أو محمد (٣٩) •

وقد بعثت قصص القرآن نهضة عظيمة فى القصص العربى ، حتى ليصعب على الذهن متابعة هذا الطوفان من القصص •• فهناك قصص حول الأنبياء ، عمل فيها الخيال عمله ، وافتن فيهـا العقل الاسرائيلى ما أمكنه الافتنان ، وان أردت المزيد من التوسعة ، فارجع الى الكتابين الذين ألفا فى هذه القصـص ، وهما : كتاب « الثعالبى » (٤٢٧ — ٤٣٤ هـ) فى قصص الأنبياء المسمى بالعرائس ، وكتاب الكسائى (من مواليد القرن الخامس) فى قصص الأنبيـاء أيضا •

وانما سأكتفى هنـا بضرب مثل عما حيك حول الآية « وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة ، فلا تكفر •• » • ففى تفسير البطرى :

« حدثنا أسباط بن السدى أنه كان من أمر هاروت وماروت ، أنهما طعنا على أهل الأرض فى أحكامهم ، فقيل لهما : انى أعطيت ابن آدم عشرا من الشهوات، فبهـا يعصوننى ، قال هاروت وماروت : ربنا لو أعطيتنا تلك الشهوات ، ثم نزلنا ، لحكمنا بالعدل ،

فقال لهما : انزلا ، فقد أعطيتكما تلك الشـــهوات العشر ، فاحكما بين الناس ، فنزلا ببابل دنبا وند ، فكانا يحكمان حتى اذا أمسيا عرجا ، فاذا أصبحا هبطا ، فلم يزالا كذلك حتى أتتهما امرأة تخاصـم زوجها ، فأعجبهما حسنهـا ، واســمها بالعربيـة « الزهرة » ... فقال أحـدهما لصاحبه : انهـا لتعجبني ، قـال الآخر : قـد أردت أن أذكر لك فاستحييت منك . فقال الآخر : هل لك أن أذكرهـا لنفسها ؟ قال : نعم ولكن كيف لنا بعذاب الله ؟ قال الآخر : انا نرجو رحمة الله . فلما جاءت تخاصم زوجها ، ذكرا لها نفسها فقالت : لا ، حتى تقضيا لى على زوجى . فقضيا لها على زوجها ، ثم واعدتهما خربة من الخرب يأتيانها فيها ، فأتيا لذلك ، فلمـا أراد الذى يواقعها قالت : ما أنا بالذى يفعـل حتى تخبرانى بأى كلام تصعدان الى السماء ، وبأى كلام تنزلان منها ؟ فأخبراها فتكلمت فصعدت ، فأنساهما الله ما تنزل به ، فبقيت مكانها ، وجعلها الله كوكبا .. فلما كان الليل أرادا أن يصعدا فلم يستطيعا فعرفا الهلك .. » وفى رواية عن مجاهد « أنهما بعد الخطيئة عرجا فردا ، ولم تحملهما أجنحتهما فاستغاثا برجل من بنى آدم ، فدعا لهما ، فاستجيب له ، فخيرا بين عذاب الدنيا والآخرة .. فاختارا عذاب الدنيا .. وزعم أنهما معلقان فى الحديد ، مطويان ، يصفقان بأجنحتهما » (٤٠) .

فهذه ولا شك قصص موضـــوعة لابراز ما فى الانسان من ضعف أمام غرائزه ، وما فى هذه الغرائز من قوة تبرر هذا الضعف . قال ابن كثير فى تفسيره معلقا على هذه الروايات وغيرها :

« وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعـة من التابعين ، كمجاهد ، والسدى ، والحسن البصرى ، وقتادة ، وأبى العالية ، والزهـرى ، والربيع بن أنس ، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم ، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين ، وحاصلهـا راجع فى تفسيرها الى أخبار بنى اسرائيل ، اذ ليس فيهـا حديث مرفوع صحيح متصل الاسناد الى الصادق المصدوق .. وظاهر سياق القرآن اجمال القصة ، من غير بسط ولا اطناب فيها ... » (٤١) .

* * *

وبعد تلك الخطوة القرآنية ، تدفق سيل القصص وتنوع ، **فابن النديم** يذكر فنا فى أخبـار المسامرين والمخرفين ، وأسماء الكتب المصنفة فى الأســمار والخرافات ، وذكر أكثر من ست ومائة كتاب ،ألفت فى أسماء العشاق ، وفى أسماء الحبائب المتظرفات، وفى عجائب البحر وغيره ... الخ (٤٢) . **والجاحظ** يعدد تحت عنوان « ذكر القصاص » (٤٣) أسماء القصاصين ، فيذكر نحوا من ثمانية وعشرين اسما . وقرب الخلفاء القصاصين ، فعثمان بن عفـان يقرب أبا زبيد الطائى ، وهو من زوار ملوك العجم ، وكان عالما بسيرها ، وقد قص على عثمان قصته مع الأسد حين خرج يريد الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك الشام ، وجعل يفيض فى الوصف ، حتى قال له عثمان : « اسكت ، قطع الله لسـانك ، فقد رعبت قلوب المسلمين » .. (٤٤) .

وهناك أسر تتوارث هذا الفن أبا عن جد .. « كان الفضل (وهو الفضل بن عيسى الرقاشى) من أخطب الناس .. وكان قاصا مجيدا ،وهو رئيس الفضيلية، واليه ينسبون ، وكان عبد الصمد بن الفضل أغزر من أبيه .. حدثنى أبو جعفر الصوفى القصاص قال : « تكلم عبد الصمد فى خلق البعوضة ، وفى جميع شأنها ثلاثة مجالس تامة » . وكان يزيد بن أبان عم الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشى يتكلم فى مجلس

الحسن ، وكان زاهدا عابدا ، وعالما فاضلا ، وكان خطيبا ، وكان قاصا ٠٠ » (٤٥) ٠

وحملت القصة العربية الأمانة في مختلف العصور ٠٠ وهى فى كل عصر مرآة صادقة تعكس الظروف التى يمر بها المجتمع ٠

ففى العصر الأموى حين مر الحجاز بظروف خاصة ، شاعت قصص العشاق ، واتخذت لها لونا فى الحاضرة مغايرا للون الذى ظهرت به فى البادية ٠

وفى العصر العباسى ، حين ظهرت فلسفة مانى ، وإباحية مزدك ، وســـفر الفجور والظرف ، وكثرت الخلاعة والمجون ، وتزايد الشذوذ والانحراف ـ شفت القصة عن تلك الحـــالة ، فظهرت كتب من قصص الأدب الصريح ، ككتاب أخبار الغلمان ، وكتاب حسين اللوطى ، وكتاب عاشق الصورة ، وكتاب عاشــق الكف ، وكتاب المخنث والفتاة التى عشقته(٤٦) ٠

ولما تعقد العقل العربى ، وغذته موارد الفلسفة ، وهذبته طرائق الصوفية ـ استطاعت القصة العربية أن تلبس ثوبا جديدا مناسبا لهذا العقل المركب ، فألف ابن سـينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧ م) رســـالة فلسفية ، سماهــا قصة حى بن يقظان ٠ ثم ألف الفيلسوف ابن طفيل (١١١٠ ـ ١١٨٥م) رسالته التى يعدها بعض نقاد أوربا خير قصته فى العصور الوســطى(٤٧) ٠ وبعده جاء السهروردى (قتل سنة ١١٨٣م) فألف قصة عنوانها « الغريبة الغربية »

وحين طغى على الأدب العربى الشـــكل اللفظى ، والافتتان بالمماحكات الاسلوبية ـ كان للقصة من ذلك نصيبها الأوفى ، فطفحت المقامات(٤٨) بالاستعراضات اللغوية ٠ وامتلأت بالألفاظ القاموسية ٠

وفى هذه العصور الوسطى كانت القصة العربيــة مزدهرة ، وقد أوضح الأستاذ جب Gibb ـ بعقلية واسعة ـ مدى تأثير النثر العربى فى الآداب الأوربية ، « وأن هذا التأثير يؤلف مظهرا من مظاهـــر حركة فكرية عامة ، شملت تلك العصور ، فلقد كانت النظم الدينية العنيفة التى اتصفت بها العصور الوسطى لا تتسع للحضارة اللاتينية ٠ وبات الناس يتشوقون الى معرفة مسائل ، كانت الى هذا الحين تمليها عليهم السلطات العليا ، فيقبلونها فى غير مشقة ، ولما لم يجدوا مقنعا فيمـــا لديهم من الآداب اللاتينية ، على ضيقها وجدبها وافتقارها الى قوة الابداع ، كان لابد



لهم أن يولوا وجوههم شطر جهة أخرى ٠٠ ولقد كانوا الى ذلك الحين يعترفون على مضــض بتفوق العالم الاســلامى فى الناحية الحربية فحسب ، ولكنهم لم يلبثوا يومئذ أن لاحظوا فى شىء من الخجل أنه يبزهم فى الحياة العقلية أيضا ٠٠ » ثم أخذ جب ـ بعقليــة محايدة ـ يحدد النواحى التى أثرت فيها القصـــة العربية فى القصة الاوروبية فى ذلك الحين(٤٩) ٠

❋ ❋ ❋

وسارت الحضارة سيرها ، واختارت فى هذه المرة أن تشرق فى أوروبا ، وكان لا بد للقصة العربية أن تواكب الحضارة ، وأن تسترد الدين من القصـــة الأوربية ، وأن تأخذ منها فى هذه المرة ، كما أعطتها من قبل ٠

وليس هذا يعنى أن القصة العربية المعاصرة ، هى بنت القصة الأوربية لحما ودما ، كما يرى الكثيرون٠

لست أعنى هذا ، وانما الذى أعنيه أن القصـــة العربية سارت سيرها الطبيعى ، فأفادت من الآداب الأوربية ، وامتصت منها ما هو صالح لها ولظروفها، فأضاف اليها ذلك دما جديدا ، امتزج بالدم العربى الأصيل فكان منهما خلق جديد ، ذو ملامح خاصة ، فيه الكثير من دماء أجداده ، وفيه أيضا عناصر أخر بسبب التهجين الجديد ٠ فالقصة المعـــاصرة ابتدأت كتطوير للمقامات العربية ،فما هى الا مقامات جديدة، أفادت من النهضة الأوربية فى تنويع المناظر ، وهى

تعميق التحليل النفسى ، والعناية بالمشكلات المعاصرة ونقدها ، وغير ذلك ٠ ومن أمثلة ذلك : «حديث عيسى ابن هشام » **لمحمد المويلحى** ، و « ليالى سطيح » **لحافظ ابراهيم** و « شيطان بنتاءر » **لأحمد شوقى**٠

ثم أخذت القصة العربية تتطلع الى أختها القصة الأوربية ، فكانت تقتبس منها الموضوع فقط، ثم تحور فيه ما تشاء ، وتضيف اليه أشياء مناسبة لجمهورها، وتقص منها مالا يصلح لها ، ومن أمثلة ذلك، **مصطفى لطفى المنفلوطى** ، فقد عرب ـ وأقصد المعنى الحقيقى لكلمة « عرب » ـ قصة « بول وفرجينى » وسماها « الفضيلة » ، وحول ـ واستعير منه هذا اللفظ الذى استعمله ـ « رحية «سيرانودى برجراك» للشاعر الفرنسى ادمون روستان من القالب التمثيلى الى القالب القصصى ٠

وارتوت القصة العربية كثيرا من القصة الأوربية، اما عن طريق الترجمة الدقيقة ، أو طريق المشافهة الحقيقية ، حتى قدر لها أن تستقل بنفسها ، فاتجهت الى بيئتها الأصلية ، تلتمس منها الموضوع ، وتبحث فيها عن المشكلة ـ وهى فى الوقت نفسه ـ لا تأنف من استيراد هواء جديد من أوربا ومن أمثلة تلك الأعمال الناضجة التى استوحت بيئتها المحلية ، قصص **نجيب محفوظ** التى عالجت شخصيات وأجيالا مصرية متعاقبة ، كالثلاثية (بين القصرين ، قصر الشوق ، السكرية) ، وخان الخليلى ، وزقاق المدق ومثل « عودة الروح » **لتوفيق الحكيم** ، ومثل « الارض » **لعبد الرحمن الشرقاوى** ٠٠

***

وهكذا نجد أن القصة العربية مخلوق حى على مدى العصور التاريخية ، أحيانا يتأثر بالآداب الاخرى ، كالآداب الفارسية أو الهندية ، أو الاوربية ، وأحيانا يؤثر فى تلك الآداب كما حدث فى العصور الوسطى ٠

وربما كان عذر المنكرين لوجود القصة فى الادب العربى القديم ، أنهم نظروا الى ذلك الادب ، وفى ذهنهم القصة الحديثة بمعناها الفنى المعاصر ٠

وهذا أمر فيه كثير من الظلم ، فان القصة الفنية لم تعرف ـ سواء فى الآداب العربية أو فى الآداب الاوربية أو فى غيرها ـ الا فى ذلك العصر ٠

وقد قرر بروفسور **بالدوين** بعد استقصاء شامل مجهد للمائة قصة التى ألفها بوكاشيو (١٣١٣ ـ ١٣٧٥ م) فى الديكاميرون ـ قرر أن قصتين فقط من قصص هذه المجموعة هما اللتان حققتا معنى القصة القصيرة بالمفهوم النقدى الحديث (وهما القصة الثانية من اليوم الأول ، والقصة السادسة من اليوم السابع(٥٠) ٠

وحينما استحال الشاعر الصغير « والتر سكوت » قصاصا كبيرا ، خجل من عمله الجديد وكتب يقول :

« لم أنسب ويفرلى الى نفسى ، فلست على ثقة من أنه يليق بمن كان مثلى من رجال القانون أن يكتب القصص » فقد كان القصص يعد أيامه فرعا منبوذا من فروع دوحة الشعر ، اذ كان يمثل الابن البغيض فى الاسرة الادبية (٥١) ٠

وحين بشر السيد الاول للقصة الحديثة ـ كما تلقبه دائرة المعارف البريطانية ـ بنظريته عن الوحدة فى القصة القصيرة وذلك بصدد آرائه الشهيرة عن حكايات ناثانيال هاوثورن(١٨٤٢) لم تلق آراؤه آذانا صاغية الا بعد مرور أربعين عاما ، حين أصدر مقاله الشهير عن « فلسفة القصة القصيرة » وشبهها فيه بالمسرحية الفرنسية الكلاسيكية من حيث مراعاة الوحدات الثلاث ، اذ يجب أن تقتصر القصة القصيرة على بطل واحد ، وحادثة واحدة ، وانفعال واحد أو سلسلة من الانفعالات ترتبط بموقف واحد (٥٢) ٠

وهكذا لو نظرنا الى العرب نظرة تاريخية منصفة ، لا تتطلب منهم سبق الاحداث نجد أنهم لم يقصروا فى فن القصة ، فقد « زاول العرب جميع أنواع الادب فضلا عن الشعر ، فللعرب روايات فى المخاطر والحب والفروسية٠ وترى فى رواياتهم العربية ـ مع قلة اعتنائهم بنفسية الاشخاص ـ فوائد كبيرة لاشتمالها على ضروب المخاطر العجيبة ، فالعرب قد جملوا بخيالهم الساطع كل شىء لمسوه ٠٠ وهم الذين لا نظير لهم فى الفن ٠ والعرب هم الذين ابتدعوا روايات الفروسية ، قال سيديو : « كان خيال الشعراء يتجلى فى الروايات والاقاصيص فالحق أن أتباع محمد كانوا من أكبر المحدثين على الدوام، فكانوا يجتمعون مساء تحت خيامهم ليسمعوا بعض الاقاصيص العجيبة التى تتخللها الموسيقى والغناء » ٠

(للمقال بقية)

مراجع البحث

أولا – المراجع العربية

١ – أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها (حيدر آباد – الطبعة الاولى سنة ١٣٧٤ هـ)

٢ – الأدب المقارن للدكتور محمد غنيمى هلال (القاهرة – الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٢ – مكتبة الانجلو) .

٣ – الأدب الهادف للأستاذ محمود تيمور (القاهرة الطبعة الاولى سنة ١٩٥٩ – مكتبة الآداب بالجماميز) .

٤ – أعلام الفن القصصى لهنرى توماس ودانالى توماس ، ترجمة الدكتور عثمان نويه (القاهرة – سلسلة الالف كتاب «٤٨»)

٥ – الايضاح لمختصر تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى ، شرح محمد عبد المنعم خفاجى (القاهرة – مكتبة الحسين سنة ١٩٤٩)

٦ – بديع الزمان الهمزانى رائد القصة العربية والمقالة الصحفية للدكتور مصطفى الشكعه (القاهرة – مكتبة القاهرة الحديثة سنة ١٩٥٩) .

٧ – البيان والتبيين لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ)

٨ – تاريخ الادب العربى للاستاذ أحمد حسن الزيات (القاهرة – مطبعة الرسالة – الطبعة الحادية عشر) .

٩ – تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ، تعريب الدكتور عبد الحليم النجار (القاهرة مطبعة دار المعارف سنة ١٩٦١) .

١٠ – تاريخ الفلسفة فى الاسلام تأليف : ب.ج. دى بور وترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده (القاهرة – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٧ هـ) .

١١ – تراث الاسلام ، فصل « الادب » وضعه : هـ . ا . ر . جب وترجمة الدكتور عبد اللطيف محمود حمزه (القاهرة – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦)

١٢ – تزيين الاسواق بتفصيل أشواق العشاق للشيخ داود الانطاكى (القاهرة – مطبعة بولاق سنة ١٢٩١ هـ) .

١٣ – تفسير البيضاوى – (القاهرة – طبع صبيح سنة ١٣٦٦ هـ) .

١٤ – تفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربى (القاهرة – المطبعة الاميرية سنة ١٣٦٦ هـ)

١٥ – تفسير ابن كثير (القاهرة – مطبعة المنار سنة ١٣٤٣ هـ) .

١٦ – تفسير الطبرى (القاهرة – مطبعة دار المعارف سنة ١٩٥٨ م) .

١٧ – تفسير القاسمى (القاهرة – دار احياء الكتب العربية سنة ١٩٥٧) .

١٨ – توفيق الحكيم للدكتور اسماعيل أدهم والدكتور ابراهيم ناجى (القاهرة – دار سعد بالفجالة – سنة ١٩٤٥) .

١٩ – التيجان فى ملوك حمير عن وهب بن منبه ، رواية ابن هشام (حيدر آباد – الطبعة الاولى

٢٠ – ثورة الادب للدكتور محمد حسين هيكل – (القاهرة – مطبعة السياسة سنة ١٩٣٣ م)

٢١ – حديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحى – (القاهرة – دار المعارف – الطبعة السابعة)

٢٢ – حضارة العرب للدكتور غوستاف لوبون وترجمة الاستاذ عادل زعيتر (القاهرة – الطبعة الثانية سنة ١٩٤٨ م) .

٢٣ – الحياة العربية من الشعر الجاهلى (القاهرة – الطبعة الثانية سنة ١٩٦٠ م) .

٢٤ – الحيوان لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون (القاهرة– مطبعة الحلبى – الطبعة الاولى سنة ١٣٦٣ م)

٢٥ – رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، تلخيص كامل الكيلانى (القاهرة – الطبعة الاولى سنة ١٩٤٢ م) .

٢٦ ـ زهرة العمر لتوفيق الحكيم (القاهرة ـ كتاب الهلال ـ العدد ٤٧) ٠

٢٧ ـ سيرة النبى لابن هشام ، تحقيق محمدمحيى الدين عبد الحميد (القاهرة ـ مطبعة حجازى سنة ١٣٥٦ هـ) ٠

٢٨ ـ الشاعر أو سيرانو دى برجراك تعريب المنفلوطى (القاهرة ـ مطبعة الاستقامة ـ الطبعة الثامنة سنة ١٣٦٩ هـ) ٠

٢٩ ـ طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى (القاهرة ـ مطبعة صبيح ـ د٠ت) ٠

٣٠ ـ فجر الاسلام للدكتور أحمد أمين(القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الثانية) ٠

٣١ ـ الفصول للاستاذ العقاد (القاهرة ـ مطبعة السعادة سنة ١٩٢٢) ٠

٣٢ ـ فن القصص للأستاذ محمود تيمور (القاهرة ـ مطبعة دار الهلال ـ الطبعة الثانية) ٠

٣٣ ـ الفن القصصى فى ألادب العربى الحديث للدكتور محمود حامد شوكت (القاهرة ـ الطبعة الاولى سنة ١٩٦٣ م) ٠

٣٤ ـ الفن ومذاهبه فى النثر العربى للدكتور شوقى ضيف (القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦ م)

٣٥ ـ فى طريق الميثولوجيا عند العرب للاستاذ محمود سليم الحوت (بيروت سنة ١٩٥٥ م)

٣٦ ـ القرآن الكريم ٠

٣٧ ـ القصة القصيرة فى الادب الشامى الحديث للاستاذ نعيم حسن اليافى (رسالة ماجستير نوقشت بجامعة القاهرة سنة ١٩٦٤ ـ لم تطبع بعد) ٠

٣٨ ـ قصص الانبياء لأبى الحسن محمد عبد الله الكسائى ٠

٣٩ ـ قصص الحيوان فى الادب العربى للدكتور عبد الرازق حميده (القاهرة ـ مكتبة الانجلو سنة ١٩٥١) ٠

٤٠ ـ قصص العرب للاساتذة محمد أحمد جادالمولى وزميليه (القاهرة ـ مطبعة الحلبى ـ الطبعة الثالثة سنة ١٣٧٥ هـ) ٠

٤١ ـ قصص العشاق النثرية تأليف : عبد الحميد ابراهيم محمد (رسالة ماجستير نوقشت بجامعة القاهرة سنة ١٩٦٥ ـ لم تطبع بعد) ٠

٤٢ ـ قصص من الكتب المقدسة للاستاذ عبد الحميد جوده السحار (القاهرة ـ الكتاب الماسى ـ العدد ٥٧) ٠

٤٣ ـ ما هو الجنس ، تعريب الدكتور يوسف أبو الحجاج (القاهرة ـ الالف كتاب ـ العدد ٥٥) ٠

٤٤ ـ مجمع الامثال للنيسابورى (القاهرة ـ مطبعة بولاق سنة ١٢٧٤ هـ) ٠

٤٥ ـ المختار للاستاذ عبدالعزيز البشرى (القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٤ هـ) ٠

٤٦ ـ مروج الذهب فى معادن الجوهر للمسعودى (القاهرة ـ المطبعة البهية سنة ١٣٤٦ هـ)

٤٧ ـ مصارع العشاق لابن السراج ـ القاهرة ـ مطبعة التقدم سنة ١٩٠٧ م) ٠

٤٨ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (القاهرة ـ كتاب الشعب العدد ٣٦) ٠

٤٩ ـ المقامة للدكتور شوقى ضيف (القاهرة ـ دار المعارف سنة ١٩٥٧ م) ٠

ثانيا ـ الدوريات

٥٠ ـ مجلة الرسالة ، مقال (القصة عند العرب) لعبد الحميد ابراهيم محمد (١٧ شعبان سنة ١٣٨٣ هـ) ٠

٥١ ـ مجلة المجلة ، مقال القصة العربية القديمة) لعبد الحميد ابراهيم محمد ٠ (نوفمبر سنة ١٩٦٤ م) ٠

٥٢ ـ مجلة المتقطف ، مقال (القصص فى الادب العربى) للدكتور أحمد ضيف ٠ (فبراير سنة ١٩٣٥) ٠

روبرت أوبنهايمر

أو ضمير العلم فى العصر الذرى

بقلم : محمد العزب موسى

١

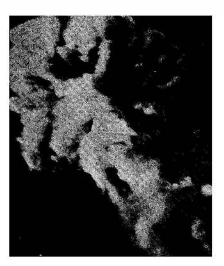
فى التاسع عشر من شـهر فبراير ١٩٦٧ توقف الى الأبد قلب العـالم الذرى الأمريكى الألمانى الأصـل دكتـور روبرت جوليوس أوبنهايمر عن ٦٢ عاما بعد أن ترك بصمات لا تمحى فى صفحة عصرنا الحديث .

كان أينشتاين يقول عن أوبنهايمر انه ابنى البكر وهو رجل يسبق زمانه بعشرين عاما على الأقل ، ولكن أوبنهايمر ليس فى حاجة الى شهادة بنبوغه ، يكفيه أنه الرجل الذى صنع أول قنبلة ذرية فى تـاريخ البشر ، ليثبت بثمن آلام ألوف الأبريـاء فى هيروشـيما وناجازاكى أن الذرة تتفتت ، وأن المادة تتحول الى طاقة ، طاقة عارمة جبارة لا يمكن التحكم فيها اذا أطلقت بدون هدف ، بل تظل تتعقب الانسان فى نسله وتذيقه عظائم الشرور .

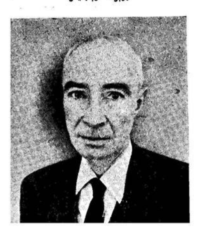
وكان من الممكن أن يظل اسـم أوبنهايمر شيئا كريها يستدر لعنات الأجيال المتعاقبة ، وتظل صـورته رمزا لعبقرية شريرة فتحت أبواب الجحيم على البشر ، وما كانت البشرية لتحفل بتمجيده ، لو كان دوره قد اقتصر على اختراع ذلك السلاح الرهيب ، ولكن أوبنهايمر استطاع أن يكفر عن هذا الدور ، فقد عاش بقية حياته يكافح الخطر الذرى ويناضل من أجل السلام .

ومن المؤلم أن أوبنهـايمر عندما كان أبا للدمار فى منتصف الاربعينات كان الثنـاء والتقدير ينهالان عليه من كل جانب ، فمنحه الرئيس الامريكى « ترومان » وسام الخدمة الممتازة ، وأصدرت وزارة الخارجية الأمريكية بيانا رسميا أعلنت فيه أن عبقرية أوبنهايمر كانت من العوامل الأسـاسية التى أدت الى احراز النصر النهائى فى الحرب العالمية الثانية ، وأسندت اليه أخطر المناصب والمسـئوليات وكانت أنباؤه فى الصحف تطغى على أنبـاء منظمة الأمم المتحدة الوليدة حتى اضطر الى تعيين سـكرتير خاص يتـولى جمع ما تكتبه الصحف عنه !

وعندما وقف أوبنهايمر وقفته الى جـانب السلام انقلبت الآية ، فأقيمت فى وجهـه العقبات ، وجرد من أمجاده ومآثره ، واعتبر خطرا على الأمن ، ثم اتهم بالخيانة والجاسوسية والشيوعية وقدم الى المحاكمة !



روبرت أوبنهايمر



كان ذلك بعد ثماني سنوات فحسب من انتهاء الحرب وأوبنهايمر عندئذ في قمة مجده العلمي والاجتماعي ، وكان جنون « المكارثية » يجتاح الولايات المتحدة ، والاتهامات تنهال على صفوة العلماء والمفكرين والفنانين ، وحبس الناس أنفاسهم وهم يشهدون محنة العالم الكبير الذى يحاكم من أجل أفكاره ومبادئه كما لو كانت الأحداث تجرى فى القرون الوسطى أمام احدى محاكم التفتيش وليس فى الولايات المتحدة التى تفاخر بأنها قلعة الحرية والديموقراطية فى القرن العشرين .

وانتهت المحاكمة بادانة أوبنهايمر بأنه خطر على الأمن ، وأمر الرئيس أيزنهاور « باسدال ستار كثيف بين أوبنهايمر والاسرار الذرية » ، وعندما نشرت مضابط المحاكمة استغرقت ألف صفحة بالبنط الصغير ، أى أنها فى حجم الأعمال الكاملة المشروحة لشكسبير ، أو فى حجم الانجيل بعهديه القديم والجديد ، وسوف تظل هذه المضابط دائما من أهم وثائق هذا القرن ، لأنها تدور حل قضية من أخطر قضايا العصر .. وظيفة العلم وضمير العلماء .

٢

ولد روبرت أوبنهايمر فى ٢٢ ابريل ١٩٠٤ وكان أبوه جولياس أوبنهايمر مهاجرا ألمانيا اشتغل فى الأعمال التجارية وأحرز بعض الثراء فى نيويورك مما أتاح للأسرة حياة مستقرة .

ومنذ حداثته كان روبرت معجزة حقيقية فى ميدان العلم ، ففى الحادية عشرة من عمره أصبح عضوا فى جمعية أبحاث المعادن بنيويورك بعد أن قدم اليها بحثه العلمى الاول ، وكان أصغر الاعضاء بعده ، وفى الحلقة الخامسة من عمره !

ودرس روبرت الطبيعية والكيمياء فى جامعة هارفارد ، وحصل على درجة Summa Cun laude بعد ثلاث سنوات ، ثم اكمل دراسته العليا فى جامعة كمبردج بانجلترا ، ثم جامعة جوتنجن بألمانيا ، وكانت هاتان الجامعتان أكبر مركز للدراسات الذرية فى ذلك الوقت ، وفى عام ١٩٢٧ ،

وكان فى الثالثة والعشرين حصل على درجة الدكتوراه من جامعة جوتنجن ، وأقام عامين آخرين فى ألمانيا يواصل بعض الأبحاث مع العالم الكبير ماكس بورن ٠

وفى عام ١٩٢٩ شعر بالحنين لوطنه ، فعاد الى الولايات المتحدة حيث عين أستاذا للطبيعة بجامعة كاليفورنيا ، وعكف فى نفس الوقت على تأسيس أول معهد أمريكى متخصص فى الطبيعة الذرية فى بيركلى ، ومعهد آخر للتكنولوجيا الطبيعية فى باسادينا ٠

كان ما يشغله بصفة خاصة فى أوائل الثلاثينات ظاهرة الاشعاع الكونى ، وخواص الألكترونات ، والتباين بين الطاقات العالية فى النظرية الكمية ، وكان يهتم بالأساسيات فى علم الطبيعة ، ويحرص على نقل هذا الاهتمام الى طلبته، فلم يكن يقدم لهم الاجابات الجاهزة البسيطة ، وانما يدربهم على معالجة أعمق المشكلات حتى لو لم يستطيعوا أن يجدوا لها حلا ، فالعلم فى نظره يجب أن يثير من الأسئلة أكثر مما يقدم من الأجوبة ، ومعظم طلبة أوبنهايمر فى تلك الفترة أصبحوا فيما بعد من أبرز العلماء الأمريكيين ٠

والواقع أن أوبنهايمر لم يكن عقلية فذة فى ميدان العلم فحسب بل كان مثقفا متعدد الجوانب ، فهو مولع بالفلسفة والشعر والرسم والموسيقى ، وكان يجيد ثمانى لغات منها ثلاث لغات كلاسيكية هى الاغريقية واللاتينية والسنسكريتية ، وشغف بصفة خاصة بدراسة الفلسفة الهندية فى مصادرها الأولية ،وقرأ أفلاطون وهوميروس وسوفكليس بلغتهم الأصلية ، وكان يتمتع بقدرة نادرة على القراءة السريعة المثمرة ، ويقال انه استطاع أن يقرأ كتاب « جيبون » الضخم عن سقوط الامبراطورية الرومانية فى رحلة استغرقت ساعات قليلة بالقطار السريع من سان فرنسسكو الى نيويورك ٠

هذا الاهتمام العميق ، بالعلم والثقافة لم يترك لاوبنهايمر منذ الصغر فرصة للمشاركة فى الحياة العامة أو حتى مجرد تتبع أنبائها ، فكان يلزم حجرته أياما وأسابيع لا يغادرها الا لماما عاكفا على الدراسة والتحصيل غير مشارك البتة فى الاهتمامات العامة ، فلم يكن يقرأ الصحف ، أو يستمع الى الاذاعة أو يشاهد السينما والمسرح ، وهو يذكر أنه لم يسمع عن أزمة الكساد فى الثلاثينات الا بعد وقوعها بعدة أسابيع ، ولم يستعمل حقه الانتخابى قبل عام ١٩٣٦ ، وقد لازمه هذا التخلف حتى بعد أن عاد من أوربا وأصبح أستاذا يلتف حوله طلبة كثيرون ، ولكنه فجأة وجد نفسه فى خضم مشاكل السياسة والاقتصاد ،ويرجع ذلك الى عاملين ، هما : أزمة الكساد الكبير التى أرغمت عددا من أذكى تلاميذه على التوقف عن الدراسة بسبب عجزهم المالى وقيام الحكم النازى فى ألمانيا واضطهاده للعلماء والمثقفين والأقليات٠ وقتها أدرك أوبنهايمر ــ كما قال فيما بعد ــ « الى أى حد يمكن أن تؤثر السياسة والاقتصاد فى حياة الناس » ٠

وعكف العالم الشاب على سد هذا النقص الخطير فى وعيه الاجتماعى ، فقرأ كثيرا فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، وبدأ يهتم بمجريات الأمور ، ويشارك فى مناقشات زملائه ، وكان الاتجاه الفكرى العام للمثقفين الأمريكيين فى تلك الفترة يميل نحو اليسار، بعد أن أفصح هتلر عن نواياه وأطماعه التوسعية فى أوربا والعالم ، وكان الاتحاد السوفيتى أول من فطن الى الخطر النازى وطالب بالقضاء عليه قبل أن يستفحل ، وكان المندوب السوفيتى فى عصبة الأمم بجنيف لا يمل من الوقوف ساعات طويلة يقرأ مقتبسات من «كفاحى» ٠ أما الدول الرأسمالية الغربية فقد وقفت من الفاشية موقفا متخاذلا يتذبذب بين المسالمة المهينة من جانب رئيس وزراء بريطانيا تشمبرلين ، وبين الخيانة الصريحة كما حدث فى ميونيخ ٠

فى هذا المناخ العام كان المثقفون فى أوربا وأمريكا يؤيدون التعاون مع الاتحاد السوفيتى، ولايخفون عطفهم وتقديرهم للماركسية، وسادت بين صفوفهم حركة الجبهة الشعبية ، بل وقامت حكومة جبهة شعبية فى فرنسا تضم مختلف

فئات اليسار . والى هذا المناخ العام خرج أوبنهايمر فجأة من عزلته ، فاختلط بأوساط اليسار فى دائرة العلماء ، وأبدى عطفه على بعض الأهداف اليسارية ، بل وشارك فى بعض أوجه النشاط اليسارى كالتبرع للجمهوريين فى أسبانيا ، وانضم أخوه الأصغر - « فرانك » - وزوجه الى الحزب الشيوعى الأمريكى فترة قصيرة ، أما أوبنهايمر فلم ينضم للحزب الشيوعى فى أى وقت ، ولكنه تزوج عام ١٩٤٠ من أرملة كانت من قبل زوجا لأحد أعضاء الحزب وقتل وهو يحارب الى جانب الجمهوريين فى أسبانيا ، وانتمت هى نفسها الى الحزب فترة وجيزة ثم تخلت عن ايمانها بالشيوعية .

والواقع أن أوبنهايمر أيضا وكثيرا من المثقفين اليساريين فى الغرب كانوا قد بدأوا يفقدون حماستهم للشيوعية ، بعد أنباء حملة التطهيرات الكبرى التى أجراها « ستالين » ثم سرعان ما جاءت أنباء ميثاق عدم الاعتداء بين هتلر وستالين ، وغزو السوفيت لفنلندا وضمهم جمهوريات لاتفيا واستونيا وليتوانيا ، فأدت هذه التطورات الى الاساءة لسمعة الاتحاد السوفيتى وفقدانه الكثيرين من أنصاره .

وما أن حل عام ١٩٤١ حتى كان أوبنهايمر قد تخلى عن كل ارتباطاته اليسارية ، ولكنه لم يقطع علاقته نهائيا بأصدقائه القدامى ، والواقع أن ولاء أوبنهايمر كان دائما للولايات المتحدة ، ولكنه كان يأخذ « فضائلها » كشىء مسلم به ، ويرى أن عليه تصحيح أخطاءها .

ولم يلبث أن حدث تطور هام غير مصير أوبنهايمر ، اذ دعته وزارة الدفاع الامريكية الى العمل فى أبحاث الاسلحة الذرية .



فى عام ١٩٤٠ بدأ الرئيس روزفلت يجند العلماء البارزين للعمل فى مشروعات التسلح ، ومن بينها مشروع هام يحاط بسرية بالغة اعتمد له مليونا دلار ، وعرف بمشروع مانهاتان لصنع القنبلة الذرية ، وعين دكتور « آرثر كومبتون » أستاذ الطبيعة بجامعة شيكاغو والحاصل على جائزة نوبل على رأس لجنة خاصة لدراسة امكانيات واحتمالات انتاج الأسلحة الذرية . وانتهت أبحاث كومبتون الى أن القنبلة الذرية ممكنة الصنع ، وكلف دكتور روبرت أوبنهايمر بالاشراف على تنفيذ المشروع .

وكان نجاح انريكو فيرمى فى احداث أول سلسلةمن الانشطار الذرى لايزالطى المستقبل ورغم أن نظرية تفتيت الذرة كانت قد فهمت فان المعضلة كانت فى التنفيذ وأقدم أوبنهايمر على مهمته الخطيرة باقتناع ونشاط بالغين فقد كانت جحافل النازية تدك معالم الحضارة والانسانية ، وكان يعتقد أن السلاح الجديد سيضع حدا للحرب بكل أهوالها .

وانتهت الدراسات الأولية التى أجراها أوبنهايمر مع نخبة من أبرز العلماء الى وجوب تجميع العمل فى الأبحاث الذرية فى مركز واحد ، واختار لوس آلاموس مكانا للعمل ، وكان يعرف صحراء لوس آلاموس جيدا اذ تعود أن يقضى فيها كثيرا من عطلاته ، وفى خريف ١٩٤٣ تم انشاء معامل لوس آلاموس الجبارة ، وكلفت رسميا وفى سرية بالغة بصنع القنبلة الذرية .

وفرض على المشروع منذ بدايته تدابير خياليه من السرية حتى لا تتسرب أسراره الى أحد من الأعداء أو الحلفاء على حد سواء ، فكانت معامل لوس آلاموس عبارة عن مستعمرة ضخمة يقيم فيها مئات العلماء والفنيين والعسكريين مع زوجاتهم وأبنائهم ، ويسير العمل داخلها حسب نظام صارم دقيق يشرف عليه فنيا روبرت أوبنهايمر واداريا أحد الجنرالات العسكريين ، واعتبر المكان منطقة عسكرية لا يجوز الاقتراب منها ، وضرب حوله نطاقان من الأسوار الشائكة ، لا يمكن لأحد أن يجتازها الا باذن من سلطات عليا ، وفرضت رقابة مشددة على المكالمات التليفونية والخطابات التى ترد الى العلماء والمشتغلين فى المشروع ، ولكن أوبنهايمر وعددا قليلا آخر لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة كانوا يستطيعون الخروج بدون اذن فى أية لحظة .

كان أوبنهايمر قلب المشروع وروحه ، فهو

الذى قام بنفسه باختيار وتكليف معظم العلماء الذين يعملون فى المشروع ومنهم عدد من أكبر علماء الطبيعة الذرية أمثال انريكو فيرمى وادوارد تيللر ، وكان هو قائد العمل الذى يفهم بدقة تامة كافة المراحل الفنية المعقدة للمشروع ابتداء من مشكلات الطبيعة النظرية الى التفجيرات ذات القوة الهائلة ، ومن فحص المواد المشعة الى الكيمياء التحليلية للعناصر الدقيقة ، ولكن المعضلة الكبرى التى كانت تواجهه هى أن الوقت لم يكن يسمح بتجربة الكثير من النظريات والقيام بكثير من المحاولات ، فان ظروف الحرب تحتم سلوك أقصر الطرق وأكثرها وفرا للمال، فليس ثمة مجال لتبديد الوقت أو الجهد أو المال ، وكان معظم المشتركين فى المشروع يعتقدون أول الأمر أن الغرض من معامل لوس آلاموس هو الاهتمام بأبحاث الطبيعة النظرية ، ولكنهم لم يلبثوا أن عرفوا المهمة الحقيقية التى يقدمون عليها والتى تتلخص فى حشو المادة الانشطارية داخل القنبلة بدقة وسرعة كافيتين ، والا فان أى نيترون شارد قد يؤدى الى سلسلة من التفاعلات قبل انتهاء مرحلة الحشو تتلف أو تقلل من الجهد الذرى للقنبلة .

وقسم أوبنهايمر القوة العاملة فى المشروع وقوامها مئات العلماء وآلاف العمال الفنيين الى ادارات وفروع ، يختص كل منها بجانب من جوانب البحث أو التطبيق ، ويتولى هو بنفسه التنسيق بين أعمالها ، واعطاء اشارات البدء والانتهاء فى العمل ، كأنه قائد أوركسترا جبار يعزف لحن انتصار الانسان على سر من أكثر أسرار الطبيعة غموضا .

وأخيرا .. بعد عامين من الجهد الشاق المتواصل ، وبعد أن فقد أوبنهايمر - رغم نحافته - ٣٠ رطلا من وزنه ، تكلل المشروع بالنجاح وأنتجت معامل لوس آلاموس أول القنابل الذرية فى تاريخ البشر .

وظل أوبنهايمر يذكر جيدا حتى نهاية حياته تلك اللحظة الحاسمة التى وقف يشرف فيها على أول تجربة ذرية فى منطقة «الماجوردو» بصحراء نيوميكسيكو فى صباح ١٦ يوليو ١٩٤٥ ، فعندما حدث الانفجار وسطع البريق الباهر على حافة الأفق ، قفزت فى ذهنه عبارة من « البهاجافارا - جيتا » كتاب الهندوس المقدس تقول « اذا سطع فى السماء لألاء ألف شمس فان ذلك قد يشبه جلال الله » .

لقد كانت لحظة بالغة العمق تركزت فيها آباد الدهور .. لحظة النصر العظيم للانسان لغز الطبيعة على أكبر أسرار الطبيعة ، لقد تحقق الحلم وانطلق المارد من القمقم .

وعندما شرع أوبنهايمر فى الانصراف بعد التجربة ، قفزت فى ذهنه عبارة أخرى من الكتاب الهندوسى المقدس تقول :

« لقد أصبحت أنا الموت مدمر العوالم » .



لم تكد تمضى ثلاثة أسابيع على تجربة نيومكسيكو حتى فوجىء العالم بنبأ القاء أول قنبلة ذرية على مدينة هيروشيما اليابانية فى صباح ٦ أغسطس ١٩٤٥ .

كانت المدينة اليابانية تستقبل يوما عاديا من أيام الحرب والعمل ، بعد أن انتهت للتو احدى الغارات الجوية المعتادة، وأطلقت صفارات الأمان ، وبدأ التلاميذ والعمال يذهبون الى مدارسهم وأشغالهم ، وفجأة تسللت طائرة أمريكية واحدة حلقت فى سماء المدينة وألقت شيئا .

وفى دقائق معدودات فقد ٨٠ الف شخص أرواحهم ، وأصيب عدد مماثل بحروق خطيرة وانطلقت عاصفة من النار تعربد فى أجواء المدينة لتحرق كل شىء فى مساحة قدرها أربعة أميال ونصف ميل مربع ، وتدمر ٦٢ ألف منزل أو ٦٩٪ من منازل هيروشيما .

لم يكن ذلك هو أكبر دمار تشهده الحرب العالمية الثانية ، فقد شهدت طوكيو قبل ذلك غارات جوية مروعة أدى بعضها الى قتل ١٢٥

الف شخص دفعة واحدة ، وفى أوربا محت القنابل المعروفة ٧٠ مدينة على الأقل من الوجود ، ولكن ذلك تطلب آلاف الطائرات التى تحمل ملايين الأطنان من القنابل شهورا وسنوات متوالية ، أما الآن فها هى قنبلة واحدة تدمر مدينة يسكنها ٣٠٠ الف شخص فى لحظات ٠

وبعد يومين تكررت المأساة فى ناجازاكى ، وسلمت اليابان ٠

وعندما وصلت أنباء هيروشيما وناجازاكى الى الولايات المتحدة انتشى السياسيون والعسكريون طربا ، فها هم يملكون سلاحا خرافيا أقوى من السحر الأسود نفسه ؛ أما الشعب الأمريكى فكان له رأى آخر ٠ ويصف الكاتب المسرحى برتولد بريخت ، وكان عندئذ لاجئا فى الولايات المتحدة ، وقع هذه الأنباء فيقول :

« ان اليوم الذى ألقيت فيه القنبلة لن يستطيع أن ينساه كل من شهده فى الولايات المتحدة ٠ كانت الحرب مع اليابان هى التى كلفت أمريكا تضحياتها الحقيقية ، كان الجنود ينقلون من الشاطئ الغربى ثم يعودون اليه جرحى أو صرعى الأمراض الآسيوية ، وعندما وصلت الأنباء الأولى الى لوس انجيلوس عرف الناس ان هذه هى نهاية تلك الحرب البغيضة ، وأن الأبناء والأشقاء سوف يعودون ، ولكن المدينة الكبيرة كان يغللها الأسى ، وقد سمعت بنفسى سائقى الأوتوبيسات والبائعات فى أسواق الفاكهة لا يعربون عن شئ سوى الرعب والفزع ، لقد كان نصرا ولكنه ينطوى على هزيمة مريرة » ٠

من ملاحظات على مسرحية « حياة جاليليو »٠

لقد شعر الناس انهم يقفون على باب عصر رهيب لا يعرفون عنه شيئا ، والواقع أن أى طالب فى مرحلة الدراسة الثانوية الآن يعرف عن العصر الذرى أضعاف ما كان يعرفه الزعماء الامريكيون أنفسهم عند مولد القنبلة الذرية ٠ ويقال ان « ترومان » نفسه لم يكن يعلم شيئا عن القنبلة الذرية حتى تولى الرئاسة



بالفعل بعد موت روزفلت ، والآن بعد أن دمر هذا السلاح الرهيب هيروشيما وناجازاكي كان على الكونجرس أن يقرر مستقبل سياسة الطاقة الذرية ، وكان على المسئولين أن يقوموا بحملة توعية واسعة النطاق ليعلموا المواطنين الكثير مما يجب أن يعرفوه عن ذلك التطور الخطير الذى اقتحم الحياة الامريكية ، ودعى العلماء بالطبع للقيام بهذا الدور ، فمن غيرهم يستطيع ذلك وهم سدنة هذا الاله الجديد الجبار ؟

وهكذا وجد العلماء أنفسهم أمام مسئولية كبرى هى أن ينوروا رئيس الجمهورية ، والكونجرس ، والرأى العام بحقائق العصر الذرى ، فماذا كان موقفهم ؟

اتخذ معظم العلماء الأمريكيين موقف التحذير وكونوا فيما بينهم رابطة قانونية باسم « رابطة علماء لوس آلاموس » نصت فى مادتها الأولى على أن « هدف هذه المنظمة الدعوة الى استخدام التقدم العلمى والتكنولوجى فى صالح البشرية ، اذ أننا ندرك أن العلماء بحكم خبرتهم الخاصة يحملون مسئوليات سياسية واجتماعية علاوة على مسئولياتهم كمواطنين أفراد وتهدف هذه المنظمة الى تزويد أعضائها بالمعلومات وتوصيل آرائهم الى المسئولين والرأى العام » .

وكانت هذه الرابطة تضم أكثر من ٥٠٠ عالم أخذتهم روح الفروسية فأصروا على ألا يكون للرابطة أى هدف اقتصادى ، أى لا تسعى لنفع أعضائها الخاص ، حتى يكون نشاطها فوق كل الشبهات ، وحتى تكرس كل جهودها لرسالتها النبيلة وحدها ، وهى الدعوة لاستخدام الطاقة الذرية فى الأغراض السلمية ووضعها تحت رقابة دولية ، ومعارضة استخدامها فى الأغراض العسكرية .

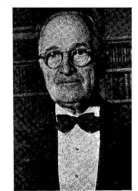
وكان الرأى السائد لدى العلماء وقتئذ أن الأسلحة الذرية سوف تتطور وتزداد خطرا وتدميرا ، وأن دولا أخرى سوف تتمكن من صنع القنبلة الذرية خلال سنوات قليلة دون الاعتماد على الجاسوسية ، فان سر تفتيت الذرة لم يعد مجهولا أو مستعصيا على الجهد العلمى ، ولذلك فان من الخطر الشديد المغامرة بسباق مجهول العواقب فى التسلح الذرى ، ومن الواجب وضع الطاقة الذرية تحت رقابة دولية وأن تتعاون الدول الكبرى فى العالم ولنقل انها الدول الخمس الدائمة فى مجلس الأمن وهى : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى ، والمملكة المتحدة ، وفرنسا ، والصين ، لا من أجل التعايش فيما بينها فحسب وانما فى سبيل ارساء أسس قوية للسلام العالمى .

واتجهت الرابطة بنداءاتها أولا الى رئيس الجمهورية ثم الى الكونجرس باعتباره ممثلا للسلطة الشعبية العليا ثم الى الرأى العام ، ولكن للأسف فوجئت الرابطة بالفتور والصد من جانب المسئولين من سياسيين وعسكريين، فقد كانت هناك رغبة محمومة فى التفوق العسكرى ، وبرزت فكرة « المصلحة القومية» لتطغى على كل الاعتبارات الآخرى ، تلك المصلحة التى فسرتها الاحداث التالية بأنها الرغبة فى فرض السيطرة الامريكية على العالم .

كان أوبنهايمر عندئذ من أكبر الشخصيات المرموقة فى الولايات المتحدة والمستشار الاعلى لكافة ما يتعلق بشئون التسلح ، وقد برز فى تلك الفترة بأفكاره السلامية ، فأسهم فى وضع البيان العام لرابطة علماء لوس آلاموس ، ولكنه نصح زملاءه بالصبر والتريث وعدم نشر بيانهم على الجمهور رأسا حتى لا تحرج الحكومة ، وتعتبر ذلك دليلا على عدم الثقة بها، وكان أوبنهايمر شديد التفاؤل فى حسن نية الحكومة واستعدادها لاجابة مطالب العلماء اذا وقفت على الحقائق الاساسية التى لا يعرفها غيرهم .

كان ذلك فى خريف ١٩٤٥ عقب انتهاء الحرب مباشرة ، وأصبح العلماء والرأى العام على السواء ينتظرون تصريحا من الرئيس ترومان يجلو الموقف .

وأخيرا جاءت رسالة ترومان الى الكونجرس مخيبة لآمال العلماء ، فقد ركز فيها على



ترومان





مكارثى



تيللر

انشاء وكالة وطنية للاشراف على الطاقة الذرية ، وتجاهل تماما مسألة الرقابة الدولية بل أعلن صراحة أن منظمة الأمم المتحدة غير مهيأة بعد لمعالجة هذه المشكلة .

وردت رابطة علماء لوس آلاموس على رسالة الرئيس ترومان الى الكونجرس مؤكدة أن الأبحاث الجارية فى الدول الأخرى سوف تقضى عاجلا على احتكار الولايات المتحدة للقنبلة الذرية ، وعندئذ سوف تتمكن تلك الدول قبل مضى وقت طويل من صنع قنابل أقوى عشرات بل مئات وآلاف المرات من قنبلة هيروشيما ، وطالبت الرابطة بنظرة جديدة الى فكرة التعاون الدولى حتى لو تطلب الأمر تعديل مفهوم السيادة الوطنية .

وفى عيد البحرية فى ٢٧ أكتوبر ١٩٤٥ ألقى ترومان خطابا آخر فى جمع غفير يضم حوالى مليون شخص ـ وهو أكبر حشد من نوعه فى تاريخ أمريكا ـ أكد فيه موقفه السابق وأعلن صراحة « أن القنبلة الذرية لن تغير من السياسة الخارجية للولايات المتحدة » . وبدلا من الرقابة الدولية اكتفى ترومان بقوله « اننا نعد وجود هذه القوة التدميرية الجبارة فى أيدينا ثقة مقدسة لأننا نحب السلام ، وجميع ذوى الالباب فى العالم يشعرون أن هذه الثقة لن تنتهك » !

ولم تسكت رابطة علماء لوس آلاموس ، فنشرت فى ٩ نوفمبر ١٩٤٥ بيانا جديدا شرحت فيه مبادئها مرة أخرى ، وحثت على قبول فكرة الرقابة الدولية وناشدت المنظمات العلمية والسياسية الاخرى مشاركتها جهودها لتحقيق هذه الفكرة ، وهاجمت العزلة الوطنية والشك ، وعدم الثقة الدولية ، وقيود الامن والسرية ، المفروضة على العاملين فى صناعة الأسلحة الذرية .

وأخذت الهوة تتسع بين العلماء والدولة .

٥ـ

كان أوبنهايمر من أكثر العلماء تحمسا لفكرة ربط العلم بالمجتمع ، وجعله وسيلة لرفاهية المجموع ، وكان يفتأ يردد أن السر ليس سرا على الاطلاق ولا يمكن لأحد أن يحتكر لنفسه أسرار الطبيعة .

وفى عام ١٩٤٧ عين أوبنهايمر مديرا لمعهد الدراسات المتقدمة فى برنستون الى جانب منصبه كرئيس اللجنة الاستشارية لوكالة الطاقة الذرية الامريكية ، وكان المعهد يضم ١٨٠ عالما من كبار علماء أوربا وأمريكا فى شتى العلوم والفنون ، ومن أعضائه ألبرت أينشتاين ، وأرنولد توينبى ، و ت . س . اليوت ، وغيرهم من الأعلام ، وفى هذا الوسط الفكرى الرفيع تفتحت شخصية أوبنهايمر

الانسان العالم والمفكر ، فكان يناقش زملاءه فى هدف الكون ومعنى الحياة وفلسفة الحضارة، وآمن أوبنهايمر بأن ثمار العقل والفكر يجب أن توضع فى خدمة الانسان ، وأن تسخر لبناء مجتمع عالمى جديد يقوم على أساس السلام والتعاون بين الدول والشعوب .

وتوقف أوبنهايمر طويلا عند واجب العلماء فى هذا المجتمع العالمى الجديد لقد انتهت الحرب وآن للعلماء أن يتحرروا من عبوديتها ، ويطلقوا لعبقرياتهم العقال ، فان من الخطأ البين الظن بأن للحرب فضلا على العلم ، وانها تؤدى الى تنشيطه وتقدمه، فان جوهر التقدم الذى يحرزه العلم أثناء الحرب يقتصر على ناحية التكنولوجيا والتطبيق ، فهو تقدم صناعى أكثر منه تقدما علميا ، وقد أوجدت الحرب عشرات من العلماء الذين يجيدون استخدام الطاقة الذرية والسيطرة عليها ولكنهم لا يدركون شيئا عن طبيعة هذه الطاقة فلم يتوصلوا الى أى اكتشاف أساسى يفيد فى تطوير نظرة الانسان الى الكون .

ومضى أوبنهايمر يفكر .. ان وظيفة العلم هى تصحيح نظرة الانسان الى الكون واكتشاف المزيد من قوانين الطبيعة، لقد كان من المعتقد حتى عهد قريب أن الذرة جوهر فرد لا يتفتت ولكن هاهى قد انقسمت واتضح أنها كون شاسع مجهول شديد التعقيد ، فمم يتكون هذا الكون ؟ وهل ما يحويه من بروتونات والكترونات ونويات هى وحدات أساسية نهائية أم أن فى الامكان تحليلها أيضا كمركبات معقدة ؟ وما هى القوانين التى تحكم حركة هذه الوحدات وتركيبها وانهيارها ؟ لقد أمكن تحليل المادة الى طاقة أو اشعة ، ولكن ما هو سر المادة ؟ وما العلاقة بينها وبين الخلية الحية ؟ وهل هناك رابطة ما بين وحدات الذرة المتناهية الصغر ووحدات الكون المتناهية الكبر ؟

كانت هذه الاسئلة ونظائرها تشغل بال أوبنهايمر منذ شبابه ولكنه اضطر الى تأجيلها طوال فترة الحرب لانشغاله بصنع القنبلة الذرية ، التى تعد على خطورتها تطبيقا صناعيا لابسط القوانين الذرية التى اكتشفها العقل البشرى وهو لا يزال على شاطىء المحيط المجهول الذى يستعد لاقتحامه .

وظن أوبنهايمر أن انتهاء الحرب قد أعاد اليه حريته العلمية ، فواصل نشر ابحاثه التى أوفت على السبعين ، وكلها محاولات جريئه لصياغة نظرة جديدة للكون ، وتوصل بالفعل الى اكتشاف خمس عشرة وحدة مطلقة تتكون منها جميع العناصر المادية ، وأحدث نشاط أوبنهايمر فعل السحر بين علماء أمريكا وأوربا فأخذوا يتجهون الى البحث العلمى السلمى فى سباق عظيم لاجتلاء غوامض الكون .

وكان من الطبيعى أن يصطدم أوبنهايمر بالزعماء العسكريين والسياسيين الذين يبيتون الرغبة فى الاستمرار فى سباق التسلح ، وقد ظهر الخلاف بين أوبنهايمر والزعماء الامريكيين واضحا بعد انتهاء الحرب بسنة واحدة حين عين رئيسا للجنة الاستشارية الخاصة بدراسة مسألة الرقابة على الطاقة الذرية ، فكان يرى ان حل مشكلة القنابل الذرية يتلخص فى وجوب دعم الثقة الدولية عن طريق التعاون الوثيق بين علماء الشرق والغرب ، ووضع أسلحة الدمار الشامل تحت رقابة الامم المتحدة وبهذه الروح أسهم فى وضع مشروع « أتشيسون — ليلينتال » للرقابة الدولية على الطاقة الذرية، ولكن الزعماء الامريكيين ادخلوا عدة تعديلات جوهرية على المشروع قبل أن يعلنه «باروخ» ممثل أمريكا فى الامم المتحدة ، فبدلا من أن يبدأ المشروع بدعم الثقة ثم يصل الى الرقابة جعلوه يبدأ من الرقابة حتى يتطور الى الثقة، فكان المطلوب من السوفيت أن يثبتوا أولا أنهم أهل للثقة ، وذلك بالتخلى عن خططهم الخاصة بانتاج القنبلة الذرية وتبادل المعلومات عن مستودعات المواد المشعة مما يكشف للغرب عن مستودعات اليورانيوم والثوريوم فى الاتحاد السوفيتى ، وأخيرا يجرى تبادل المعلومات المتعلقة باستخدام الطاقة الذرية فى الأغراض السلمية .

وكان أوبنهايمر يرى أن هذه الشروط غير معقولة من الناحية السياسية أو الفنية ، ومن شأنها أن تزيد مخاوف السوفيت وتضاعف من اصرارهم على صنع الاسلحة الذرية ، وكان يحبذ أن يتم فورا تبادل العلماء والخبرة العلمية فيما يتعلق بالاستخدام السلمي للطاقة الذرية ، فالعلم فى نظره غير قابل للاحتكار ويجب أن يقدم السلام العالمى على أساس التفاهم بين الرجال فى عالم مفتوح بلا عقبات أو مخاوف وبعقليات متحررة لها الحق فى اختيار ما تقتنع به .

وسرعان ما اتخذ الخلاف بين أوبنهايمر والزعماء الامريكيين مظهرا علنيا حين شن أوبنهايمر هجوما عنيفا على الادميرال لويس شتراوس رئيس لجنة الطاقة الذرية الامريكية الذى رفض ارسال نظائر مشعة الى الخارج لاستخدامها فى الابحاث الطبية ، متذرعا بحجة الامن القومى .

ولم يلبث أن دخل أوبنهايمر معركة عنيفة أخرى مع قادة السلاح الجوى الامريكى ، فقد كانوا يروجون لسياسة الانتقام الشامل التى تعتمد بدورها على القنابل الذرية الكبيرة تلك التى تستطيع أن تبيد مدنا بأكملها أو مناطق شاسعة من التحصينات العسكرية . أما أوبنهايمر الذى جرب ما تعنيه عبارة « لقد أصبحت انا الموت مدمر العوالم » ، فكان يعتقد أن القنابل الكبيرة واسلحة الدمار الشامل لا ينبغى استخدامها الا اذا فشلت كل امكانيات الدفاع الاخرى ، وكان أوبنهايمر بحكم مركزه كرئيس للجنة الاستشارية لوكالة الطاقة الذرية الامريكية ورئيس لعدة أنواع من اللجان الخاصة بتخطيط التسلح يستطيع ان يؤثر فى سياسة الدفاع الامريكية . ورمق زعماء السلاح الجوى نشاطه بغضب وعصبية ، ثم ما لبثوا أن نظروا اليه بعين الشك التام حين طالعتهم المقترحات التى قدمتها لجنتا بحث اشترك فيهما أوبنهايمر وأثر فيهما تأثيرا قويا .

فقد اقترحت احدى اللجنتين تطويق الحزام القطبى شمال الاتحاد السوفيتى بشبكة من محطات الرادار للتنبيه حتى تتمكن المقاتلات الامريكية والمدافع المضادة للطائرات من ملاقاة طائرات العدو وتدميرها .

واقترحت اللجنة الاخرى تزويد القوات الامريكية فى البر والجو بأسلحة ذرية صغيرة حتى « تلتزم المعركة ارض المعركة » ولا تتعداها الى تدمير المدن والمنشآت .

ونظر قادة السلاح الجوى الى هذه المقترحات نظرة ريب ، فقد كان معناها التقليل من أهمية السلاح الجوى نتيجة لتحويل الارصدة والاهتمام عنه الى هذه المشروعات ، وهذا يعنى انهيار خططهم التوسعية التى تهدف الى ابتلاع ارصدة ضخمة للاستعدادات العدوانية تحت ستار الدفاع ، واعرب الجنرال « هوايت فاندنبرج » رئيس أركان حرب السلاح الجوى « وتوماس فنلتر » وزير الطيران عن شكهما فى ولاء أوبنهايمر للولايات المتحدة .

ولم تلبث أن جاءت الضربة القاضية للعلاقات بين أوبنهايمر والحكومة الامريكية حين عارض برنامج صنع القنبلة الهيدروجينية .

* * *

ولكى نفهم حقيقة هذا الخلاف لابد أن نتعرف أولا على الرجل الذى لعب الدور الاساسى فيه ضد أوبنهايمر ، وهو العالم الذرى ادوارد تيللر .

٦

ولد ادوارد تيللر عام ١٩٠٨ ، أى انه أصغر من أوبنهايمر بأربع سنوات ، وأن كان ينتمى الى نفس جيله العلمى . وعلى العكس من أوبنهايمر قضى « تيللر » طفولته فى ظروف سياسية مضطربة ، فقد ولد فى بودابست ، وكان فى السادسة من عمره حين قامت الحرب العالمية الاولى ، ولم تلبث ان غزت روسيا القيصرية المجر وفرقها الحلفاء فيما بينهم ، وبعد الحرب مباشرة قامت فى المجر ثورة مضادة أعلنت على أثرها دكتاتورية عسكرية فاشية برئاسة الاميرال هورتى . وقد أثرت كل هذه الاحداث فى « تيللر » ، ونشأت لديه عقدة الهجرة من « هذا المجتمع

اللعين » . وبعد أن أنهى دراسته للطبيعة فى « كارلسرو » و « ليبزج » و « جوتنجن » جاء هتلر الى الحكم ، وبدأت هجرة العلماء الى الخارج ، وكان «تيللر» من بين المهاجرين الى الولايات المتحدة عام ١٩٣٥ ، حيث عين استاذا للطبيعة فى جامعة «جورج واشنطون»، وعكف على ابحاثه العلمية فى جو من الهدوء السياسى لم يشهده من قبل ، وفى عام ١٩٤١ اكتسب « تيللر الجنسية الامريكية ، وكان شديد الاعجاب بالجو الرأسمالى الديموقراطى الليبرالى على نحو جعله غير قابل لاى استهواء يسارى .

وعندما كلف أوبنهـــايمر بالاشراف على مشروع لوس آلاموس سارع الى دعوة تيللر الى العمل فى المشروع . لم يكونا صديقين ، ولكنهما تعارفا بشهرتيهما العلمية وتقابلا فى مناسبات قليلة ، وكان كل منهما يقدر الآخر ويعجب بعقليته ، وكاد تيللر فى أول الامر أن يمنع من العمل فى المشروع لان له أقارب فى الاراضى التى يحتلها النازيون وليس لديه ترخيص امن من السلطات الامريكية ، ولكن أوبنهايمر أستطاع بنفوذه الواسع أن يذلل هذه العقبة ويحصــل لتيللر على الترخيص المطلوب .

غير أن فترة التوافق بين أوبنهايمر وتيللر كانت قصيرة ، ولم تلبث المسافة أن تباعدت بينهما حتى أصبحا على طرفى نقيض ، ويبدو أن الاختــلافات الجوهرية بين شـــخصيتى الرجلين لعب دورا هاما فى هذا التباعد ، فقد كان أوبنهايمر مثاليا حالما مغرما بالفلســفة الكلاسيكية والشعر الغربى الفرنسى فى مطلع عصر النهضة ، وهو رجل معتكف على نفسه ، ضيق الصبر بالناس لا سيما الذين لا تعمل أذهانهم بالسرعة التى يعمل بها ذهنه ، ولكنه كان فى نفس الوقت لطيفا مهذبا جادا ساحر الشخصية يضفى عليه كبرياؤه العقلى لمحة من الغطرسة ، أما تيللر فكان ظاهريا واقعيا يحب المجتمعات وتكوين الصداقات ، ويغرم بتبادل الطرائف مع الاصدقاء ، ويهتم بآراء الناس ومشاكلهم ، ويتحمس فى المناقشات والخصومات ، ويتألم بشدة اذا شعر انه أهين .

وقد أبدى أوبنهايمر نوعا من الضيق تجاه تيللر وأسلوبه فى العمل والحياة ورد تيللر باظهار الامتعاض من موقف اوبنهايمر الذى توهــم فيــه مســـاسا بكرامته وكبريائه ، وازدادت الكراهية بينهما عنــدما اختــار أوبنهايمر العــالم هانز بيث ليرأس قســم الطبيعة النظرية ذو الاهمية البالغة فى معامل لوس آلاموس . ولم يفعــل أوبنهايمر ذلك استهانة بكفاءة تيللر العلمية ، وانما اقتناعا منه بأن تيللر ليس اداريا كفأ ، ولكن هذا التصرف أشعل نيران الضغينة فى صدر تيللر . ومنذ ذلك الوقت بدأ يسحب نفسه رويدا من مشاكل القنبلة الذرية ويهتم بمشـــكلة القنبلة الهيدروجينية التى كانت لا تزال فى حكم الاســتحالة الفنية ، وبدا واضحـا أن الموقف لم يعــد يحتمل الا أحــد الرجلين أوبنهايمر أو تيللر ، فقد كان كل منهما أشبه براقصة باليه أولى أو بطلة أوبرا لا يمكن أن يتسع لهما مسرح واحد .

اما الخلاف الرئيسى بينهما فقد حدث بعد انتهاء الحرب مباشرة اذ اتجه تيللر الى مواصــلة ابحاثه الخاصة بالانشطار النووى تمهيدا لصنع قنبلة جديدة تعتمد على تفتيت نواة الذرة نفسها ممـا يجعلها تفوق القنبـلة الذرية الاف المرات فى قوة التدمير ، وكان يأمل أن يساعده اوبنهايمر وفريقه فى أبحاثه بنفس الحماسة التى صنعوا بها القنبلة الذرية ، ولكن أوبنهايمر عارض هذا الاتجاه ، بل رفضه من أســاسه ، وطالب بتكريس جهود العلماء فى الابحاث الذرية النظرية وتطبيقاتها السلمية ، وبدأ العلمــاء يتحمسون لفـكرته ويعودون الى جامعاتهم ، بل ان بعضهم فضل وظيفة مدرس صغير يشرح مبادىء الطبيعة للطلبة المبتـدئين على الامكانيات العملية الهائلة التى يتيحها العمل فى برنامج الدفاع العسكرى ، وشعر ادوارد تيللر من جراء هذا الموقف بخيبة أمل مريرة ، فمكث فى لوس آلاموس بعض الوقت ريثمــا ينهى بعض أبحـاثه المفتوحة قبـل أن يقرر أن ينفصل بنفســه ليواصل وحده أبحاثه لصنع القنبلة الهيدروجينية .

والواقع أن هـذا الموقف من تيللر لم يكن

منبت الصلة بجذوره السياسية، فقد كان تيللر يمثل اليمين الأمريكي المتطرف ، كان شديد الشك فى نوايا الاتحاد السوفيتي والشيوعية العالمية، ويرى أن أفضل سياسة يمكن اتخاذها أن تقف منهما الولايات المتحدة موقفا متشددا، ولذلك كان من أشد مؤيدى مشروع «مارشال» والاتحاد الاوربى وحلف شمال الاطلنطى ،وقد ثبت أن هـذا الموقف المتطرف فى أمريكا فى ذلك الحين كان ينتهى بأصحابه ـ الذين يصفون أنفسهم بالواقعية ـ الى الانزلاق لاتهام أيةفكرة مخالفة بالخيانة والعداء ٠

وانفجر الصراع العلنى بين تيللر وأوبنهايمر حين أصدرت اللجنة الاستشارية العامة لوكالة الطاقة الذرية التى يرأسها أوبنهايمر ، والتى تعد سلطة عليا فى هذا الصدد، قرارا بالاجماع يدعو تيللر الى عدم اجراء أى توسع جديد فى الابحاث النووية أى التوقف عن ابحاثه لصنع القنبلة الهيدروجينية ٠ واستندت اللجنة فى ذلك الى عدة أسباب فنية وسياسية وأخلاقية، اذ كانت تعتقد باستحالة انتاج القنبلة الهيدروجينية فى ذلك الوقت ، وحتى اذا أمكن صنعها فسوف تسىء الى التوازن العسكرى الأمريكى اذ تجعله يعتمد على أسلحة الدمار الشامل واهمال الاسلحة التقليدية ، مما يجعل أمريكا غير مستعدة لخوض معارك الحروب الصغيرة ، هذا علاوة على المانع الخلقى الذى ينبغى أن يحول دون انتاج أسلحة التدمير الشامل للانسانية ، كما أن اللجنة كانت تستبعد أن يقوم الاتحاد السوفيتي من جانبه بصنع القنبلة الهيدروجينية ابتداء ، لأن كل ما كان يهدف اليه ـ فى نظرها ـ هو اللحاق بالولايات المتحدة من ميدان التسلح لا التفوق عليها ٠

ولكن الرئيس ترومان بادر بالغاء قرار اللجنة وكلف تيللر رسميا بانتاج القنبلة الهيدروجينية ، غير أن تيللر أسرها فى نفسه ضد أوبنهايمر ، ووقر لديه أن الرجل يحاول ابعاده تماما عن الميدان واجهاض كل تجاربه العلمية التى استغرقته وقتا طويلا يرجع الى ما قبل الحرب العالمية الثانية ٠



ولم يمض وقت طويل حتى تمكن تيللر باكتشاف عبقرى من حل المشكلة الفنية للانشطار النووى ، وتم صنع القنبلة الهيدروجينية وتجربتها بنجاح ، وبعد شهور قليلة تمكن الاتحاد السوفيتي من تفجير قنبلته الهيدروجينية وبذلك اتضح أن قرار اللجنة الاستشارية خاطىء فنيا وسياسيا ٠٠ وبدأ خصوم أوبنهايمر يصوبون عليه سهامهم ٠

ومما زاد الموجدة على أوبنهايمر أنه لم يكن يحتفظ بآرائه لنفسه بل كان يؤثر تأثيرا عميقا فى العلماء والرأى العام ، فقد قرر أن ينزل الى الناس ليسهم فى خلق رأى عام ضد القنابل النووية ، فكان يعقد الاجتماعات ، ويشترك فى المؤتمرات ، ويصدر البيانات والتحذيرات، ويشارك بكل قواه فى الحملة العالمية ضد القنابل والتجارب الذرية التى اشترك فيها آلاف العلماء والمفكرين من شتى أنحاء العالم فى الشرق والغرب وعلى رأسهم ألبرت اينشتاين، وبرتراند راسل ، وفريدريك جوليو كورى ، وأوتو هان، وستراسمان ، ونيلز بور ، وغيرهم من العلماء السوفيت والانجليز واليابانيين والفرنسيين والألمان ٠

وجاء اختراع القنبلة الهيدروجينية ليزيد الاحن والخصومات بين العلماء الأمريكيين الذين انقسموا الى فريقين بين تيللر وأوبنهايمر ، وذلك فى وقت كانت فيه المكارثية تنشر ظلها الأسود على المجتمع الامريكى ٠



أصبح أوبنهايمر عقبة في وجه الكثيرين، فكثر خصومه وصاروا يودون التخلص منه ·

كان هناك خصمه اللدود الجنرال لويس ستراوس رئيس لجنة الطاقة الذرية الذي يحمل ضغينة كبرى لأوبنهايمر بسبب غطرسته العلمية ووقوفه ضد تجنيد العلماء في خدمة الحكومة ، وكان هناك السناتور بريان ماكماهون رئيس لجنة الطاقة الذرية المشتركة بالكونجرس والرجل الذي وقف من الناحية السياسية وراء صنع القنبلة الهيدروجينية · وكان ادوارد تيللر منافس أوبنهايمر القديم وصانع القنبلة الهيدروجينية ، وكان هناك الجنرال هوايت فاندنبرج رئيس أركان حرب السلاح الجوى ، وتوماس فنلتر وزير الطيران اللذان يقف أوبنهايمر في وجه مشاريعهما التوسعية ، وكان وراء هؤلاء جميعا السناتور مكارثي رئيس لجنة النشاط المعادى لأمريكا الذى استطاع أن يستغل مخاوف الأمريكيين ويوحى اليهم بأنهم وقعوا في براثن الشيوعية ·· هؤلاء جميعا وغيرهم من أصحاب النفوذ القوى كان يهمهم التخلص من أوبنهايمر بتشويه سمعته وهدم أسطورته في أعين العلماء والرأى العام ·

وذات يوم عاد أوبنهايمر من رحلة في الخارج ليفاجأ بأن خصمه اللدود لويس شتراوس قد استصدر أمرا من الرئيس ايزنهاور «باسدال ستار كثيف بين أوبنهايمر والأسرار الذرية» باعتبار أن ولاءه مشكوك فيه لارتباطاته القوية بالشيوعيين ، وأنه تسبب في تأخير انتاج القنبلة الهيدروجينية الأمر الذى لا يفيد منه سوى الاتحاد السوفيتى ، ولذلك ينبغى عدم تجديد ترخيص الأمن لأوبنهايمر ومنعه من الاطلاع على الأسرار الذرية ، وطرده من خدمة الحكومة ·

وأصبح على أوبنهايمر اما أن يقبل هذا القرار وينسحب في هدوء أو يطلب سماع أقواله لينفذ الاتهامات الموجهة اليه، أى يطلب تقديمه الى محاكمة ·

ورفض أوبنهايمر هذه الاتهامات ، ورغم أنه شعر منذ أول الأمر بأنه دخل الفخ الذى لم ينج منه آلاف العلماء والمفكرين والسياسيين الذين وقعوا في قبضة ماكرثي ، فانه شعر أيضا بأن سكوته على هذه الاتهامات معناه اعترافه بها ، أو على حد تعبيره « اقرارا بأننى لم أكن مخلصا لهذه الحكومة التى خدمتها اثنى عشر عاما » ·

وفى ١٢ أبريل عام ١٩٥٤ بدأت محاكمة أوبنهايمر في قاعة بالدور الثانى بأحد المكاتب المؤقتة للجنة الطاقة الذرية ، وقد هيئت القاعة بحيث تشبه قاعات المحاكم العادية ولكن كان ينقصها الجلال القضائى الذى يميز المحاكمات العادلة ، فقد كانت القاعة مزدحمة أكثر من اللازم ، كثيرة الجلبة والحركة ، لا ينقطع عنها سيل الداخلين والخارجين من شتى الأنواع ·· موظفين قضائيين ، رجال أمن ، شخصيات عسكرية، شهود ، متفرجين، صحفيين ومراسلى الاذاعة ووكالات الأنباء والتليفزيون · أما الأثاث فكان بسيطا ورسميا ، وكان الحاضرون يجلسون على مناضد مزدحمة يفصلها ممر يصل بين باب القاعة وصدر المحكمة ، وعلى أحد جانبى صدر القاعة جلس الادعاء يرأسه روجر روب وكيل النائب العام في واشنطون ، وهو من رجال ماكرثي المدربين على « اصطياد الشيوعيين » · وعلى الجانب المقابل جلست هيئة الدفاع ، برئاسة لويد جاريسون وهو محام مثقف ليبرالى الاتجاه· وفى صدر القاعة منصة القضاة الثلاثة وهم: جوردن جراى وزير الجيش السابق ، رئيسا ، وتوماس مورجان، رئيس مؤسسة سبيرى الصناعية · ودكتور وارد ايفانز أستاذ الكيمياء بجامعة نورث وستون · وتواجه القضاة مائدة صغيرة ، تقوم مقام منصة الشهود الذين بلغ عددهم أربعة وعشرون شاهد اثبات ونفى ·

وفى أقصى القاعة أريكة صغيرة من الجلد جلس عليها المتهم دكتور روبرت جوليوس أوبنهايمر يوما بعد يوم يلوك فم غليونه وينفث دخانه في عصبية هادئة وهو يستمع الى أدق تفاصيل حياته الخاصة والعامة تلوكها الألسنة وتطرحها بين أيدى أعضاء المجلس الثلاثة الذين لا يكاد يعرف عنهم سوى أسمائهم ولكن شاء القدر أن يجعل مصيره مرتبطا بكلمة تخرج من أفواههم ·

طرح أمام المحكمة ملف أمن أوبنهايمر الضخم ويحوى تفاصيل كل اتصالاته القديمة بالشيوعيين ، ومساهماته فى القضايا اليسارية ، كما قدمت وكالة المخابرات المركزية كمية ضخمة من مواد الاثبات كالوثائق المصورة ، والمحادثات التليفونية المسجلة والأفلام ، ولم تقتصر هذه المواد على تسجيل نشاط أوبنهايمر العلمى فحسب بل كانت تمتد لتشمل حياته الشخصية فى أدق تفاصيلها ، فدلت بذلك على مدى تتبع أجهزة الامن الامريكية لكل خطوات العلماء ، وتجسسها على حياتهم الخاصة ٠

وكانت اجراءات المحاكمة قاصرة وخاطئة من الناحية القانونية فالتهم غير ثابتة بل تتغير بالزيادة والنقصان فى مختلف أيام المحاكمة التى استمرت أربعة أسابيع ، مما صعب على الدفاع تركيز جهوده حول هدف معين ، والأدلة مستمدة من معلومات ترجع الى أكثر من اثنى عشر عاما ، وكانت كلها معروفة جيدا من قبل لأجهزة الامن التى منحت ترخيص الامن لأوبنهايمر وظلت تجدده طوال فترة الحرب وبعدها ٠

أما المدعى « روجر روب » فقد اختير بمهارة للقيام بهذا الدور ، فهو معروف برجعيته السياسية وقدرته على الصاق تهمة النشاط المعادى لأمريكا بأى شخص يشاء ، ومنذ بداية المحاكمة اتضح أن روب لا يدير القضية بروح البحث الموضوعى عن الحقائق ، وانما بأسلوب الاتهام والتجريم مستخدما فى ذلك زلاقة لسانه وأساليبه البارعة ٠ وفى البداية كانت المحاكمة تسير فى صالح أوبنهايمر الى حد ما حتى نجح « روب » بحيلة بارعة فى تحويل اتجاهها باستغلال واقعة «هاكون شيفالييه» ٠

وتتلخص هذه الواقعة فى أنه فى أواخر عام ١٩٤٢ كان لاوبنهايمر صديق يسارى يدعى « هاكون شيفالييه » وهو عالم فرنسى يعمل أستاذا فى جامعة بيركلى ، ويبدو أن شيفالييه أساء تقدير مدى اتجاهات أوبنهايمر اليسارية فأسر اليه بأن هناك ترتيبا خاصا يتيح لاوبنهايمر ارسال مايشاء من المعلومات العلمية الى السوفيت ، ورفض أوبنهايمر على الفور ولكنه لم يسارع بابلاغ السلطات بالامر ، وبعد فترة طويلة من الصراع النفسى تمزق فيها بين ارتباطه العاطفى بشفالييه ومتطلبات الامن أقدم أوبنهايمر فى أغسطس ١٩٤٣ على ابلاغ السلطات ولكنه اخترع قصة ملفقة لا تدين أحدا ، وحفظ الموضوع عند هذا الحد ، ولكنه أدرج — بالطبع — فى ملف أوبنهايمر ٠ وأثناء المحاكمة نقب المدعى روجر روب عن هذه الواقعة وسرعان ما كشف حقيقتها أمام سيل من الاسئلة الحاذقة التى أخذ يوجهها الى أوبنهايمر ٠ وأخيرا صاح « روب » فى وجهه طالبا منه أن يعترف بأن قصته الملفقة هذه لم تكن أكثر من « نسج أكاذيب » فأجاب أوبنهايمر مرتبكا بالايجاب ٠

وتلقف « روب » هذا الاعتراف ، ومضى يدلل على أن أوبنهايمر رجل كاذب يستطيع أن يخترع قصصا وينسج الاكاذيب يخدع بها السلطات سنين طويلة ، وما دام يعترف بذلك صراحة ، فلا يمكن الوثوق بعد الآن بأى أقوال يدلى بها أمام هذه المحكمة أو غيرها ٠

كانت هذه الواقعة بمثابة مفرق الطرق فى المحاكمة ، فقد قلبت الجو ضد أوبنهايمر الذى بدا وقد تخلى عنه ذكاؤه اللماح وذهنه الخارق أمام سيل لا ينقطع من الاحداث والمفاجآت ، فاستسلم دون تفكير لأسئلة المدعى ومغالطاته التى كانت تنهمر عليه كالمطر ٠

والواقع أن روبرت أوبنهايمر كان أسوأ شاهد لنفسه كما يقال ، اذ لم يحاول أن يخفى وجهة نظره أو يرجع عنها ، بل مضى فى شجاعة ساذجة يدافع عن أفكاره ، ويحاول أن يقنع بها متهميه ، فقال انه رفض المساهمة فى انتاج القنابل الهيدروجينية ، لا رغبة منه فى مساعدة الاتحاد السوفيتى، ولكن لانه ببساطة ضد هذه القنابل ، فان ضميره قد اهتز للمذبحة الذرية فى هيروشيما وناجازاكى ، واذا كان هناك مبرر لصنع القنبلة الذرية لانهاء الحرب ، فما المبرر الآن لتحويل جهود العلماء الى ميدان الدمار الشامل ؟ واذا كانت الشيوعية تشكل خطرا مميتا على الحضارة الغربية ، فينبغى أن نهزمها بوسائل أخرى ليس من بينها القنابل الذرية والهيدروجينية، فالاعتبارات التى تحدد موقفه ليست فنية أو سياسية بل هى اعتبارات أخلاقية فى المحل

الأول ، فاذا كان العلم لا يفرق بين الخير والشر أو بين العدل والظلم ، فان العلماء بشر ذوو ضمائر ويجب أن يفرقوا بين هذه الاشياء، يجب أن يمتنعوا تلقائيا عن انتاج وسائل الدمار التى لا تفرق بين متهم وبرىء ، أو بين صديق وعدو ، أو بين شيخ وطفل بل تجعل من هؤلاء جميعا كوما من الرماد لا يمكن تمييزه • وختم أوبنهايمر دفاعه عن نفسه مؤكدا ان القنابل الذرية والهيدروجينية لاينبغى أن تكون من عناصر السياسة الدولية، وان البشرية سوف تنبذ حتما مثل هذه الاسلحة •

هكذا كان أوبنهايمر أسوأ شاهد ضد نفسه، ولكن الشهادة التى كان لها أكبر الاثر فى المحاكمة هى تلك التى أدلى بها أدوارد تيللر •

ويقال ان تيللر رغم خصومته لاوبنهايمر لم يكن سعيدا بتطور الامور الى حد تقديم اوبنهايمر الى المحاكمة ، وانه كان يشعر ببعض الأسف لاهانة رجل له عبقرية أوبنهايمر ، ولكنه فى نفس الوقت كان يشعر بالارتياح للانتقام من هذا الرجل الذى آذاه فى الماضى بكبريائه العقلى •

وهكذا كان « تيللر » مبلبل الفكر الى أقصى حد حيال محاكمة أوبنهايمر وقد زاره فى منزله قبل المحاكمة بقليل ، ويومها سأله أوبنهايمر عما اذا كان يجد فى موقفه ما يصح ان يساءل عليه ، فأجابه بالنفى ، فطلب منه أوبنهايمر أن يتصل بالمحامين عنه وينسق معهم الشهادة التى سوف يدلى بها • وفى المرة التالية التى زار فيها تيللر واشنطون قصد الى كبير محاميى أوبنهايمر ، وأبلغه أنه لا يعتقد ان أوبنهايمر خطر على الامن ، ولكنه يختلف معه فى نقاط كثيرة يرى أن أوبنهايمر مخطىء فيها أشد الخطأ •

وعندما وصل تيللر الى واشنطون للادلاء بشهادته كان لايزال يعانى من الحيرة والبلبلة، ولكنه لم يكن فى الواقع حرا فى تحديد مشيئته ، بل كان مقيدا الى الجانب المعادى لاوبنهايمر ، أو بمعنى آخر كان لابد أن يشهد ضد أوبنهايمر ليدفع ما عليه من دين لخصوم أوبنهايمر ، فقد كان الجنرال لويس شتراوس خصم أوبنهايمر اللدود الذى سعى لتقديمه الى المحاكمة ، هو الرجل الذى يحتضن تيللر ويحميه ، ويفتح له الطريق الى الاوساط العليا • ومن ناحية أخرى كان تيللر مدينا لقادة سلاح الطيران الذين أقاموا له معمله الخاص فى كاليفورنيا ليواصل أبحاثه فى الانشطار النووى حين قرر ترك معامل لوس آلاموس •

وصل تيللر الى واشنطون للادلاء بشهادته، وقبل أن يمثل أمام المحكمة بساعات قليلة التقى به ممثلو الحكومة ، وأفهموه ان المحاكمة تسير ضد أوبنهايمر كما يرام ، وسلموه ملفا يحوى صورا كاملة من الاوراق الموجودة فى ملف أوبنهايمر السرى ، وأوحوا اليه بما يستحسن أن يقوله فى شهادته •

راح تيللر يلتهم الملف بنظرات سريعة زائغة ، انه يعرف حقيقة أن أوبنهايمر كان على اتصال بالشيوعيين قبل الحرب ، ولكن ها هو الآن يرى عشرات الادلة تطل برؤوسها متزاحمة فى وقت واحد لتأخذ بخناقه ولا تترك له فرصة للنجاة ، وتأكد أن أوبنهايمر قد انتهى بالفعل ، وليست هناك قوة تستطيع أن تنقذه، وكما فعل « بروتس » من قبل شعر تيللر أن قيصر الجديد فى حاجة الى طعنة أخيرة !

وبدأ تيللر شهادته مؤكدا انه لا يشك فى ولاء أوبنهايمر للولايات المتحدة رغم ارتباطاته السابقة القوية بالشيوعيين ، ولكنه لم يلبث أن لوى عنق هذه الشهادة فاستطرد قائلا ان أوبنهايمر شخصية معقدة وكثيرا ما يتصرف بطريقة يصعب فهمها ، ولذلك فانه يرى من الافضل أن توضع المصالح الحيوية لهذه البلاد فى أيدى أناس أجدر بالثقة والفهم !

ورد تيللر بالايجاب على سؤال من المدعى عما اذا كان موقف أوبنهايمر قد عطل انتاج القنبلة الهيدروجينية ، وأضاف ان أوبنهايمر لو أيد انتاج القنبلة ، ولو أدبيا فحسب ، لأمكن صنعها قبل موعدها بأربع سنوات ، ولكنه عاد واستدرك قائلا : وهذه بالطبع مسألة تختلف فيها الآراء، والحكم على مجريات الامور فى الماضى ليس أقل صعوبة من الحكم على مجرياتها فى المستقبل •

وأخيرا سئل تيللر عما اذا كان ينصح بتجديد ترخيص الامن الخاص بأوبنهايمر ،

فقال أولا انه لايرى مانعا من ذلك لأن أوبنهايمر لن يفعل على الارجح شيئا بارادته يضر الولايات المتحدة ، ثم عاد يناقض نفسه قائلا « ولكن اذا كانت المسألة تتعلق بنشدان الحكمة وحسن الحكم على الامور فانى أنصح بعدم منح الترخيص » !

وبعد ذلك قام تيللر ، وسار متظاهرا بالحزن الى الأريكة الجلدية التى يقبع فوقها أوبنهايمر وهو يسمع ويراقب فى انتباه وذعر ، ومد له يده فصافحه أوبنهايمر ، وبينما هما يتصافحان نظر تيللر فى وجهه وهمس بهدوء « أنا آسف » ، ورد أوبنهايمر بنغمة مؤدبة تنم عن شعك وذهول « بعد كل ماقلته الآن لا أستطيع أن أفهم ماذا تعنى بالضبط » .

انتهت المحاكمة وعاد أوبنهايمر الى برينستون فى انتظار الأنباء السيئة التى سرعان ما وصلت ، فقد صدر الحكم بعدم منح أوبنهايمر ترخيص أمن وابعاده عن العمل فى الأسرار الذرية ، لا على أساس عدم الولاء للولايات المتحدة وانما بحجة انه يعانى «بعض عيوب الشخصية » ، كما أثبت الحكم أن أوبنهايمر يستحق اللوم لعدم حماسته الكافية لانتاج القنبلة الهيدروجينية الأمريكية ـ وكان الحكم باغلبية صوتين الى واحد ، حيث جرى ومورجان ضده ودكتور ايفانز معه .

وبناء على نصيحة المحامين طلب أوبنهايمر استئناف الحكم ، ومضى الى الاستئناف مذهولا يكاد يفقد عقله ، ليقف هذه المرة أمام هيئة مكونة من خمسة قضاة ، ولم يصدم حين صدر الحكم بتأييد الحكم الأول بأغلبية أربعة الى واحد .

وهكذا انتصر خصوم أوبنهايمر وأزاحوه عن طريقهم .

٨

غرق أوبنهايمر فى الظلال ، فقاطع زملاءه العلماء حتى لا يلحق بهم أذى ، وأصبح لا يظهر فى المناسبات العامة ، ولا تتحدث عنه الصحف ، وبثت السلطات حوله العيون والجواسيس ، وفرضت الرقابة المشددة على بيته وتليفونه وبريده ، وسرعان ما أخذت طعنات الهموم تترك ندباتها الغائرة فى مظهره ، وبعد أن كان يبدو دائما أصغر من سنه بدأ يكبر ويهرم بسرعة ، فابيض شعره ، وذبل عوده ، وبدا حزينا مثقل الفؤاد ، وزايله شعوره بكبريائه وزهوه العلمى ، وأصبح وديعا متواضعا . قال عنه أحد الذين عرفوه جيدا فى تلك الفترة « لقد كان يشعر أنهم سرقوا ثمار حياته وأعطوها لتيللر ، وكان ذلك يؤلمه أكثر من أى شيء آخر » .

وأصبح الناس ينظرون الى أوبنهايمر كقديس أو شهيد ، والحق أن محاكمة أوبنهايمر هزت الضمير الأمريكي والعالمى ، فها هو عالم من أكبر علماء العصر يحاكم من أجل آرائه ومواقفه ، وأين ؟ فى الدولة التى تفاخر بأنها معقل الحرية والديموقراطية ، ولماذا ؟ لأنه ينادى بأن يكون العلم فى خدمة المجتمع الانسانى بأسره ، ومتى ؟ فى النصف الثانى من القرن العشرين !

وشعر كثير من العلماء بخيبة أمل مريرة ، وترددوا فى خدمة حكومة تعامل العلماء على هذا النحو ، وامتنع كثير من الشباب الأذكياء عن الالتحاق بكليات العلوم حتى لا يلقوا نفس المصير .

وأنفت عن أوبنهايمر عشرات الكتب والمقالات والمسرحيات والأشعار ..

أما ادوارد تيللر فلم يكن سعيدا بدوره بل جنى حصادا من الكراهية والاحتقار ، فقد حنق العلماء والمثقفون عليه لقيامه بدور مخلب قط للمكارثية ، وأخذوا ينظرون اليه كقابيل الذى قتل أخاه .

على أن تيللر لم يكن يعدم المؤيدين ، بل لقد انقسم علماء الطبيعة فى الواقع الى معسكرين متضادين ، أصغرهما مع تيللر ويرى أن الاتحاد السوفيتى أثبت بما لا يقبل الشك أنه غير جدير بالثقة أو بالتالى يجب الاستمرار فى صنع الأسلحة النووية وتطويرها ، وأكبرهما مع أوبنهايمر ويرأسه هانز بيث ، ويرى هذا الفريق الأخير من العلماء أن البشرية يجب أن تنبذ الى الأبد كل

التجارب والأسلحة النووية وأن التعايش السلمي مع الاتحاد السوفيتي ضرورة لا مفر منها مهما كانت الأحوال ٠

وانفجر الخلاف بين المعسكرين حول مسألة حظر التجارب النووية التي طرحت على المستوى العالمي في أواخر الخمسينات ٠

لقد ظل « تيللر » متمسكا بالدفاع عما أسماه حماية أمن الولايات المتحدة والعالم الحر ، مؤكدا أن السوفيت يمكنهم خرق الاتفاق وهم في مأمن من الرقابة والتفتيش ، ومضى يشجع أنصاره من العلماء على المضي في أبحاثهم لصنع قنبلة النيترون ، وأخذ يكتب المقالات ، ويلقي المحاضرات ويدلي بالتصريحات ، ويخوض معارك ومناقشات كلامية لا تنتهي في الاذاعة والتليفزيون ، مع مؤيدي فكرة الحظر الذرى أمثال لينوس باولينج وهانز بيث ، ولم يمض وقت طويل حتى كان قد خلف خصومات أكبر ضاعفت من عمق الصدع بين معسكرى العلماء الأمريكيين ٠

وأنهكت هذه المعارك « تيللر » نفسيا وبدنيا ، فانهارت صحته ، وتغيرت شخصيته ، رزايله الشعور بالمرح والتفاؤل وحل محله شعور حاد بسوداوية المزاج أخذ يتطور أحيانا الى حالة من المرارة الشديدة واليأس القاتل ، وبدا كأن لعنة القنبلة قد أصابته كما أصابت أوبنهايمر من قبل ، وشعر القريبون منه أنه على وشك الانهيار التام ٠ ولكنه استطاع اجتياز آلام هذه المرحلة بصموده وقوة تحمله ، وبدا وكأنه وصل مثل أوبنهايمر الى هضبة نفسية قاحلة اكتسب فوقها نوعا من المناعة والاستعلاء ، وأصبحت له أيضا نظرات فلسفية داخلية ، ومثل أوبنهايمر كذلك انتابه شعور بأنه يخوض معركة خاسرة ٠

وقد كانت بالفعل معركة خاسرة ٠٠ ففى ٥ أغسطس ١٩٦٣ وقعت بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي اتفاقية الخطر الجزئى للتجارب النووية على الارض وفي الجو وتحت سطح الماء ، ولكن الاحن والخصومات استمرت بين معسكرى العلماء الأمريكيين تسمم الجو العلمي حتى أصبح من المحتم أن تتخذ خطوة توفيقية بين الطرفين ، وكان من الطبيعي أن يقوم بهذه الخطوة الجانب الخاسر الذى يتزعمه ادوارد تيللر ٠

وجاءت الفرصة المناسبة لاتخاذ هذه الخطوة عند الترشيح لجائزة « انريكو فيرمي » التى تمنح لمن يسهم بجهد رفيع في أبحاث الطبيعة الذرية ، وكان تيللر قد منح هذه الجائزة عام ١٩٦٢ ، وفى العام التالى استقر رأيه ورأى جميع العلماء الأمريكيين على منح الجائزة لروبرت أوبنهايمر كمظهر لانهاء الخصومة بين العلماء ٠

ورحب الرئيس الراحل « جون كيندى » ، بما عرف عنه من روح تقدمية وتقدير للعلماء ، بالفكرة رغم مافيها من مخاطرة سياسية قد يستغلها خصومه المحافظون ، وبدأ كيندى بدعوة أوبنهايمر لحضور الحفلات بالبيت الأبيض ثم أقر اقتراح وكالة الطاقة الذرية الامريكية بترشيحه لجائزة انريكو فيرمي ٠ وكان قرار منح أوبنهايمر الجائزة آخر قرار رسمى يتخذه كنيدى فى حياته وأعلن صبيحة اليوم الذى لقى فيه كنيدى مصرعه ٠ وكان منح الجائزة لأوبنهايمر فى حفل خاص أقيم بالبيت الأبيض من أوائل المهام الرسمية التى قام بها الرئيس التالى جونسون ليوحى للناس أنه ينتهج سياسة راحلهم العزيز ٠

ردت جائزة انريكو فيرمي بعض الاعتبار للعالم الذرى الكبير دكتور روبرت جوليوس أوبنهايمر ، ولكنه ظل محروما من ترخيص الأمن الذى يتيح له خدمة الحكومة ، ويقال انه لو امتد العمر بكنيدى لأقدم أيضا على هذه الخطوة ٠ ولكن هذا ماكان ، وظل أوبنهايمر حتى آخر يوم في حياته يعتبر من وجهة النظر الرسمية شخصا خطرا على الأمن لا يؤتمن على أسرار الدولة العليا ويعانى عيوبا ماسة بالشخصية ٠ والحق أن كل جريرته أنه كان يمثل ضمير العلماء ، وأنه كان يرفض أن يصبح العلم وسيلة للدمار ، وأن يصبح العلماء أداة في يد السلطة ، وأن تصبح أسرار الطبيعة حكرا لمضمرى العدوان ، فناضل لرد كرامة العلماء ، وايقاظ ضمائرهم ، واشعارهم بمسئوليتهم ، ووضع العلم فى خدمة المجتمع الانسانى كقوة ينبغى أن ترتفع فوق الخلافات والمنازعات رفقا بمصير الانسان ٠

حديث مع .. جان بول سارتر ..

ترجمة وتقديم : د. أنور لوقا

اشــهر اديب على وجه الأرض فى عصرنا ، هو بلا شك « جان بــول سارتر » . ففى الغرب والشرق على السواء ، ما زال يتردد اســمه على الألسنة بمختلف لغاتها ، وفى الصحف والندوات على تباين ميولها ، اشادة او تنـديدا بمواقفه المتــلاحقة من المشكلات الفكرية والسياسية والاجتماعية او مقرونا بهذا العمــل او ذاك من اعماله الفلســفية أو القصصية او المسرحية او النقدية ، دون ان يفهــم الناس فى اغلب الأحيان مضمون تلك النصــوص وتلك المعارك العقلية ! ، ما اكثر ما أثاره «سارتر» من جــدل ونقاش فى كل مناسبة هامة حول قيم الحياة الواقعية والنظرية ، ووضــع الانسان خلالهــا ، وما أكثر ما أثاره أصحاب اليمين واصحاب اليســار من جدل ونقاش حــول شخصية «سارتر» ومبــادئه ! امامنــا هالة من المــديح والهجاء ، تحجب عنا هذا الرجل .

ووســط المتناقضات نتسـاءل : أهو فيلسوف ؟ أم فنان ؟ أم مكافح شعبى؟ وما حقيقة دعوته ؟ أين اصالته وأين مكانه ؟

الأدباء يحيــلونه الى الفلاسفة ، والفلاسفة يضيفونه الى الأدباء . وهو يؤمن برسالة الكاتب ، كما يؤمن غيره برســـالة الدين . ففى الأدب يرى خلاص الكاتب وصلاح امر القراء . ثم يلمس عجزه عن تبديل الناس ، ويفقد ثقته بقدرة العلم . يكفر اذن بالادب، وينقلب على المشتغلين بفنونه يسفههم ويصمهم بالعــار ما بقى طفل جائع يتضور فى ركن من اركان افريقيــا وآسيا وينتظر ان نحرره من ذل الجوع. واخيرا ترفعه جائزة نوبل الى قمة أدباء العالم ، فــيرفض التكريم ــ محتجــا بكرامة الاديب !

***

لمعرفة « سارتر » ينبغى الا نفصل بين كتاباته وبين حياته :

ولد « جان بول سارتر » بباريس، فى ٢١ يونيه عام ١٩٠٥ ، ونشأ فى اسرة برجوازية محترمة . كان ابوه ضابطا بحريا . وامه من اسرة الطبيب الألزاسى الفيلسوف الدكتور « ألبرت شفايتزر » ، الذى وقف حيــاته على علاج زنوج « الجابون Gabon » فى قلب افريقيا ، ونال جائزة نوبل. وفقد «سارتر» اباه وهو فى الثانية من عمره ، فكفله جــده الذى كان يشتغل بالتدريس . وفى قاعات ليسيه « لاروشيل » ثم ليسيه «هنرى الرابع» بباريس ، بدا نفوره من مواد الرياضة وتفوقه فى مواد الأدب . ودخل مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩٢٤ ، وبعــد حصــوله على الليســانس حاز درجة « الاجريجاسيون » سنة ١٩٢٩ وكان ترتيبه الاول .

وعين سارتر مدرسا فى ليســيه « الهافر » ـ ومن هذه المدينة سيستعير اطارا لروايته « الغثيان La Nausée ثم نقل الى ليسيه « باستير » بباريس. واتيح له ان يقضى عام ١٩٣٣ ـ١٩٣٤ فى المعهد الفرنسى ببرلين ، وهنــاك تتلمذ على الفيلسوف الألمانى «هوسرل» وشارك فى تحرير «المجلة الفرنســية الجــديدة ـ N.R.F. ـ وهى مجلة المثقفين الراقية ـ بمقالات عن فوكنر ودوس باسوس ومورياك وجــيرودو ، كما كتب فى مجــلة « أوروبا » ، ومجلة « الميتافيزيقيا والاخلاق » ونشر بحثا فى « التخيل L'Imagination عام ١٩٣٦ ، وآخر عنوانه « تخطيط لنظرية فى الانفعالات Esquisse d'une théorie des Emotions ظهر عام ١٩٣٦ . ورغم نشاطه فى السنوات التى سبقت الحرب العالمــية ،



ظل أديبا مغمورا . ورفض الناشرون طبع قصته « الهزيمة La Défaite . لم يحظ بشيء من الرواج سوى رواية « الغثيان » عام ١٩٣٨ ومجموعة من القصص القصيرة أصدرها بعنوان « الحائط Le Mur » عام ١٩٣٩ .

ولما نشبت الحرب الحقه الجيش بفرق الاسعاف ولم يلبث أن وقع فى الأسر سنة ١٩٤٠ ولكن الالمان أطلقوا سراحه فى العام التالى لأسباب صحية، فاستأنف التدريس بليسيه «باستير» ثم بليسيه « كوندورسيه » . وهكذا عاشر بقية الحرب فى باريس حتى نشر كتاب « الوجود والعدم (١) L'Etre et le Néant عام ١٩٤٣، وحيث قدم الفنان « شارل دولان Dullin فى العام نفسه مسرحيته الأولى » الذباب Les Mouches ثم اخرج له « البير كامى Camus مسرحيته الثانية « جلسة سرية Huis clos عام ١٩٤٤ .

ومنذ عام ١٩٤٥ اعفى سارتر نهائيا من التعليم وتفرغ للكتابة . أسس مجلة « العصور الحديثة Les Temps Modernes وما زال يراس تحريرها . وقد جمعت فى أعدادها الأولى أسماء المجددين من شباب الأدباء والمفكرين . وتتابعت منذ ذلك الحين محاضراته ، ورحلاته الى مختلف قارات الارض ، وأبحاثه ، وقصصه ، ومسرحياته .

ووقفت الى جانبه فى جهاد العقل والقلم شريكة عمره وفلسفته ومجده « سيمون دى بوفوار » منذ التقيا طالبين فى رحاب الجامعة .

ويروعنا « سارتر » بغزارة انتاجه وتنوعه . فقد أضاف الى مؤلفاته السابقة رواية طويلة « دروب الحرية Les Chemins de la Liberté نشر حتى سنة ١٩٤٩ ثلاثة أجزاء منها ولم يتمها ، واضاف أبحاثا أهمها « الوجودية فلسفة انسانية L'Existentialisme est un Humanisme (١٩٤٦) ، و «بودلير» (١٩٤٧) ، و « سان جينيه Saint. Genêt (١٩٥٢) ، و « نقد العقل الجدلى Critique de la raison dialectique (١٩٦٠) ، واضاف عدة مسرحيات اقبل على شهودها الجمهور ، هى : « موتى بلا قبور Morts sans Sépulture و « البغى الوقور La Putain Respectueuse (١٩٤٦) ، و « الايدى القذرة Les Mains sales (١٩٤٨) ، و « الشيطان والرحمن Le Diable et le Bon Dieu (١٩٥١) ، و « كين Kean – مقتبسة عن اسكندر ديماس (١٥٩٤) ، و « نيكراسوف Nekrassov » (١٩٥٥) ، و « سجناء الطونا Les Séquestrés d'Altona (١٩٥٩) ، هذا فضلا عن بضعة مجلدات بعنوان « مواقف Situations جمع فيها طائفة من مقالاته ودراساته، واخيرا – وقد ناهز الستين – بدأ ترجمة حياته بكتاب « الكلمات Les Mots الذى صدر عام ١٩٦٤ قبيل منحه جائزة نوبل .

لقد أصبح اسم « سارتر » مرادفا لاسم « الوجودية » . وهو لم يبتدع هذا المذهب – الذى يمكن الصعود اليه عند سقراط وأوغسطينوس وباسكال – وانما روج له وتزعمه فى جيلنا بعد أن استقاه من فلاسفة محدثين : من كيركجارد ، وهيدجر ، وياسبرز ، وهوسيرل ، وجابرييل مارسيل .

كان فى شبابه قد تاثر بدعوة الأديب « اندريه جيد » الى التحرر من نفاق المجتمع والتماس الاخلاق فىالجمال الفنى ، ثم اعجب « باندريه مالرو » الذى خاض معارك الشعوب والافراد وعبر عن بطولة انسان اليوم فىمقاومة قدره . غير أن أحداث ما قبل الحرب العالمية جعلته يدرك أن التنصل من الأوضاع الاجتماعية الزائفة لا يحل المشكلة ، لا يجسم مأساة الصراع الكامن فى الحياة ، ولا ينفى مسئولية الانسان .

(١) نشرت « المجلة (فى عدد فبراير الماضى عرضا وافيا لهذا الكتاب .

وعلى انقاض القيم التى انهارت مع المجتمع الذى انجب الحرب ، وخلف الاشمئزاز والتقــزز والغثيان ، اقام سارتر فكرة حرية الانسان الذى يصنع نفسه ، ولا يتلقى من سواه صــفات والقابا تحدد تعريفه وامكانياته ، بل يسبق بوجوده الواقعى جوهره المطلق، وملأ جان بول سارتر يشعل على الملا مشاجرات ذهنية حامية ، اخرج فيها مذهب الوجودية من معاقل الخاصــة واساتذة الفلسفة الى ساحات العــامة وانصاف المثقفين .

اعلن ان الوجود سابق على الماهية، وأن الانسان اذن يخلق نفسه بافعاله. فليس للعالم ـ مقدما ـ معنى واضح معين ، وانما الانسان هو الذى يختار للعالم معناه . وما دام العالم غفلا من المعــانى ، فليست هناك طبيعــة انسانية ، اى ان الانسان لا يستمد امرا او نهيا من شىء ، وانما هو حر، لا مفر له من ان يبتكر نفسه فى كل لحظة كما يشاء . ولكن حريته تجعله المسئول الاول عن وجوده ، فليس له ان ينتحل اى عذر او ان يتــذرع بالعاطفة والمــزاج او بالظروف : انه لا يفعل الا ما يريده ، ولم يرد الا ما أقدم على فعله . واذا كان الانسان حرا الى هذا الحد البعيد ، فالخــير والشر سواء، بل ليس ثمة خير اوشر، لأن الانسان فى حالة اختيار مستمر وهو لا يختار لنفسه الا الخير . لــذا لا يجوز لنا فى آخر الامر أن نحكم على الافعال بمضمونها ، أو حسب قيمة ما ننسبه اليها ، بل ينبغى أن نقدر الافعال من ناحية صدقها فقط .

وأملت فكرة المسئولية على سارتر فكرة الادب الهادف والتزام الاديب . وقد نادى بها فى افتتاحية العــدد الاول من مجلته . فاكد ان الكاتب لا يستطيع ابدا ان يتبرأ من احداث عصره ، لأنه دائمــا فى وضــع من الاوضاع بالقياس الى ذلك العصر . وانصراف ادباء مثل فلوبير والشقيقين « جونكور Goncort » الى البحث عن الفن الخالص فى القرن الماضى قد جر على فرنسا نكبة القمع التى تلت هزيمتها سنة ١٨٧٠، فانهم لم ينشئوا سطرا واحدا لدرء الخطر عن امتهم .

★★★

هكذا وجه سارتر قلمه الى معالجة موضوعات الساعة ، ومسائل السياسة والمجتمع . ولم يلبث نفوره من فساد المجتمع البورجــوازى أن مال به الى التعاون شيئا فشيئا مع الشيوعيين ، والى مخاصمة زميله الوجودى « البير كامى » غير انه ابى الانضمام الى الحزب الشيوعى ، لما يفرضه من رقابة على مهنة الكاتب . وبعد أن سحق الروس ثورة بودابست عام ١٩٥٦ ، غضــب الاديب الملتزم مع الغاضبين ، واعلن افلاس الاشــــتراكية التى يصدرها الاتحاد السوفيتى . وظل تطلع سارتر الى مجتمع جديد يضمن للفرد اصالة شخصيته ولا يفنيه فى كتلة الدولة، سببا فى خلافه المتصل مع البورجوازية التى نشأ فى احضانها ، والشيوعية التى تستهويه احيانا .

واذا كان الكثير من آراء ســارتر الفلسفية والاخلاقية والسياسية والادبية مدعاة للنقد والتحفظ ، فليس من ينكر أن هذا الرجل قد حرك عقولا راكدة ، واهاب بالحرية والمسئولية ، وانه عبر بهز قيم الحياة ـ منذ ايام الحرب ـ عن لهفة الانســان المتخبط فى ازمــة العصر الى استعادة قدره وقدرته .

★★★

والحديث الذى ننشر اليوم ترجمته، بمناسبة زيارته الاخــيرة للجمهورية العربية المتحدة ، يوضــح كثيرا من اتجاهاته الفكرية ومواقفه الادبية فى صراحة وبساطة وحيوية قل أن نجد لها نظيرا فيما نشر عنه من ابحــاث ومقالات .

❊ ❊ ❊

● أود أن تحدثنا عن الأدب .

ـ هــذه دعوة تسرنى ، لأن جميع من يقصدوننى تقريبا لا يطلبون أن أحدثهم إلا فى الفلسفة !

● نحن نعــلم انك انشغلت فى الفترة الأخيرة باعداد اكثر من كتاب ، واحد عن الشاعر « مالارميه Mallarmé » وآخر عن الروائى فلوبير ، وثالث عن الفنان المصور « تنتوريه Tintoret » فضلا عن مواصلة تدبيج قصة حياتك. ويخيل الينا انك تنتقل من هذا البحث الى ذاك دون رغبة فى انجاز اى منها ـ او دون ان تتمــكن من تغليب موضوع بعينه على ما عداه. فما تعليلك لهذا

ـ عندى تعليل لهذا . ولكن ها أنت ذا تدفعنى الى الحديث عن الفلسفة !

اننى أبحث منذ خمسة عشر عاما عن أساس سياسى للأنثروبولوجيا ، ممــا أدى الى تلاحق الأفكار على ذهنى بغزارة . واذ كنت لا أدرى فى أول الأمر مــاذا أصــنع بهــذه الأفكار المتكاثرة ، وكيف أنظمهــا ، فقــد رحت أسجلها فى أى مكــان ، وكان أيسر طريق للاحتفاظ بها هو أن أضمنها الكتــاب الذى شرعت فى انشائه. وأما الآن ـ وقد تخلصت من ذلك الفيض الدافق من الخواطر الفلسفية بصبه فى كتاب خاص هو « نقد العقل الجدلى La Gritique de la raison dialectique » فقد خلا السبيل أمامى لـكتابة ما أريد . لابد للأديب من هذا « الفراغ » أو هذا « التفرغ » . وذلك هــو نفس الشعور الذى خبرته من قبل ، بعــد أن انتهيت من كتابة « الوجود والعدم » .

أستطيع اذن أن أطلق قلمي ، الذى تخفف من عبء ثقيل ، ولن أرجع الى موزاين الفلسفة الا فيما بيني وبين نفسي ٠

● **معنى ذلك ان الأفكار الفلسفية هي السابقة لديك ٠**

ـ السابق عندى دائما هو ما لم اكتبه بعد، هو ما أرمي الى كتابته غدا أو بعد غد ، ولعلى لا أكتبه أبدا ٠

ولما كان تقدم العقل فى دراسة المسائل الفكرية يقتضى بطبيعة الحال وقتا طويلا ، فان الفلسفة هى التى تستغرقنى أولا ٠ ولكنها لا تستغرقنى دائما ٠ عندما كتبت مسرحيتى القصيرة « Huis clos جلسة سرية » كنت قد فرغت من كتاب « الوجود والعدم » ، أو على الأقل كان تحت الطبع ٠ ولم أجعل من أبطال المسرحية ومواقفهم رموزا فلسفية ، فما كنت أرغب فى تكرار ما قلته عن « الوجود والعدم » ، وما جدوى التكرار ؟ بكل بساطة ، كنت أبتدع قصصا بخيال وعاطفة وفكر سبق أن جمعها وأدمجها وركبها على نحو معين تصور ثم تأليف كتاب « الوجود والعدم » ٠ ويظن النظارة الذين يشهدون تلك المسرحية أن فيها سرا ينبغى أن يفهموه ، فى حين أنها لا تحتوى على أى سر ٠

● **السنا بازاء خطر يتمثل فى الخلط بين الفلسفة والفن ؟**

ـ هذا ما أحاول أن أتجنبه ٠ عندما ينشىء الأديب أعمالا غير فلسفية ، وهو يجتر أفكارا فلسفية ـ كما فعلت منذ عشر سنوات ـ تتعرض كل صفحة للاصابة بنقطة ضعف أشبه بالفتق فى الجسم ٠ ولقد حرصت فى الأيام الأخيرة ـ كلما أحسست بالفتق تحت قلمى ـ على أن أتوقف عن الكتابة ٠ ولهذا تبطىء كتبى وتنتظر ٠ أنا طبعا أتمنى أن أنجزها ٠ وأتمنى كذلك أن أكتب غيرها ٠

● **ترى وماذا يراودك سواها ؟ فانها متعددة !**

ـ يراودنى أن أقول « الحقيقة » ٠ وهذا هو حلم كل كاتب يدنو من الشيخوخة ٠ فانه يظن أنه لم يقل الحقيقة أبدا ، مع أنه لم يمسك عن المجاهرة بها ٠ أعنى أنه يجب فى هذا الطور أن يتولى سرد الحقيقة بمحض ارادته ، وأن يقدم على ذلك بدافع أصيل ، لا أن ينزل على رغبة جمهور معين أو يلبى طلب ناشر معين ، كما كان شأنه فى انتاجه السابق ٠ انى أعترف بأن كل ما نشرته كان من أدب المناسبات ـ لا المناسبات التى تفر منها الدولة بل التى تنشأ من انتمائى لبيئة سياسية خاصة ، وميزة الكتابة حسب الطلب أنها تحدد لون القراء من ناحية ، وترغم الأديب من ناحية أخرى على الا يفضل جانبا من ملكاته على جانب آخر ٠

وأضرب مثلا بكتابى عن الجدلية : ان قصته ترجع الى أن مجلة بولندية سألتنى أن أكتب لها مقالة عن الوجودية ، فكتبت المقالة المطلوبة، ثم عالجتها من جديد ليطالعها قراء مجلتى «العصور الحديثة» ٠ ولما راجعتها لاحظت ان أساسا فكريا ينقصها ، اذ كان ينبغى أولا أن أتبين مدى صلاحية الجدلية ٠ وهكذا انصرفت الى تأليف ذلك الكتاب الضخم ٠

● **وهل كنت فى حاجة الى الكتابة عن الجدلية حتى تتمكن من التحدث عن « فلوبير » ؟**

ـ نعم ، بدليل اننى لم أستطع أن أمتنع عن ذكره فى مقالتى البولندية ، كما اننى عدت الى اقتباس فقرات طويلة منه فى سياق كتابى عن الجدلية ٠

● **وهذه الطريقة فى التاليف ، اهى خاصة بك ام هى ظاهرة عامة لدى جميع الكتاب ؟**

ـ أظن أن مرد ذلك الى وضع الفلاسفة فى هذا العصر واهتماماتهم الحالية ٠ فلقد تغير كل شىء : مع « هيجل » اقتحم التاريخ الفلسفة اقتحام المأساة ، ومع « كيركجارد » دخلت الترجمة الذاتية وكأنها المهزلة أو الدراما ٠ فيما مضى كان « ديكارت » يبحث عن القواعد الكفيلة بتوجيه العقل ، فنشأ منهج عقلى فى نظرية المعرفة وفى علم الاخلاق ٠ وصحيح أن الفلسفة الديكارتية قد عبرت عن العقلية الكلاسيكية وصاغتها ، ولكن مهما كانت العلاقات بين هذه الفلسفة وبين التراجيديا ،

فمن الواضح أن التراجيديا لا تعبر تعبيرا مباشرا عن مضمون ذلك المذهب التعميمى ٠

● واما اليوم ؟ ٠٠٠

ـ أما اليوم فأظن أن الفلسفة قد أصبحت درامية ٠ لم يعد الأمر أمر تأمل لسكون كل جوهر وماهيته ، ولا هو محاولة الاهتداء الى قواعد لتتالى الظواهر ، وانما الأمر أمر الانسان الذى ينتج مسرحية حياته ويمثلها بأن يعيش متناقضات وضعه حتى تتحطم شخصيته أو يصل الى حل لما يتنازعه ٠ والمسرح ـ دراميا كان ، أو ملحميا كمسرح بريخت ـ هو أصلح الأشكال فى عصرنا لتقديم الانسان خلال الفعل ٠ فهذا هو حال الانسان الذى تهتم به الفلسفة من وجهة نظر أخرى ٠ لذا كان المسرح فلسفيا ، وكانت الفلسفة درامية ٠

● اذا اصبحت الفلسفة مسرحا كما تقول ، فلماذا لم تقتصر فى اعمالك على تاليف كتب فلسفية ؟

ـ لقد أردت أن أكتب قصصا ومسرحيات قبل أن أعرف ما هى الفلسفة بوقت طويل جدا ٠ وسأظل أرغب فى كتابة القصص والمسرحيات ما حييت ٠

● بالنسبة اليك لا بد ان يكون الادب ملتزما دائما ٠ فما هى حدود الالتزام ؟

ـ اذا لم يكن الأدب كلا بتمامه ، فانه أدب لا يستحق منا عناء ساعة واحدة ٠ هذا ما أعنيه بالالتزام ٠ ان الأدب سرعان ما يجف اذا اقتصر على البراءة والتغنى بالأوهام ٠ واذا لم يتردد صدى العبارة المكتوبة على جميع مستويات الانسان والمجتمع ، فهى عبارة خاوية لا معنى لها ٠ ان أدب عصر من العصور ، هو ذلك العصر وقد استحال أدبا ٠

● لقد اتهمك خصومك بانك لا تحترم الادب ، ولا تاخذه ماخذ الجد ، وانما تريد ان تجعله تابعا للسياسة ٠ فما رايك فى هذا الاتهام ؟

ـ كان أحرى بهم أن يتهمونى بأنى أسرف فى تبجيل الأدب ٠ فجمال الأدب فى نظرى هو أن يكون كلا ، لا فى أن يلتمس الجمال التماسا عقيما ٠ فالكل التام وحده هو الذى يمكن أن يتصف بالجمال ٠ والذين لم يفهموا عنى هذا ، عمدوا الى مهاجمتى لا باسم الفن كما يزعمون ، بل باسم التزام معين لا يعترفون به ٠

● وهل يوجد بين ادباء اليوم من يطبقون آراءك ، ای يعملون من اجل مزيد من الحرية فى التزام كامل ؟ من هم الكتاب المعاصرون الذين تعيرهم اهتمامك ؟

ـ هناك أدباء موهوبون بارعون ، مثل « ميشيل بوتور » و « صامويل بيكيت » ٠ وتجتذبنى أيضا أعمال « روب جرييه » و «ناتالى ساروت » ٠ ولكن اذا نظرنا الى أعمالهم جميعا من ناحية الشمول ، أستطيع أن أقول ان واحدا منهم فقط تمكن من صياغة المشكلة بوضوح ووفق مقتضيات العمل الأدبى من حيث هو كل ، وأعنى به « ميشيل بوتور » ٠ أما الآخرون فلا يسعون الى الكلى فى أبحاثهم ٠

● هل تلومهم على انهم حددوا مجالات تجاربهم ؟

ـ كلا ! ألومهم لو أنهم ادعوا أنه لا توجد موضوعات أخرى سوى موضوعات أبحاثهم ٠ والحق ان لكل تجربة قيمتها ٠ ومن تجاربنا المختلفة ، المنفصلة ، يتألف واقع الأدب بجملته ٠

● وماذا عن خبرتك الخاصة بالأدب واشتغالك بالكتابة ؟ هل حققت ماكنت ترجوه من استغلال القلم ؟ هل انت راض ومتفائل ، ام تاسف لآمال خابت ؟

ـ لم تخب آمالى أبدا ٠ فيما يختص بعملى، جرت الأمور دائما على وجه حسن ٠ لقد انصرفت عن بعض الكتب التى بدأتها لأنى لم أعرف كيف أستكملها ، ونشرت كتبا غيرها كنت أتوسم فيها الجودة ، ولكنها لم تحظ برضا النقاد ، وتبين لى أحيانا أننى أخطأت وأن النقاد أصابوا ٠ على أن هذا كله من مقتضيات المهنة

ولأي مهنة أحكامها التي لا تناسب هوى أصحابها .

الذي أريد أن أقوله هو أن الاشتغال بالكتابة فى حد ذاته لا يمكن أن ينطوى على خيبة أمل . وقد يبدو لك أننى أخلط فى الكلام ، ولكن لهذا شرحا طويلا ، موجزه أن النجاح فى مجال التعبير هو الفشل لا محالة . لست أتحدث عن ألوان اللبس وسوء التفاهم التى تفسر رواج كتب الأدباء الارستقراطيين فى القرن الماضى ، وانما أتحدث عن النجاح فى الأداء ، النجاح التكنيكى . هذا نجاح لا سبيل اليه ، فكيف ـ مثلا ـ يعبر المرء عن الحركة بما هو جامد أى بألفاظ ثابتة ؟ ان هناك هزائم صغيرة من هذا القبيل ، لا تلبث أن تتكاثر وتتكدس حتى تسد الطريق على الكاتب وتمنعه من التقدم . وفى تلك اللحظة ـ كما يقول صديقى الفنان « جيا كوميتى » ـ يستطيع المرء أن يرمى التمثال الذى نحته ، أو أن يعرضه على الجمهور . فلقد خرج الأمر من يد النحات أو الكاتب ، وأصبح بين يديه تمثال أو كتاب أو مقلوب التمثال المقصود والكتاب المقصود . واذا كانت الهزائم الفنية التى يسجلها العمل هى الصورة السلبية ـ بشكل منهجى ـ للأصل المنشود ، فان المشاهد هو الذى ينحت التمثال فى الفضاء عندما ينظر اليه ، وان القارىء هو الذى يصنع الكتاب حين يطالع ما بين السطور .

● هذا رأى عميق ، يفضى بنا الى الحديث عن الجمهور . فماهى علاقتك بالجمهور ؟ وكيف تطورت ؟ لا بد أن للجمهور أثرا هاما فى أعمالك مادمت تعترف للقارىء بهذا الدور فى حياة الكتاب .

ـ ما أشد ارتباط الكاتب بعصره ! ان المجتمع القومى الذى نعيش فيه اليوم لا يدع للأديب أن يتفرد بقصة شخصية ، وانما سيرة الأديب هى سيرة جمهوره . أذكر ـ ونحن فى شبابنا ـ أننى قررت مع سيمون دى بوفوار ، بعد التفكير مليا فى عطلة قادمة ، أن نسافر الى الجبل كى نمارس رياضة الانزلاق على الجليد . وأدهشنا أن نجد فى المحطة جميع أساتذة المدارس الثانوية بباريس يتأهبون مثلنا لركوب نفس القطار ! معنى ذلك أننى لن أعبر عما أحس به ، ما لم أتأكد من أن الناس جميعا يحسون به . اذن عندما أكتب ، أود أن أقول ما أشعر به كسائر الناس .

● من أى الفئات يتألف جمهورك ؟

ـ من الطلبة ، والأساتذة ، وهواة المطالعة الجادة . وأولئك جميعا يؤلفون دائرة صغيرة جدا . وليست العبرة بعدد النسخ التى يطبعها الناشرون . فالجمهور دائما هو هو ، لا بالنسبة لى فقط ، بل بالنسبة لكل المصابين بداء الكتابة .

والصحفيون يذهبون مذهبا غريبا : يستعرضون أعداد النسخ المطبوعة،ويستنبطون متوسط التوزيع ، ويقارنون بين ما يرد فى قوائم احصائيات فاسدة الأسس ، وأخيرا ينطقون بأحكام تقديرية . انهم يخلطون بين معنى توزيع جرائدهم ومعنى توزيع كتاب من الكتب . ومعنى توزيع الكتاب قد يصدق ـ على هذا النحو ـ فى البلاد التى تتولى فيها الدولة أمر النشر ، كالاتحاد السوفيتى ، لأن الجمهور هناك اذا طلب طبعة جديدة من أعمال « زولا » مثلا فهو فى حاجة فعلا الى قراءة « زولا » . أما فى بلاد الرأسمالية الحرة والمشروعات الخاصة ، فلا معنى للأرقام . وأى رابطة بين هذه السيدة الأنيقة المترفة التى رأيتها أخيرا فى أحد المطاعم الفخمة تقلب صفحات قصة « آخر الأبرار » ، وبين هذه القصة التى حاول فيها مؤلفها « شوارتز بارت» أن ينقذ الموتى الذين قتلناهم ؟

ان تلك السيدة المتنعمة ذات الوجه الجامد الغبى ليست حقا من قراء ذلك الكتاب !

● ولكنك لم تجب عن سؤالى اجابة وافية . هل تشعر شخصيا بالنجاح أم بالفشل ؟ هل يمكنك ان تقول ان اشياء معينة قد تغيرت بسبب ما كتبته؟

– لم يتغير شيء واحد . على العكس ، منذ شبابى الى الآن قمت بتجربة العجز الكامل . ولكن ليس لهذا أهمية قط . فى أول عهدى بالأدب ، أنشأت كتبا لا تواجه المشكلات الاجتماعية بصورة مباشرة ، ثم كان احتلال المانيا لفرنسا ، فبدأنا نفكر فى وجوب العمل . وبعد الحرب ، رأينا أيضا أن الكتب والمقالات قد تنفع الناس وقد تؤدى الى اصلاح الأمور . غير أنها لم تنفع ولم تصلح شيئا ، ثم خطر لنا – أو خطر لى على الأقل – أن الكتب التى تحمل أفكارا مدروسة ، ولا تدور حول الاحداث القائمة على وجه التحديد ، من شأنها – مع الزمن – أن تعين الناس وأن تنتهى الى تبديل الحال ... بيد أن هذا أيضا لم تكن منه أى جدوى ، فما هكذا يؤثر المرء فى الناس ، وانما كانت النتيجة أن يرد على بعض الشباب آرائى مشوهة ليصفعونى بها (وهم على حق ، فقد كنت أفعل مثلهم) .

● ومع ذلك فليس جميع الذين أثرت فيهم قد تحولوا الى الهجوم عليك ! الم يغمرك السرور أبدا وأنت تتعرف نفسك فى جماعة منهم ؟

– طبعا . ولكن أرجو أن تفهمينى : فلكى يستأثروا بتقديرى ، ينبغى أن يفعلوا شيئا لم أفعله أنا . وما دمت على قيد الحياة ، فلا بد ان يكون ذلك معارضا لما أعمله . ان الذى يخضع سلبيا للتأثير ، لا يستحق التقدير . ولو تعرفت نفسى فعلا فى شخص ما ، لأثار سخطى : اذ ما باله يعيد ما سبق لى أن صنعته؟ أما اذا أعجبنى كاتب (أو قارىء شاب ممن لا يكتبون) ، فذلك لأنه يحيرنى قليلا فى بادىء الأمر ، ولا بأس أن أكشف فيما بعد وراء الجديد الذى راعنى صورة قديمة لنفسى، ممسوخة أو باهتة .

جملة القول أن شرف القراءة فى أن يتأثر القارىء تأثرا حرا . وهذا يكفى لمحو أسطورة سلبيته ، فهو يبتكرنا ابتكارا وينصب لنفسه من خلال كلماتنا شراكه الخاصة . انه نشيط، انه يتجاوزنا ، ونحن نكتب لهذا الغرض . لذلك لم أشعر أبدا بخيبة أمل فى مزاولة مهنتى – مهنة الأدب .

● اى انك ترى ان تاثير الكاتب حافز لأصالة القارىء، اما زلت ترى ان الانسان يشكل عصره ؟

– ان التاريخ يصنع الانسان والانسان يصنع التاريخ .

● هل تقصد اننا مسئولون عن الاتجاه الذى يتخذه التاريخ فى سيره؟

– أقصد أننا مسئولون عن اتجاه التاريخ من ناحية ، متواطئون معه من ناحية أخرى .

● فما فائدة الأدب ؟ انك تثور على نزعة العنف والوحشية التى اشتدت فى تاريخنا المعاصر ، ثم تعترف بعجز الأديب عن الاصلاح . فلماذا تواصل الكتابة ؟ وما الدور الذى تسنده للادب فى هذا الحال ؟

– ان الانسان يعيش وسط ما يحيط به من الصور . والأدب يقدم له صورة نقدية من نفسه .

● أى ان الأدب مرآة ؟

– مرآة ناقدة . انه يظهر ، ويدلل ، ويمثل وهذا هو الالتزام . وبعد ذلك ، ينظر الناس الى صورهم ويفعلون ما يشاءون .

● أليست مهنة الأديب على هذا النحو مهنة غريبة ؟ فانهاتقتضى – بلا شك – طاقة عظيمة ، ولكنها تنطوى أيضا على نوع من الضعف !

– لقد اخترت الأدب شخصيا لمواجهة الموت ولأننى كنت قد فقدت الايمان بالله .. منذ صباى كان الموت يخيفنى جدا . والمؤمنون يلوذون بفكرة الخلود ، أما أنا فقد صببت فى ميلى الى الكتابة رغبتى فى الخلود – فى خلود أدبى طبعا . ولقد انصرفت عن فكرة الخلود

الأدبي فيما بعد ، الا أنها كانت بلا شك محط آمالي في البداية .

ان المسيحي المؤمن لا يخشى الموت ، اذ يجب عليه أن يموت لكي يبدأ الحياة الحقيقية، وما الحياة الأرضية بالنسبة اليه سوى فترة محن وتجارب تؤهله للمجد السماوي. وهذا يفترض واجبات محددة ، وسلوكا معينا . لقد أخذت هذا كله وطبقته في عالم الادب ، بحيث أظل زاهدا مغمورا طول عمري كي أنال الحياة الأبدية بمثابرتي على الكتابة والاخلاص لمهنتي ، وهكذا أدخل المجد يوم وفاتي . ودارت في ضميري معارك خطيرة : أينبغي أن أحيط بكل شيء علما حتى أتمكن من الكتابة عن كل شيء ؟ أم ينبغي أن أعيش عيش الراهب لكي أقف وقتي بأكمله على تجويد عباراتي وصقلها ؟ على أي حال ، كانت المسألة المطروحة هي مسألة الغاية الكلية . وكانت الحياة الادبية في خيالي رسما منقولا عن صورة الحياة الدينية .

وظللت لا أدرك ذلك حتى بلغت سن الأربعين ، ولم يكن لجهلي من سبب سوى انني لم أسأل نفسي قط عن الدواعي التي تدفعني الى الكتابة . كنت أجادل في كل شيء وأناقش كل شيء ، ما عدا مهنتي . وذات يوم ، رحت أكتب خواطر عن الأخلاق ، واذا بي الاحظ أنني كاتب يصوغ نظرية أخلاقية للكتاب، وهو يزعم أنه يتحدث الى من لا يكتبون ! وهذا ما أرغمني على البحث عن مصدر ذلك المذهب الغريب في طيات الطفولة ...

والحق أن في الاستجارة بالأدب من الموت ضعفا . والأديب الذي تتقدم سنه ، ويدنو أجله ، لا يكاد يرى في المجد الأدبي معنى أو امتدادا لحياته . فكلما ازدادت واقعية الموت ازداد زيف المجد في أعيننا وأصبح مجرد خداع .

● هذه هي حكمة التواضع الانساني وانها لتروعنا من اديب حاز اكبر جائزة عالمية - جائزة نوبل - ثم رفض ان يتسلمها !

- هل تظنين أن في جائزة نوبل تشريفا حقا للأدب الفرنسي ؟ فلقد منحت لشاعر سطحي مثل ، سولي برودوم Sully Prudhomme ولم يفز بها شاعرنا العظيم « مالارميه » !

● عفوا ! هذه مغالطة . فاني اذكر ان « مالارميه » قد توفي عام ١٨٩٨ ، اي انه لم يكن حيا عندما اعطيت جائزة نوبل سنة ١٩٠١ لسولي برودوم !

- لا بأس ! هناك أمثلة أخرى كثيرة لشعراء كبار أخطأتهم جائزة نوبل . وحسبي أن هذه الجائزة قد منحها أصحابها لباسترناك قبل شولوخوف ، فكان الأثر السوفيتي الوحيد الذي توجته - منذ انشائها حتى عام ١٩٦٦ - كتاب مطبوع خارج روسيا وممنوع تداوله داخلها . ولو أن هذه الجائزة جاءتني أثناء حملتي للدفاع عن حق الجزائر في الاستقلال ، لكنت قبلتها شاكرا ، لأنها ما كانت لتكرمني وحدي ، بل تؤيد قضية الحرية التي كنا نناضل من أجلها .

● انك تنظر الى جائزة ادبية من زاوية السياسة .

- أجل ، اني أضع في الاعتبار أن لجائزة نوبل طابعا سياسيا . ولو قبلتها لانتميت الى معسكر أصحابها . على أن الأمر يختلف اذ كنت عضوا في حزب معين ، كالحزب الشيوعي مثلا فقد كانت في هذه الحال ستعتبر ممنوحة للحزب لا لشخصي . أما وأنا رجل منعزل عن الأحزاب ، فلا سبيل الى أن أقبل جائزة دون أن أفقد استقلالي .

● ما دمت تميل الى الاشتراكية ، فهل تقبل جائزة « لينين » لو اراد الروس اهداءها اليك ؟

- كلا ، ولنفس السبب . اني أرفض أي تكريم يصدر عن القيادات الثقافية ، في الشرق أو في الغرب على السواء . أنا أدرك أن مواجهة كتلة لأخرى لا بد أن تتخذ صورة النزاع بينهما ولكن هذا النزاع ينبغي أن يدور بين الثقافتين أي بين الأفراد لا بين المنظمات . اني أحس احساسا عميقا بالمتناقضات بين الثقافتين ، بل

انى من صنع هذه المتناقضات : فعلى الرغم من نشأتى فى أسرة بورجوازية وبيئة رأسمالية ، تجتذبني الاشتراكية التى هى مذهب الكتلة الشرقية ، مما يتيح لى فى نهاية المطاف أن أتعاون مع جميع من يفضلون الاقتباس من الثقافتين معا ، بدلا من الانحياز الفكرى ٠

● هذا أنسب موقف يقفه المفكر النزيه فى عصر التعايش السلمى ٠ ولكن بعض الصحف قالت انك رفضت جائزة نوبل لأسباب شخصية ، كغضبك لأنها منحت لكامى قبل ان تمنح لك، او خوفك من ان تصيب الغيرة «سيمون دى بوفوار » !

– لى على هذه المزاعم الصغيرة جواب بسيط وهو : لو كانت لنا فى فرنسا حكومة جبهة شعبية كما أتمنى ، وشرفتنى تلك الحكومة بجائزة ، فقد كنت سأقبلها بسرور ٠ وعلى الكاتب الحر أن يتنبه دائما الى مغزى أى تكريم رسمى يوجه اليه ، وأن يحذر الوقوع فيما يحرجه ٠ لقد سبق أن رفضت عقب الحرب وسام جوقة الشرف ، مع أن بعض الوزراء فى ذلك العهد كانوا من أصدقائى ، ورفضت بالمثل منصب الاستاذية فى « الكوليج دى فرانس » انما على الكاتب الذى يتخذ موقفا سياسيا أو اجتماعيا أو أدبيا الا يستعين بغير السلاح الوحيد الذى خلق له ، أعنى بالكلمة المكتوبة ، وأن يأبى كل تكريم رسمى يتمثل فيه نوع من الضغط على القراء ٠

● قلت منذ لحظات ان الادب قد حل عندك محل الدين ، وانك صححت لنفسك هذه الفكرة القديمة حينما بلغت سن الاربعين ٠ فما هو قدر الادب او ما هى وظيفته لديك الآن ؟

– أكرر ما ذكرته من أن عمل الكاتب الملتزم هو أن يعرض ويبين ويدلل ، وأن يبدد الأوهام والمحظورات والأساطير باخضاعها للنقد ٠ وقد يتاح لغيره أن يبتكروا من خلال ما كشفه أساطير أخرى جديدة أو ربما – كما حدث لـ « بوشكين » أو فى العصر الاليزابيثى – ربما أصبح الأسلوب الفنى الأنيق معادلا للكفاح السياسى اذ يبين به الأديب لقومه امكانيات اللغة التى تربطهم فى اللحظة الحاسمة التى يتقرر فيها مصير وحدة الأمة ٠ ولكن هذه الفرص لم تعد تسنح لنا ٠ وأخشى أن تقل اليوم وتندر تلك الحوافز التى كانت تدفع الناس نحو الأدب ٠

● هل ترى ان الناس اقل رغبة فى الكتابة مما كانوا ؟

– انهم يرغبون فى الكتابة ، دون أدنى شك ٠ ولكن : هل يرغبون فى التفرغ للكتابة ويريدون الا يفعلوا شيئا غير الكتابة ؟ لعل الأدب ينبع فى المستقبل عند أى شخص يتناول القلم ، ثم يختفى ليظهر عند جاره ، وعلى هذا النحو ينتهى وجود الأدباء ، ولا نصادف الا أناسا عاديين ، يكتبون من حين لآخر ، الى جانب ما يزاولون من نشاط ، اذ ذاك يصبح الأدب أصدق ، يصبح استجابة مباشرة للحاجة الى الكتابة التى يشعر بها الجميع ولكنهم يهابون أن يلبوها ويتنزلون عنها للأدباء ٠ وكأننا نحن صفوة مختارة ، لدينا تفويض خاص بمقتضاه نكتب دون سوانا ٠ وهذه أكذوبة ، تتغلغل فى نفوس الناس بفعل الطباعة والصحافة ٠ والحق أن الناس يقرأون لأنهم يريدون أن يكتبوا ٠ وما القراءة الا محاولة لاعادة كتابة ما نقرأه ٠

ذلك أن الناس يكتشفون أنهم فى حاجة الى التعبير عن حياتهم ٠ أثناء الفترة التى قضيتها فى الأسر ، عرفت فتى كان طفلا لقيطا ونشأ نشأة المتشردين ، ثم جند لما قامت الحرب ٠ وتلقى – وهو فى الجيش – رسائل تخبره بأن زوجته تخونه ، فاستأذن من قائده ورحل ومعه بندقيته الى بلدته ، وهناك وجد زوجته فى أحضان عشيقها ، فقتلهما وعاد فسلم نفسه للبوليس الحربى واعترف بجريمته ولحسن حظه استولى الألمان فى مايو سنة ١٩٤٠ على السجن الذى حبسه فيه الجيش الفرنسى تمهيدا لمحاكمته ، وأخرجوه منه واقتادوه الى أحد معسكرات الاعتقال فى المانيا ، حيث لم تعد جريمته تقع تحت طائلة القانون والعقاب وكنا – نحن زملاءه – نعرف قصته ٠ ولكن

ذلك لم يكن يكفيه : كان يحس أنه قد سلب حقه ، فهو يريد أن يعيش مأساته العاطفية ، ولا يرضى بأن يدعها للحداد الساكن الذى يحولها شيئا فشيئا الى مجرد ذكرى عابرة لا تكاد تمسه • ماذا يفعل ؟ خطر له أن يكتب قصته • وكتبها ، أى اخترعها ، لكى يمتلكها بأتم وضوح ، ولكى تمتلكه فى الوقت ذاته ، وتقيم فى داخله ، وتثبت فى صورة موضوعية

● وهل تعتبر مثل هذه القصة عملا أدبيا ؟

– لقد قرأت تلك القصة ، وكانت رديئة جدا • على كل حال عندما يهم المرء بالكتابة، تبدأ المشاكل • وقد شرح « بلانشو » شرحا رائعا كيف تؤدى رغبة الانسان الأولى فى أن يقول كل شىء ، وأن يفصح عن كل شىء الى نقيض ما يقصده ، فانها تفضى به الى أن يحجب الأمر عن نفسه تماما • ان أطوار الشعور والسلوك متشعبة غامضة ، مختلطة • وهناك من ردود الفعل الداخلية ما يقف نموها ، أو ما يسد طريقها الأصلى • هناك آفات كثيرة، وتصدعات ، وعوائق • لذا لا يعيش الانسان مأساته بادراك المأساة ، ولا يبلغ اللذة حين ينصرف الى اللذة •

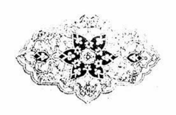
● اذا كانت الكتابة تلبية لحاجة فى نفس الكاتب ، فان المرء يحقق غايته من التعبير بمفرده ، ولا شأن له بمخاطبة القراء • هل تتصور كتابا يؤدى غرضه بدون قارىء ؟

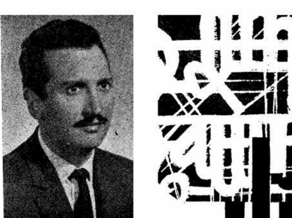
– لا بد من القارىء ، لا بد « للصرخة المكتوبة » – على حد تعبير جان كوكتو – من ذاكرات تحفظها وتدمجها بالعقلية الموضوعية •

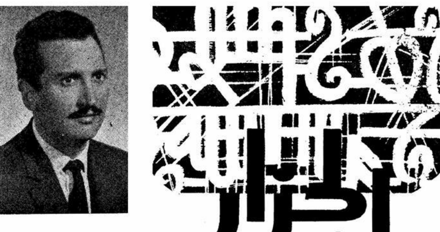
● هل يحق لى ان افهم من حديثك هذا ان الأدب فى رأيك ليست له قيمة مطلقة ؟

– لقد انقشعت أوهامى فيما يتعلق بالأدب: واليوم أعلم أن الأدب لا يستطيع أن يمنح الخلاص لانسان ، أو أن يغير الناس مجرد تغيير الا فى حالات خاصة جدا • كلا ،ليست للأدب قيمة مطلقة ، وانما يواصل الأديب الكتابة ، لأنه وضع كل ما يملكه فى الكتابة • كما نواصل العيش مع أشخاص لا نحرص على عشرتهم ، ونحرص عليهم من ناحية أخرى لأنهم أهلنا وأفراد عائلتنا •

ولكنى أوقن – وسأظل أوقن – بأن الكتابة حاجة لازمة لكل انسان • وهى أرقى أشكال الحاجة الى التواصل •







فنان الثورة ..

بقلم : حسين يوسف أمين

- لم يقبل هذا الفنان الثائر أن يكون مهادنا فى فنه
- لم يقبل أن تسود حياتنا الفنية والثقافية التبعية ومركب النقص

ان هذا الفنان الشـــاب قد افتقدناه بل افتقدته مصر والأمة العربية فى الوقت الذى كنا فيه أحوج ما نكون اليه ٠ طواه الموت بعـد رحلة قصيرة من العمر ولكنهـــا رحلة طويلة شاقة حافلة بالجهاد صارع خلالها بشـــجاعة تيارات الرجعية وللخلاص من آثار التبعيـــة ومركب النقص الذى كان يسود حياتنا فى العهد الماضى ٠

ولكنها كانت أيضا رحلة طويلة غنية مليئة باعظم مجهود فنى ثورى فيما بعد الثورة التى كرمته قبل مماته بقليل فمنحته جائزة الدولة التشجيعية تقديرا لنبوغه وعرفانا بفضلـه وكفاحه فى سبيل تطوير الفن وجعله فى خدمة المجتمع ، ولما قدمه من انتاج فنى ضخم فريد فى قيمته وأسلوبه رائع وصادق فى جميع أعماله ولوحاته معبرا فيها عن آمال الشـعب ونضاله ٠

ان قيام الهيئات الفنية والكليات والمتاحف والمعارض والصحافة الآن بواجب الوفاء لهـذا الفنان بمناسبة مرور العام على وفاته مهمـــا بلغ مداه ، وتخليد وتكريم ذكراه مهما بلغ اقصاه ، ليعجز عن أن يوفيه حقه من التقدير ٠



فى عصر ما قبل الثورة كانت الفنون التشكيلية فى مصر تظهر من خلف اطار مرسوم بالشكل الذى كانت ترتضيه طبقة البرجوازيين ومعظمها من الاقطاعيين مما جعل الانتاج الفنى فى هذا الوقت يسير فى معظمه وفق هواها متأثرا بكل ما هو أجنبى بعيد عن التراث •

لولا أن مجموعة من فنانى الرعيل الأول استطاعوا بوحى من فطرتهم السليمة وبالرغم مما كانت تفرضه عليهم هذه الطبقة من حصار أيدلوجى معين أن يتخلصوا أحيانا من هذا الاطار المعقد وأن يحققوا أعمالا هى موضع التقدير •

ومع هذا فغالبا ما كان يسود هذه الفترة فن آخر ... كان فنا ناعما للمتعة فقط ـ للبهجة والتفاخر والزينة ـ لا يعيش الا فى القصور • كان فنا مهادنا يتلاءم مع عواطف ومشاعر بل ومصالح هذه الطبقة من المترفين يعكس دنياهم ويخفى من وراء هذا الاطار نزعاتهم ورغباتهم وميولهم الخاصة • كان فنا لينا سهلا لا يعبر عن حقيقة واقعنا حتى ولا تراثنا • كان فنا بعيدا عن الجماهير وعن الطبقات الكادحة والمناضلة لا يتفاعل مع أحاسيسها ولا مع البيئة وأمانيها القومية ولا مع الأحداث •

وبالجملة فقد كان فنا خاليا من هدف بناء أو مثالية رفيعة تتفق مع جوهر الحياة وتطورها وتعبر عن رأى أو تكشف عن رؤيا جديدة تنفع الناس •

نتيجة لذلك فقد الفن فى هذا الوقت أهم مميزات مقوماته ـ الحرية والخلق والابداع ـ فعجز عن التعبير بعمق عن طابع الشخصية المصرية الصميمة ، وعجز عن الكشف عما تطويه فى داخلها من أصالة بالأسلوب العلمى والشعور الواعى المثقف وما يتمشى مع فهم طبيعة الاشياء وبالشكل الذى يتفق مع تطورات عصرنا الحديث •

فى ذلك الوقت سنة ١٩٣٨ بدأ الجزار مرحلته الأولى التحضيرية والتى بدأت مع قيام حركات هامة تقدمية ساعدت على بلورة استعداداته وابراز مواهبه وشخصيته فاستفاد من تعاليم مدارس علم النفس والتربية الفنية التى كان لها أكبر الأثر على الحركة الفنية المصرية المعاصرة ، وعاونت على أسس علمية متعددة الجوانب فى فهم وتطوير العمل الفنى• هذه المدرسة التى نادى بها وعمل على نشرها فى القاعدة الشعبية بذكائهما الفنى أحمد شفيق زاهر ومحمد عبد الهادى • وكان لهما الفضل فى انشاء المعهد العالى للتربية الفنية بمعاونة يوسف العفيفى الذى عهد اليه مع آخرين بالتوجيه الفنى والتربوى فى هذا المعهد•

فى هذه المرحلة الهامة من تاريخ الجزار والتى بدأها سنة ١٩٣٨ واستمرت الى عام ١٩٤٦ ظهرت مميزات شخصيته كفنان وسجل فيها أروع الاحاسيس الفنية •

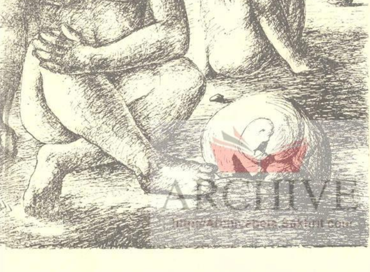
وكانت عن الكون والانسان • كيف نشأ وكيف عاش فى هذا الوجود على مر العصور مع الطبيعة المجردة فاخرج أعمالا فنية نادرة كانت موضع الدهشة فى الأوساط الفنية فى مصر والخارج بل ومحل اعجاب وانبهار وتقدير النقاد العالميين فى الفن أمثال: فيليب دارشكوت بلجيكا • وولهلم فيولا • بالنمسا • ومرييل فى فرنسا • وراسل وريد فى انجلترا •

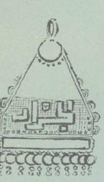
وأخيرا سارتر الذى أبدى اعجابه وانبهاره بأعماله عندما زار معرض الفن الحديث واجتمع فيه بالفنانين العرب أثناء زيارته الأخيرة لمصر مع سيمون دى بفوار •

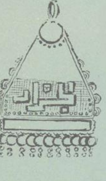
وكانت أهم لوحاته فى هذه المرحلة • آدم وحواء • الانسان والقوقعة • الكهف والرجل البدائى • الكائنات والأرض • وقد عرضت هذه الأعمال فى المعرض الأول لجماعة الفن المعاصر التى تكونت مع رفاقه سنة ١٩٤٦ وأصدروا بيانهم الأول جاء فيه : ـ

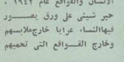
البيان الأول

تتفاوت قيمة العمل الفنى بقدر ما تختلف نسبة امتزاج الفكر والاحساس معا • والفنان بعيد عن كل القمم التى يامل الوصول اليها ما لم يطو فى نفسه الفيلسوف• وهو راكد بعيد عن روح عصره ما دام يسجن نفسه مع القيم الشكلية او الأوضاع الجمالية المجردة التى تنطوى على نفسها فتطوى معها الفنان فى جمودها الابدى او ابراجها العاجية المحدودة • فالفكر الذى ثبت لنا قطعا انه يسلك طريق التطور اللانهائى هو الذى يغذى الاحساس الفنى ليطبعه بطابع العصر • والاحساس المجرد ثابت فى كل العصور المتتابعة اما المستوى الفكرى فهو دائما متغير ولذا نلحظ تغيرا فى فنون تلك العصور • فمن سحر الغموض فى الفن المصرى او البدائى الى روحانية الفن









الانسان والقواقع عام ١٩٤٢ ، حبر شينى على ورق يصـور فيهاالنساء عرايا خارج ملابسهم وخارج القـواقع التى تحميهم

المصرى أو الصينى ، الى مادية الفكر فى الفن الاغريقى ، ثم اختلاط الامرين ـ الفلسفة المسيحية والنزعة المادية ـ على الفنان الكلاسيكى ، وأخيروا غزو الطبيعة وسيطرة العلم والوعى بالاوضاع الاجتماعية وبمدى ارتباط الفن بالحياة ، كل هذه العوامل كانت لها علاقة كبـيرة بالفن لا يمكن انكارها سواء اعتبرناها نتيجة لحالات فنيـة صرفة ، أو ينابيع ينهل منها الانتاج الفنى غذاءه ٠ وفى كلتا الحالتين فان الفن المعاصر وفى مقدمته السيرياليزم ، يأبى فى درجة تكامله الا ان يقف جنبا الى جنب مع الفكر الحديث ٠ وهو يهدف الى عكسى ما ترمى اليه الفنون السطحية التى تتجاهل سر الحياة وسر علاقاتنا فيها ، ويدفع عن طريقه أولئك الذين ينزوون خلف ستائر تلك الفنون ليتخذوا منها وسيلة لستر القيم الحقيقية لهذا الوجود ٠

وان الدعامة التى بنينا عليها مثاليتنا ـ نحن جماعة الفن المعاصر ـ هى الصلة الوثيقة بين الفكر والفن واعتبار كل من التصـوير والنحت والموسيقى ٠٠٠٠٠٠ كالادب وسيلة لنقل فلسفة ما ٠ وهى التى تدفع أعمالنا الفنية للظهور ، لخلق قيم جديدة تحل محل النسيج الفكرى الكامن وراء فهم الناس للطبيعة وعلاقاتهم فيها على أساس غير صحيح ٠

ابراهيم مسعودة ـ حامد ندا ـ سمير رافع ـ سالم عبد الله الحبشى ـ عبد الهادى الجزار ـ ماهر رائف ـ كمال يوسف ـ محمود خليل ـ حسين يوسف أمين ٠

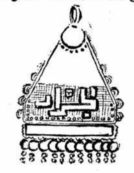
ويتضح من هذا البيان أن الجزار ورفاقه لم يقبلوا أن تنتاب عقولهم ومشاعرهم نوبة من نـوبات مركب النقص أمـام تيـارات بعض المذاهب الفكرية الوافدة من الخارج التى كانت تستهوى أحيانا بعض المثقفين ٠ وتشدهم اليها بل وقفوا منها موقفا آخر يخدم أغراضا تقدمية خالصة من نوايا الفلسـفات المتصارعة التى ظهرت بعد الحرب العـالمية الثانية ٠ موقفا واعيا يخدم حياتنا القومية ويخرجها من حالة

التخلف التي كانت تغلف حياة الشعب وتطغى على جميع المجالات الفكرية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

ووقفوا منها أيضا موقفا آخر محددا أمام تيارات المدارس الفنية الوافدة من الغرب فلم يستسلموا لها باتباع مظاهرها بل حافظوا على شخصياتهم واتجاهاتهم الذاتية ووازنوا بين ما تمليه عليهم طبيعة الارض التي يعيشون فيها وبين هذه التيارات من جهة وبين ماتتطلبه روح العصر من جهة أخرى .

وبانتهاء المرحلة الاولى سنة ١٩٤٦ وكان الجزار يبلغ من العمر الواحد والعشرين عاما انتقل الى مرحلة أخرى في ظروف قاسيه وقد نضج فيها فكره وعقله وتفتح على مأساة بلده وهي مقسمة نهبا بين الاستعمار والاقطاع . وكانت تتمثل أمامه فصول هذه المأساة وهو يعيش في حي السيدة زينب عندما كانت تتجمع الحشود من البشر وهي تمشي في بحر من الغموض تلفها ثياب من التقاليد البالية والمتناقضات . وهي تحمل الاعلام والبيارق عليها اسم الله لعلها تجد فيها الحماية من ظلم الانسان لاخيه الانسان . وعندما كانت هذه الحشود تقف في حلقات الذكر يقودها شيخ طريقة ينشد التسابيح ممسكا بيديه الصناجات وهي تتمايل كالدمى وتتراقص بل وتتلوى مع أنغامها وفي الحقيقة كانت تتلوى من الجوع وتتراقص كالطير المذبوح .

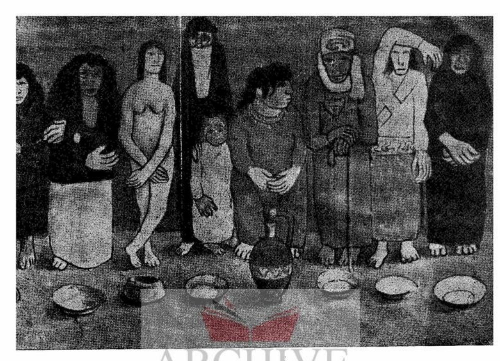
نعم لقد تفتح عقله وذهنه وهو يرى طوائف الناس في سذاجة بريئة وبساطة أهل الريف وهي تتمسح بجباهها بالاضرحة لتشفى نفسها



من علة أو مرض أو تحل عقدة وهي في الحقيقة تشكو من علل وعقد نفسية ترسبت في اللاشعور على مر الزمان . ويطوف الجزار بالجوانب الاخرى من أرض هذا المولد متنقلا بين مشاهد هذا المسرح القومي العجيب . فيرى أيضا عربة عليها نقوش وطلاسم يجرها حمار اعرج ينوء بحمله بداخلها عائلة السيرك وسرعان ما يلتف من حولها الصغار والكبار في حلقة كان يشبهها متهكما «بالمؤتمر العلمي» ويبدأ أحد أفراد عائلة السيرك وهو جالس على سلك معلق ممدود في الهواء يستعرض عجائب الدنيا ويحل كل المشاكل والعقد السحرية في خفة يد وبراعة ومهارة ، وهم في حيرة من أمرهم غير مصدقين كيف تعجز هذه القوة الخارقة عن حل مشاكلهم .

وهكذا ينتقل الجزار من ساحة الى أخرى من ساحات المولد المضاءة بمصابيح اللهب المتراقصة فترسم ظلالا على الحائط الممتد خلف سور السيدة .. من هؤلاء الناس تختلط مع طوائف المجاذيب ، وهو يرى كيف صاغ الزمن ملامحها في صور وأشكال وازياء مركبة من ألف لون مهلهلة وهي تنشد على دقات الدفوف وتردد في غيبوبة هستيرية مواويل وأزجالا يستشعر معها الواقفون من الملتفين حولهم انها تردد ما يختزن في أعماق نفوسهم فيأخذ منها كلا منهم ما يلائمه وينفس بها عن حاله .

ومع تباشير الصباح تنطفىء أنوار مصابيح اللهب وينفض المولد ويعود الناس لا كما جاءوا بل يعودون وفي قلوبهم الرضا بالمقسوم يحمل كل منهم عروسة أو فارسا على حصان . قطة أو سمكة . قطار سكة حديد أو دراجة . بركة من حلاوة المولد ـ بينما حرص البعض على أن يحصل على ما هو أهم من ذلك فاحتفظ في صدره بأحجبه من الشيخة سكينة بها أوراق صفراء ملفوفة بطلاسم مكتوبة ورموز منقوشة تكشف عن البخت ، وتبين الطالع . وتجلب السعادة . وتطرد الاسياد . وتمنع الحسد . وتنجب النسل . ويعيش الاطفال . كل هذا بقرش واحد .



(الكورس الشعبي أو الرفاق على مسرح الحياة)

ويعود الجزار الى منزله ولا ينام بل يظل مستيقظا يستعرض ما رآه ٠

وقد أثارت في نفسه هذه المشاهد والصور مشاعر الاسى والحزن والالم والتعاطف بينه وبين هذه الجماهير ، وكانت مرحلة حاسمة لمواجهة الموقف وكان لا بد أن يحدث شيء فلم يقبل الفنان الثائر الشاب أن يكون مهادنا في فنه مع هذه الاوضاع السائدة في مجتمع ذلك العهد ٠ ويدور مع رفاقه فيما بيننا حوار فكري ٠ كيف الخلاص ؟

ولما كانت قد تكونت جماعة الفن المعاصر منذ سنة ١٩٤٦ ، وكان شعارها ـ الفن والمجتمع ـ هدفها التعبير بصراحة وشجاعة عن حقيقة الواقع وكشف ونقد المستور من علل هذا المجتمع ٠٠ قدم الجزار مادته الفنية للدفاع عن هذه القضية من نفس صور هذه الحياة وعرضها في بلاغة فنية معبرا عنها ومستعرضا ومفسرا العوامل والبواعث المسببة لها مستندا في ذلك الى أسلوب تحليل نفسي عميق يذكرنا بأسلوب «بوش» ، بروبجل ٠ وجرنفالد ٠ بل ربما كان في ذلك أبلغ ٠ وسجل الجزار ذلك في لوحات كانت في منتهى الذكاء الفني في معالجة مثل هذه الامور ٠

القدر والمقسوم ٠ فرح زليخة ٠ أبو أحمد الجبار ٠ المجاذيب ٠ قارىء البخت ٠ العائلة ٠ مجموعة السيرك ٠ المجنون الاخضر العروسة ٠ مجموعة الرفاق على مسرح الحياة ٠ الكورس الشعبي ٠ الطعام والصحون الفارغة ٠

وقد عرضت هذه الاعمال واللوحات في المعرض الثاني لجماعة الفن المعاصر سنة ١٩٤٨ وصدر البيان الثاني جاء فيه :ـ

البيان الثاني

تسود العالم اليوم حركة فكرية تقدمية ليست بواعثها الاصلية هي مجرد الظروف الاقتصادية المباشرة كما تواضع الناس على فهمها في حدود هذا التعريف

الشائع دون ادراك ما وراءها من أسباب ، ولكن الباعث الجوهرى لها ولهذه الظروف الاقتصادية هو أن ادراك الانسان فى تطور دائم اخذ يحس - نتيجة له - قيما جديدة تطلعت نفسه لنوالها والسيطرة عليها .

ان فى تفتح احساسه الراكد ، وتنبه ادراكه وغير الواعى ، الطريق نحو السيطرة على هذه القيم الجديدة المحيطة به . والفنان هو المكتشف أو القائد الذى يفتح أمام الانسان ادراكه ويرهف حساسيته ويعمق نظـرته كخطوة للسيطرة . ان التناقض بين واقع الانسان من جهة ، ورغبته فى السيطرة التامة من جهة أخرى ، هو الذى يسبب هذه الهزة التى تعانيها الآن ، والتى من مظاهرها تعدد المدارس واختلاف النزعات .

وهكذا نستطيع أن نلمس الفرق الجوهرى بين الفن المعاصر والفنون الأخرى القديمة ، التى كان كل منهـا لا يتفق الا مع روح العصر الذى عاش فيه .. هذه الفنون التى كانت وليدة لظروف اجتماعية خاصة ، ولا تتمشى الآن مع رغبة الانسان فى التطور الحديث الذى يتطلع اليه بكليته .

لم يعد منطق الفن المعاصر يتمشى مع منطق هـذه الفنون التى نزل بعضها الى مجرد تسجيل المنظور ، فقد حلت محطة الفوتوغرافية الحديثة . واهتم بعضها بالبراءة والنقاء الفطرى ، وهذه لها حدودها الفكرية التى لاتتعدى حدود الطفل فى سذاجته المحبوبة ، ولا يمكنها أن تواجه العصر بتعقيداته ونزعاته العلمية المركبة . وبعض هـذه الفنون كان يستخدمها طلاب الرفاهية كمتعة ، وأكثر من هذا فقد استعمل الفن كوسيلة لستر آلام الانسان فى بعض ظروفه ، وتغطيتها بالمظاهر الزائفة .

ولكن الفن المعاصر يأبى الا أن يقف جنبا الى جنب مع قمة الفكر الحديث ، هويرمى الى عكس ما ترمى اليه الفنون الجميلة السطحية التى تجهل أو تتجاهل سر الحياة وسر علاقتنا فيها . انه أداة للغزو والمعرفة . لقد أصبح الفن مالكا لنفسه وقائدا لوعى الناس ، بعد أن ظل وقتا طويلا يعمل فى خدمة المطامع المستورة ، أو أداة لهو وتسلية .

لم تكن للفن ظروف ثابتة فى مدى حياته الطويلة . وتبعا لهذا لم تكن لديه قط مثالية ثابتة . فمن سحر الغموض فى الفن البدائى الى روحانية الدين فى الفن المصرى أو الصينى ، الى مادية الفكر فى الفن الاغريقى ثم اختلاط الامرين - الفلسفة المسيحية والنزعة المادية - على الفنان الكلاسيكى ، وأخيرا غزو الطبيعة وسيطرة العلم ، والوعى بالاوضاع الاجتماعية وبمدى ارتباط الفن بالحياة ، فى الفن المعاصر .

والخطأ الكبير الذى يسبب عدم فهم الناس للانتاج الفنى المعاصر ، كامن دون وعى منهم فى محاولتهم قبول هذا الفن خلال احدى المثاليات الفنية القديمة ، أو مثالية مركبة من خليط من هذه المثاليات فى مجموعها .

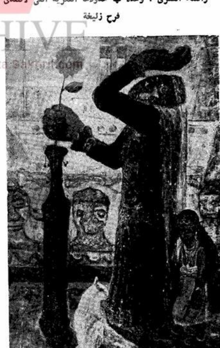
أغرب الفنون الى الادراك الشائع هو الفن الكلاسيكى الذى لا تعتبر النظرة العامية غيره فنا ، هذا الفن كان ينزع نحو تجميل الطبيعة ...... نتيجة لظروف خاصة ، نشأ فيها ، بينما الفن المعاصر متجه وجهة أدبية فلسفية علمية لهذا كان من السهل على الانسان أن يقبل الانتاج الكلاسيكى خلال ثقافة محدودة أو ادراك عقلى بسيط ، له ما يساويه من العواطف والغرائز البسيطة ، بينما عليه ليفهم الانتاج المعاصر أن يكون ملما الى حد ما بأنواع الثقـافات المختلفة التى تخرج منهـا المثاليات المتعددة للمدارس المعاصرة .

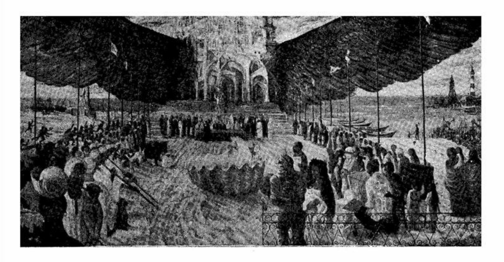
هـذه المدارس عبارة عن نظـرات بعضها فلسفى وبعضها نفسى أو اجتماعى مباشر ، كما أن بعضها فنى صرف معتمد على العواطف أو العلم .. وهكذا الخ .

ولذا كان من الخطأ فى مثل هذا المعرض الذى نحن بصدده الآن أن يقف الزائر أمام كل قطعة من هذا الانتاج ويطالب الفنان بشرحها له شرحا حرفيا ، عليه أن يرجع أولا الى الفلسفة العامة للمدرسة التى ينتمى اليها ذلك العمل سواء كانت سيريالية أو تعبيرية . أو رمزية . هذا الفهم العام هو الذى يؤدى به الى قبول واستيعاب انتاج كل فنـان فى مجمـوعه وعدم احساسه بابهـام المعروضات أو غموضها عليه .

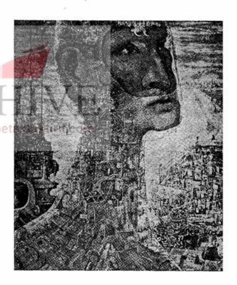
والعارضون فى هذا المعرض مجموعة من الفنانين شق كل منهم طريقه لنفسه ، وسلك المدرسة أو الاتجاه الفنى الذى يتلاءم مع كيانه الشخصى الكامن فى اتيته دون أى

فرج زليخة





السلام



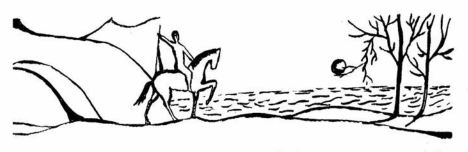
السد العالى

افتعال أو اكتساب مقصود دخيل عليه . فشخصيته أو مؤهلاته الذاتية هى التى حددت نزعته فى قمة تكاملها ولذلك لم يخضع انتاجه للاكاديمية الميتة التى لا تهتم الا بمظاهر صفات المدارس الفنية .

بلغ بعض هؤلاء العارضين درجات متكاملة فى اتجاهه أكثر من البعض الآخر وان كان البعض يحمل فى نفسه اتجاها قد يكون أقوى .

ومنذ سنة ١٩٤٨ وهو يعيش فى مرحلته الثانية من رحلته الطويلة يصنع الفن من أجل الحياة وقد وسع قلبه حب هذا الوجود وحمل عقله ونفسه عبء مشاكل حياة الناس ، وانشغل بكل أحاسيسه لحل رموز التناقض وعالم الروح والمجهول .. الى أن عاش ــ مرحلته الثالثة ــ ورأى مواكب أخرى . رأى مرحلة تحقيق الحلم . مرحلة أحداث الثورة يوليو سنة ١٩٥٢ فرأى مواكب النصر . ومواكب العلم وهى تسير فى عهد الفضاء فى الجامعة . ومواكب العمال تسير نحو المصنع وفى السد العالى . ورأى مواكب الفلاحين وهم يخرجون من وراء أسوار الاقطاع ويدخلون الارض الخضراء من جديد لقد رأى صورا ومشاهد أخرى كثيرة تختلف عن الاولى فاخرج انتاجا خالدا كريما رزينا رائعا يمثل انفعالاته بهذه الاحداث فى هذه اللوحات الخالدة النصر ــ الحلم ــ بورسعيد ــ السويس ــ دنشواى ــ باندونج ــ العدالة ــ الميثاق ــ السد العالى ــ عهد الفضاء . وأخيرا السلام .

لقد أخرج عبد الهادى الجزار الفنان الشاب كل هذا الانتاج الضخم على مراحل فى رحلة طويلة من الكفاح غنية بالمعانى السامية مليئة بالامال الكبيرة ، ولكن مع الاسف البالغ لم تتسع لها رحلة العمر ، بل وقف قبلها بقليل فى أشرف مكان وهو يتسلم جائزة الدولة التشجيعية يقول كلمته الخالدة ــ فى لوحته الأخيرة ــ السلام .



الحصان والجبل

شعر: محمد عفيفي مطر

القصيدة الأولى

حصان الريح – عبر مفازة التكوين والخلقِ –

تعلم رقصة البرقِ

ودحرجةَ العواصف والشموس الخضر من عرق إلى عرق

وتفجير السطور الخرس فى كراسة الرعد الإلهية .

* * *

تراكض فى بوادى الصهد فانسكبَتْ خوابى الطينة الأُولى

وقامت فى مسايلها المدائنُ والقبابُ ،

وفُجِّرَتْ بالزيت والخمر الينابيعُ

ودارت – حيثما مرَّتْ سنابكهُ – الروابيعُ

وشدَّ صهيلُه الوترَ المقدسَ فى رباب الأَرض .

حصان الريح خَوَّضَ فى عباب البحرِ

فاشتعلتْ شموسُ العشب والكبريت والزرقة

وأزهرت الصوارى الخضرُ

وامتلأتْ من الخير القواريرُ
وفُتِّحَتْ الموانى الأُلفُ ، وانفجرتْ من الضوءِ النوافيرُ .

* * *

حصان الريح مَرَّ هنا ، وأَبطأَ ساعةً بحدائق الشجرِ
فلم يُشبعه عنقودٌ من الثمرِ
ولم تُسكرْه أقداحُ اللقاح العبقرىِّ
– وكان يوماً من فصول الجوع –
تمرَّغَ ساعةً فى الوحل فارتعشتْ قوائمهُ
بطين الرعب ، عافَ حشائش الأَرض الطفيلية
ومَرَّ خلال أبواب الهزيمةِ نحو أَرضِ
الصمت فى بَرِّيَّةِ التيه الخرافية ..

* * *

حصان الريح غاص وغار فى الجبل
وأَطبقت الصخورُ عليه ،
أَنصتَ للمزامير السديمية
تفتش عن بوارقها الغنائية
فحمحم عَلَّهُ يَسْتَرْجع المنسَىَّ من كراسة الرعدِ
ويرقص رقصةَ البرق الإلٰهية ..

* *

القصيدة الثانية

فى الحقول الحجريَّةْ
غرس الليل جذورا غجريَّةْ



وأساطير غناء بدوية
فارتوتْ من كبد الصخر كرومُ الأَزلية ..

* *

فى الحقول الحجرية
رئةُ الأَرض حدائقْ
وعروقٌ غُرِسَتْ فى مدن الصمت لكى
تسكب فى باطنها خمرَ الحرائقْ ..

* *

ما الذى يسمعه الآن حصان الأَبدية ! !
ما له يركض ما بين العروق الجبلية
ضارباً فى عصب الأَرض شرارا
فالعروق ارتعشتْ ما بين شدٍّ وارتخاءٍ ،
نفضتْ رعشتُها أبنية الأَرض جدارا فجدارا
فهوى صمتُ الخرائب
والبقايا من طلول الزمن الأَخدس والرعب اقْشَعَرَّتْ
وأمالتها رؤَى الزلزلة الأُولى انتظارا ..

* * *

يا حصان الأَبدية
دُسْ عروقَ الأَرض كى تحترقَ
الأَرضُ وتَخْضَرَّ الدماءْ
وانغرسْ فى عصب العالم واركض فى الجذور ..

* * *

القصيدة الثالثة

أتيتُ – كما أثقلتنى المواريثُ –
واسْتَحْكَمَتْ فى دمائى الشريعة
وشيخوخةُ الدهر قد أضرمتْ نارها الفلكيَّةَ ،
فاحترقتْ كلماتُ الطبيعة
وأطعمنى فندقُ الصمت خبزَ الفجيعة
فجئتُ – كما طردتنى الوصايا –
من البحر والطرقات السحيقة
فأوقفنى مولد الرعد والبرق بين العروق العميقة .

* * *

أتيت خلال فصول الخليقة
بقلبى صكوك الخطيئة

وسِفْرُ الهزائم والرعب ،
وانطفأَتْ فى دمائى شموسُ البراءة
فأرضعنى الصيفُ من غرين الجوع حتى يَبِسْتْ
وصَلَّبنى قمرُ الملح عبر الموانى العتيقة ..



* * *

أتيتك – يا جبل البدء والمنتهى – باحتراق الجروحِ
وقد أخْرَسَتْنى التجاريبُ ،
حنجرتى يتفجر فيها صديدُ القروحِ
تَكَشَّفْتُ عن عورتى وتمرغتُ فى طرقات الفضيحة
فجئت ليسترنى شجرُ الانتظار



لأسمع ما يَتَهَزَّمُ فى رئتيك ، وأغسل
قلبى بماء الشرار
وآكل من ثمر الرعد كى أستردَّ الغناء ..

* * *

حصان المخاض الطويل
يراقصه قمرٌ من دماء
لتنفتح الأَرض بوَّابةً للعروج ..

* * *

القصيدة الرابعة

ضربات الفأس
تنغرس بقلب العالم كى يَخْضَرَّ سراجُ العرس
فيطير تراب الأَرض لكى تغتسل سماءُ اليأس ..

* * *

سيل الأَبناء
يتلفت فوق حصان الريح الآتى من رحم الظلماء
يتعلم خلط الأَلوان السبعة واللغة العذراء
ويراقص سيف البرق ..

* * *

الجبل تَقَصَّفَ تحت الصاعقة الخضراء
فاخضرتْ فيه جذورُ الخلق
وانفتحتْ كراساتُ الرعد .. فمن يملؤها بالأَشعار ؟ !!





غربة مهيار الدمشقى

محمد حافظ دياب

بديوانه الاخير « كتاب التحولات والهجرة فى أقاليم النهار والليل » يدخل الشاعر على أحمد سعيد (أدونيس) فى مغامرات جـديدة فى الاشكال الشعرية بحيث نجد فيه مقاطع صغيرة متنوعة البحور مارا بالقصيدة الموزونة المقفاة وغير المقفاة الى القصيدة النثرية ٠

٠٠٠ وليست هذه المرة الاولى التى يحاول فيها أدونيس أن يصل بالقصيدة العربيـة الى أشكال جديدة ومتنوعة ٠ فقد كتب من قبل ، على طول رحلته الشعرية ــ فى دواوينـه : « قصائد أولى » ، « أوراق فى الريح » ، « أغانى مهيار الدمشقى » ــ فى كل الاشكال الشعرية تقريبا ٠ وعلى سبيل المثال ٠٠

٠٠٠ كتب قصيدة النثر « أروادیا جزیرة الوهم » وكان بهذا أول من كتب هذا النوع من القصائد رغم أنه لم يتحدث عنها فى دراسـة « تجربتى الشعرية » ، وكتب الشعر الموزون الجيد ٠ وقصيدته « رؤيا » خير دليل على ذلك٠

وحين حاول أدونيس أن يمتلك التعبير عن مأساة الانسان المعاصر لم يطاوعه الشـكل الشعرى القديم فتخلى ــ أو كاد ــ عن القافية حين وجدها تعطل من حركته الشعرية المتدفقة وتقيد تداعيها ٠

وفى الحـق ان فكرة التجـديد تلاحق أدونيس دائما وتؤرقه ٠٠٠ والمتتبع لكتاباته يجد أول ما يجد أن التجديد كفكرة تلح عليه دائما فيصرخ :

ألا صورة من جديد

تصاغ لهذا الوجود ؟

بحيث أصبح بحق كما يقول عن نفســه « فارس الكلمات الغربية » أو كما يقول :

نمضى ولا نصغى لذاك الاله

تقنا الى رب جديد سواه

فى مقدمة « ديوان الشـعر العربى » الجزء

الثانى « الذى صدر لأدونيس عام ١٩٦٤ دفاع عن الشاعر الدمشقى – القاهرى أبى تمام لانه « ٠٠٠٠ أدرك بحدس الخلاق أن التكرار فى الشعر لانفع منه على الصعيد الفنى ولا بقاء له ٠٠٠ هكذا عبر أبو تمام بطريقة جديدة دون أن يقطع اتصاله بجوهر الماضى فمثل هـذا الانقطاع يقتل الشعر ٠ بل انه مستحيل لان الشعر يحيا أيضا بقوة الدفع فى تراثه » ٠

٠٠ هذه الفقرة تحـدد نظرة أدونيس الى الشعر العربى بشـكل خاص والتراث العربى بشكل عام ٠

٠٠ ومن هذه الزاوية – التجديد – أطل أدونيس على التراث الشـعرى العربى كله ٠ وكان كتابه « ديوان الشعر العربى » بجزئيـة اعادة نظر واعية فى رصد الشـعـر وفهمه وتقييمه ٠ وبالتالى احدى بدايات اتجاه جديد فى النظر الى الشعر العربى أقل ما يقال عنهـا أنها تقلب مقـاييس وأسسا نقدية كانت مسيطرة وكان من مظـاهرها تفتيت التراث الشعرى الى شعر اباحى عند بشار وأبى نواس وشعر فكرة عند أبى العتـاهية والمتنبى وأبى العلاء ، وشعر هجاء عند الحطيئة والفرزدق ٠ وبشكل عام يشكل التراث كله عنـد أدونيس عملية انتقاء ٠٠ اختيار حر وواع بين الامكانيات والقيم التى يزخر بها الادب العربى ويمتلىء ٠ وعلى هذا فان الارتباط بهذا التراث يأخذ لديه معنى حرا ٠

وما دامت الروح العربية الآن – فى مستواها الفنى والتاريخى – تقوم على الابداع والاختيار الواعى ، فان التمسك الحرفى بالتراث يشوهه من جهة ، ويناقض هذه الروح القائمة من جهة أخرى ٠

التجديد اذن ليس قيمة عابرة فى شـعـر أدونيس وفكره بقدر ما هو هدف دائم يلاحقه٠ « فثمة حاجة لأن يولد شىء ما » كما يقول هو ٠٠ شىء جديد يراه ويكتبـه فى « منـاخ الحروف الجديدة » ٠

ويتمثل هذا التجديد ويتفـاوت على طول قصائده وعالمه الشعرى فيما يلى :

أولا : تجاوز الواقع فى عالمه الشعرى الى الرؤى والاحلام : فهو كما يقـول « الحلم له قصر وحدائق نار » ٠ وتجاوزه للواقع ليس فى كل الأحوال هروبا بل رغبة فى تغيير العالم بخلق عالم جديد :

أخلق أرضا تثور معى وتخون
أخلق أرضا تجسستها بعروقى
ورسمت سماواتها برعدى
وزينتها ببروقى
حدها صاعق وموج
وراياتها الجفون

ولانه يتجاوز الواقع ، فكثيرة هى حروف التمنى التى يقولها فى شعره مثل ربما – لو- كأنه – لعل :

لو أنى ماء ثقبت الجماد
ونقبت عما وراء التراب
وعشت مصير الندى والضباب
لو أنى حقل لو أنى حصاد
تيقنت كيف مع القمح يبدأ
سر الفصول وكيف يعاد ٠

ثانيا : اهتمامه العقلى بدرجة تبلغ أحيـانا حد التجريد : كان يصف مهيار « انه فيزياء الأشياء » أو كان يقول « مزودج أنا مثلث » أو كان يعنون قصيدته التى تتصدر ديوانه الاخير والمؤلفة من ثلاثة عشر مقطعا « زهرة الكيمياء » بحث زى أدونيس المفكر يمزج نفسه بأدونيس الشاعر ٠ محاولا – باهتمـامه العقلى – أن يكثف تجربته الشعرية ويكشف أبعادا جديدة لها ٠

ثالثا : انقطاع مظاهر الارتبـاط المنظم فى البناء الشعرى : فالتجربة الشـعرية لديه يتبدى صدقها فى اثارة الجـو الموحى بصرف النظر عن تلاحمها بالصورة الفنية أو خلقهـا للكلمات المنضبطة المعبرة عنها وحين يقول :

أنيميا
أسمع صوت الدهر
يحمل أكفان الرؤى ويغسل الجفون
يزرع أشجارا بلا غصون
حول ضفاف العمر

فان الفكرة الرئيسية التى تلح على الشاعر هنا والتى تحدد النغم الذى يسـود هذه المقطوعة هى الجدب ، نلتقطها حتى من كلمة



المطلع (أنيميا) المرض الشرقى · ليس ثمة ارتباط شرطى يربط الانيميا المرض بالاشجار التى بلا غصون أو بصوت الدهر · فالرباط المنطقى واهن بينها · غير أن تداعى الصور يعطى الايحاء المطلوب ·

وقد استغل الشاعر هذه الصور المترسبة فى لاوعية بلا تماثل فى الزمان أو المكان ، واستطاع تشكيلها بحيث أعطت ـ من خلال التقائها ـ ثراء للفكرة التى يريد أن ينقلها للقارىء · فما هو صمت الدهر ان لم يكن الجدب وهو اللفظة التالية مباشرة ؟

ومن هنا تبدو القصيدة عن أدونيس بناء كالحلم تتقطع فيه مظاهر الارتباط المنطقى المنظم وتعطى فى ذات الوقت ايماءا أكيدا ·

رابعا : تجسيد المعانى ومنحها ـ فى كثير من الاحيان ـ صفات بشرية : ومن ذلك على سبيل المثال مانراه من أن « الضحى محترق الوجه شريد » ·· و « أنا موت القمر » ·· و « قامة الريح » ·

خامسا : اضفاء المعانى الرمزية والحدسية على الصورة المركبة فى بنائه الشعرى : التى تستطرد فى بعض الاحيان ويغلفها التهويم مما يسبب أحيانا غموض هذه الصور باعتبار أن الحدس هو الانتقال السريع والمباشر الى المجهول فصورة الزمن الميت عنده هى :

للزمن المحمول فى نقالة الجليد

أشعل نار الجرح

وصورة الارض التى يهواها هى :

والارض فى جبينى النبى

رف عصافير بلا انتهاء

سادسا : تحرر الذات الانسانية وتفردها فى شعره : بحيث يصبح الفرد عنده :

يعلو ويمتد ولا يرضى

يريد أن يخرج من نفسه

ويحضن السماء والارضا

وهذا التحرر يؤدى به فى النهاية الى الارتباط الكلى بالكون وتوحده به تواحدا جدليا :

وحد بى الكون فأجفانه

تلبس أجفانى

وحد بى الكون بحريتى

فأينا يبتكر الثانى !

سابعا : التخلى عن مظاهر الرؤيا المباشرة فى تجربته الشعرية : فهو لكى يعبر عن ضياعه ونهايته يقول :

اننى كالصدفة

تحت وجهى حفرت مقبرتى

فهو يختبىء داخل نفسه كالصدفة حتى لا يرى الموت وجها لوجه ولكنه أيضا يراه تحت وجهه · الرؤيا هنا ليست مباشرة بل موحية · توحى بها الصورة الشعرية ·

··· تلك هى أهم المعالم التى تسيج عالم أدونيس الشعرى وتميزه ·

··· وقد سجل الشاعر فى ديوانه الاول « قصائد أولى » اتجاهه الى الطفولة فى التعبير عن النفس الانسانية المفردة ، حيث هى فى حلم الشاعر ووجدانه تعبر بدقة ورهافة عن حنين الانسان الابدى الى الصفاء والسلام ورؤيته للحقيقة فى أول مسارها :

للطفولة

تشرق الشمس خجولة

هى ينبوع حياة يتفجر

وهي دنيا ·· وهي أكثر

فى خطاها يصغر الكون الكبير

ويفيق الابد

ولكن هذا التعبير الذاتى لم يؤد به ـ مثل كثيرين غيره من أصحاب الشعر الحديث الى الانغلاق الذى نراه فى كثير من نماذج الشعر الحديث ، بل زاده ثراء حين تخطاه · وهو فى ديوان « أوراق فى الريح » يحاول أن يتلمس المأساة ويضع بصماته عليها غير أن الكلمات تتحشرج فالمأساة أكبر منها :

مسافر دون ماحراك

يا شمس · من أين لى خطاك

الانسان مهما سار فانه لايتحرك بل يموت:

لأننى أمشى

أدركنى نعشى

الغربة اذن أكثر تجارب الشاعر حساسية وخوفا :

لا أنحنى ·

الا لأحضن لموطنى

أنا صدر أم مرضع تحنو ، وجبهة مؤمن

ومن خطواته فى الريح الى « أغانى مهيار الدمشقى » تتخذ تجربته مدى أوسع فى احساسها بالفجيعة ، فيبتكر الشاعر شخصية فريدة « ··· تتقمص خواطره ومشاكله ونوازعه وتجسد حياته وتجربته » كما جاء فى مقدمة الديوان ، وتلخص لنا قلق الانسان المعاصر وانكفائه · الشاعر يرى انسان العصر الاول أكثر صفاء ومحبة ويلح فى عودة الانسان الى منابعه الاولى : الطهر والصفاء :

هو ذا يلبس عرى الحجر

ويصلى للكهوف

هو ذا يحتضن الارض الخفيفة

ملك مهيار

ملك والحلم له قصر وحدائق نار

وعلى مسيرة هذه الرؤيا يستلهم أدونيس فى ديوانه الاخير « كتاب التحولات والهجرة فى أقاليم النهار والليل » الابعاد السحرية

والصوفية والميتافيزيقية في التراث العربي والروح العربية • ففي مقدمة هذا الديوان التي كتبتها زوجته « خالدة سعيد » نجدها تتحدث عن « الرؤيا الادونيسية » ، وهي في مضمونها رؤيا صوفية تربط بين عالم الشاعر الداخلي وجذوره الفكرية حتى تتـوحد في النهاية أقاليم النهار والليل •• أو الجسـد والروح •

الشاعر هنا يحاول أن يكتشف أعمـاقه الخفية في رحلته الى « أندلس الاعماق » :

يضرب ، يجتاح الضحى ، يغرف ، يستزيد

يرفع كالعاشق في تفجر مريد

في وله الصبوة والاشراق

أندلس الاعماق

يرفعها للكون ــ هذا الهيكل الجديد :

كل سماء باسمه كتاب

وكل ريح باسمه نشيد

••• تقول الاسطورة الاغريقية ان أدونيس هو الصياد الجميل الذي خرج يوما يستحم في احدى البحيرات استعدادا لمطاردة الخنازير • وحين رأته فينوس عشقته عند النظرة الاولى وأرادت أن تستبقيه بجوارها لكنه فر منها مفضلا صيد الخنازير •• وأثناء جولته للصيد صرعته احدى هذه الخنازير الضارية •وجاءت فينوس على صوت المعـركة لتجد أن قلب محبوبها قد توقف عن الحركة الى الابد•فراحت تتوسل لكبير الآلهة زيوس ليعيده الى الحياة• وأمام توسلاتها وتهديدها اتفق « زيوس » مع أخيه « بلوتون » اله السماء على أن يعيـد أدونيس الى الحيـاة ربيع وصيف كل دورة شمس ويغيب ما بقى من شهور السـنة في السماء •

هذا هو أدونيس الاسطورة الاغريقية •

أما أدونيس الشـاعر فهو الاسم القلمي للشاعر السوري اللبناني علي أحمد سعيد • كان يوما أمير شعراءجماعة القوميين السوريين وهي جماعة أسسها أنطون سعادة عام ١٩٣٢ تحت اسم الحزب القومي الاجتماعي السوري وكانت تدعو الى سلخ بلدان الشام كلها من غرب السويس الى جبال طوروس من جسم الوطن العربي والمناداة بما أسموه سـوريا الكبرى •

وقد وجدت هذه الدعوة صدى في نفوس بعض المغـامرين ، وتلاشت حين كشف عن أهدافها الحقيقية المرتبطة بالاسـتعمار الغربي وبأساليب الاغتيال والتآمر التي اتبعتها •

وخرج علي أحمد سعيد من دمشق ليعيش في باريس • وهناك أخذ يبحث عن أشـكال شعرية جديدة • كانت قصيدة النثر تشكل انعطافا هاما في الشعر الفرنسي كرد فعل لقوانين العروض التقليدي الصارمة التي ورثها عن القصيدة اللاتينية ، فاذا بالبيت المتحرر يصبح أداة شائعة للتعبير •

ولابد أن أدونيس خلال اقامته بباريس قرأ فيما قرأ للشعراء الذين كتبوا قصيدة النثر وتأثر بهم من أمثـــال برتران في ديوانه Cpaspard de la Nuit وبودلير في Spleen de Paris ورامبو في (فصل في الجحيم) ، وشارل بيجي في (الاسرار) ، وبول كلوديل في Cinq Cpandes Odes سان جون بيرس في دواودينه : « منفى » ، «رياح» « مطر » ، ولوتر يامـون في (أناشـيد مالدورور) •

وقد تأثر أدونيس بصفة خاصة بسـان جون بيرس في تطعيم كلماته بلغة العلم وربط عناصر التعبير ربطا غير منطقي ، كان يقول بيرس في ديوانه (مطر) •• (بلون التبغ الاحمر والبغل) •

وبشكل عام اسـتهوته هذه الحركة ــ فادونيس يستهويه دائما كل ما هو جديد . في استخدامه للألفاظ الغريبـة النـادرة ، والاكثار من الجناس مستعيضا به عن القافية ، واطلاق الفكرة أو الصورة بصرف النظر عن وحدة المقاطع اللفظية ، وحرية خلق الايقـاع الخاص والمميز عند كل من هؤلاء الشعراء •

۰۰۰ وعاد أدونيس الى بيروت لينشىء مع جماعة من الشعراء مجلة « شعر » جاعلين منها حقلا لتجارب شعرية جديدة ۰ ولكن هذه المجلة لم تستطع أن تأخذ مسارها الطبيعي بسبب ظروف كثيرة منها عدم تمثيلها لحركة شعرية متكاملة واقتصارها على عدد محدود من رواد المحاولة الجديدة ، فأغلقت منذ عامين ۰

وهكذا نجد أدونيس على مدى هذه الرحلة يطلب التغيير ويريده تحت اسم التجديد ۰ وفي سبيل التجديد يتجاوز الواقع الى الاحلام التى أدت به الى الغربة ۰

وقصيدته « الصقر » المنشورة بديوانه الاخير والمستوحاة من حياة صقر قريش عبد الرحمن الداخل ومعجزة نجاته من القتل على يد السفاح ، وهربه الى الاندلس وتحضيره لها تصور فى الواقع غربة أدونيس الشخصية وان استعار لها من التاريخ بطلا عربيا ۰

يصور مطلع القصيدة الخطوة الاولى فى غربة الشاعر وبداية التشابه بينه وبين صقر قريش ۰ فقد تغرب كلاهما :

هدأت فوق وجهى ، بين الفريسة والفارس الرماح

جسدى يتدحرج الموت حوذيه والرياح

جثث تتدلى ومرئية ، وكأن النهار

حجرة يثقب الحياة

وكأن النهار

عربات من الدمع

غير رنينك يا صوت ، أسمع صوت الفرات

ولم تكن غربة أدونيس عن واقعه وطموحه مجرد مغامرة فردية بقدر ما كانت تجربة انسانية تستحق الوقوف عندها وتأملها حيث نجد لها فى وجدانه وفكره أرضية فنية وتاريخية تتمثل فى كتابات وحياة بعض المفكرين الذين تأثر بهم وبالاخص شهاب الدين ابن يحيى السهروردى وأبو حيان التوحيدى

۰۰ والسهروردى هو مؤسس الفلسفة الاشراقية ۰ عاش فى بداية العصر الفاطمى أثناء الحروب الصليبية ومات فى حلب ۰ وله قصة « الغربة الغربية » كتبها باللغة الفارسية ورتبها المستشرق الفرنسى « هنرى كوربان » عام ١٩٥٢ ، وترجمها أدونيس ۰

والنغمة السائدة التى توجه هذه القصة هى الشعور بالنفى الذى يعتبر مبدأ رئيسيا من مبادىء الفلسفة الاشراقية ۰ وقد ذاق السهروردى الغربة حين سافر الى ديار ما وراء النهرين ، وحل فى « قيروان » القرية الظالم أهلها مثلما تغرب قبله النبى موسى والخضر الى قرية « انطاكية » .

وقد عمد السهروردى الى كتابة القصص ليبين فلسفته ويشرح أصولها فى كتابه « التلويحات » ومن هذه القصص : رؤيا ، أصوات أجنحة ، جبرائيل ، حى بن يقظان ۰

فليس من قبيل المصادفة اذن أن تصاقب حياة السهروردى وكتاباته شاعرنا أدونيس فيكب عليها ويتأملها .

وثمة فيلسوف آخر هو أبو حيان التوحيدى يشكل مع السهروردى ـ فى مكونات أدونيس الفكرية ـ منطقة جذب مهمة ..

والتوحيدى عاش عمره مقهورا يتعاطف مع الغرباء والأفاقين . اتخذ غربته موطنا ثانيا له . وحين تمكنت منه الفجيعة لجأ فى آخر أيامه الى احراق كتبه وغسلها بالماء . فماذا تجدى الكلمات ؟

لقد أحرقها قبله داود الطائى والصوفى أبو سليمان الدارانى ، واللغوى الشهير أبو عمرو ابن العلاء !

وليس مصادفة ايضا أن يقرأ أدونيس للتوحيد ، ويكتب مقطوعات له بعنوان «غربة أطيب من الوطن» .

تغرب أدونيس اذن ورفض . ولكن الرفض عنده لم يقف عند مجرد حرف (لا) النافى للجنس . انه ـ ورغم أشياء كثيرة ـ موقف ازاء سلبيات شتى باختياره :

واكتب الزمن الآتى على شفتى

لكن أدونيس لم يعلن بطلان الكل كالتوحيدى . انه يعود متطهرا كالطفل : كأنه أكبر من حاله .

يعلوا ويمتد ولا يرضى

يريد أن يخرج من نفسه

ويحضن السماء والارضا

يعود وهو يمتلىء بالحاجة الى ذلك الشىء الذى مازال يبحث عنه : التغيير :

الا ثورة . ثورة فى الصميم

تشيد لنا بيتنا

وتجرى معاصرها زيتنا

وتملأ بالحاصدين الحقول

وتملأ بالزارعين السهولا

الا ثورة ، ثورة فى الصميم تنشئنا من جديد

وتمحق فينا هو أن العبيد

وتشعل فينا الاعاصير تشعل فينا الزوابع

ان رحلة أدنيس الشعرية تستوحى - على مداها - كل مزاجات الجيل المتمرد وتمثله خير تمثيل . وتسجل فى لهجتها وروحها وموسيقاها نصرا على ظروف ضاغطة تحدثت يوما على لسانه وتؤكد لنا نضوجه وعمقه .

وهناك تحولات واعدة فى فهم أدونيس لأرضه الحقيقية . توحى بأنه - وبعد مسيرة طويلة وخصبة - قد عرف سر الدفء وتذوق حلاوة العروبة وباركها بقلبه وشفتيه .

هدمت مملكتى
هدمت عرشى وساحاتى واروقتى
ورحت ابحث محمولا على رئتى
اعلم البحر امطارى وامنحه
نارى ومجمرتى

القصة الجديدة

دكتورة سامية أحمد سعد

« القصة الجديدة » عبارة رددتها الالسنة فى السنوات الاخيرة ، وارتبطت أكثر ما ارتبطت باتجاه فرنسى يتمثل فى أعمال آلان روب جرييه ، وناتالى ساروت ، وميشيل بوتور ، وكلود سيمون ، الخ .. وبالرغم من أن الكثيرين قد قرأوا قصص روب جرييه وشاهدوا بعضها على الشاشة البيضاء فى اخراج آلان رينيه الرائع فانهم ما زالوا يتساءلون عن القصة الجديدة ، وماهيتها ، ومضمونها . وما هذا الا ظاهرة كثيرا ماتتكرر فى عالم الادب ، اذ يتوه ما يمكن أن نسميه « بالنظريات » فى زحمة الاعمال الادبية نفسها ، لان الجدة تستحوذ على انتباه القارىء وتجعله ينسى الظروف والاسباب التى ادت اليها .

وآلان روب جرييه (ولد عام ١٩٢٢) هو رائد القصة الجديدة ، أو هكذا شاءت الظروف أن يكون . ولا يسع القارىء الا أن يندهش عندما يعلم أن هذا الاديب بدأ حياته بمنأى عن الادب والادباء ، بدأها بدراسة الزراعة والحصول على « الاجريجاسيون » فى الزراعة (١٩٤٥) ، ثم انتقل الى عالم الاحصاء ،ومنه الى عالم الابحاث البيولوجية. أما صلة روب جرييه بالادب فترجع الى عام ١٩٥٥ العام الذى اختير فيه مستشارا أدبيا لاحدى دور النشر Les éditions de minuit بدأ انتاج روب جرييه الادبى عام ١٩٥٣ ، وظل يتتابع حتى اليوم . ومن أشهر ما كتب المؤلف « الغيرة » La Jalousie (١٩٥٧) ، و « فى السرداب » Dans le Labyrinthe (١٩٥٩) ، و « العام الماضى فى مارينباد » L'année dernière à Marienbad (١٩٦١) . أما آخر ما كتب فقصة بعنوان « منزل اللقيا » La Maison de rendez-vous (١٩٦٥) .

أثارت مؤلفات روب جرييه كثيرا من الجدل والنقاش ، وجعلت من مؤلفها ، منذ البداية: هدفا للنقاد وأقلامهم . لذا اضطر هذا الاخير الى الدفاع عن نفسه ، عارضا أفكاره تارة ، ومفسرا ما أراد أن يقوله تارة أخرى . ومن ثم ، لم يكن بينه وبين وصفه بأنه رائد الحركة الجديدة ــ التى أطلق النقاد عليها أسماء عدة مثل « مدرسة النظر » ، و « القصة الموضوعية » ، ... الخ ــ الا قيد أنملة . لكن عرض أفكار روب جرييه ، ولا اقول نظريته ، القى مزيدا من الضوء على كثير من القصص التى بدت لاول وهلة غامضة للغاية، ولم تلق اقبالا الا من فئة قليلة ــ وان كانت مختارة ــ من القراء .

« من أجل القصة الجديدة » مجموعة من اربع مقالات كتبها المؤلف ما بين ١٩٥٣ و ١٩٦٣ .

النظريات ؟ » (١٩٥٥ ـ ١٩٦٣) يقدم المؤلف لكتابه قائلا : « لا تعد هذه النصوص نظرية في القصة ، انها تعمل فقط على استخلاص بعض خطوط التطور التى بدا لى أنهـا ذات اهمية رئيسية فى الادب المعاصر . واذا كنت استعمل عبارة « القصة الجديدة » فى كثير من الصفحات فأنا لا أعنى بها مدرسة أو حتى مجموعة منظمة من الكتاب يعملون فى اتجاه واحد ، هذه التسمية ليست سوى تسمية عملية تشمل كل من يبحث عن أشكال قصصية جديدة تستطيع أن تعبر عن صلات جديدة بين الانسان والعالم ، وكل من قرر أن يخلق القصة ، أى يخلق الانسان » .

القصة فى تطور دائم :

« أبطال كافكا لا علاقة لهم الا قليلا بأبطال قصص بلزاك » .

ومن حق القصصى أن يفهم هذا التطور . لكن فهمه لهذا التطور ليس كل شىء . ذلك انه يكتب « ليحاول أن يعرف لماذا اراد أن يكتب » .

ويستطرد روب جرييه : تلك هى «الواقعية الجديدة التى يحاول هذا المؤلف أن يحدد بعض معالمها » .

يلى ذلك مقال (١٩٥٦) بعنوان « الطريق أمام قصة المستقبل » يقرر المؤلف أولا أن « المفهوم القصصى الوحيد السائد اليوم فعلا هو مفهوم بلزاك » . يرتبط بهذا المفهوم مفهوم آخر مؤداه أن حاجة الانسان وقلبه خالدان أبدا . ويحاول الأدب الجديد أن يشق السبيل الى ذلك ، فى حين تستخدم فى تقييمه المعايير القديمة البالية .

وتبدأ معالم « القصة الجديدة » تتضح عندما يتحدث روب جرييه عن « الاشياء » ومعانيها :

« فى بناء القصة فى المستقبل ، ستكون الاشياء » هنا « قبل أن تكون شيئا ما » : « وستكون هنا فيما بعد أيضا ، صلبة لا تتغير ، حاضرة الى الأبد ، وكأنها تسخر من معناها الخاص ، هذا المعنى الذى يحاول دون جدوى أن ـ يحولها الى مجرد أدوات زائلة ، الى نسيج وقتى معيب شكلته كل من الحقيقة والانسانية العليا » .

وعن العلاقة بينها وبين الانسان :

« لن تكون الاشياء انعكاسا باهتا لنفس البطل المبهمة ، وصورة لآلامه ، وظلا لرغباته، بالأخرى ، اذا حدث واستخدمت من الأشياء لحظة واحدة كقاعدة للاهواء الانسانية ، فلن يكون ذلك الا بصفة وقتية ، لن تقبل الاشياء طغيان المعانى الا ظاهريا ... لتبين لنا الى أى حد تظل غريبة على الانسان » .

ان العالم « كائن » بكل بساطة . وأنا لنكتشف ذلك فى السينما مثلا ، حيث الكرسى كرسى ولا شىء سواه . ان ما يهم اذن هو « وجود » الاشياء ، و « وجود » العالم . وعصرنا ، أكثر من أى عصر آخر ، يفسح المجال أمام ازدهار فن قصصى جديد ، فن « التواجد » و « المساحة » وذلك بفضل اندحار المفاهيم الوجودية للانسان . ويترتب على ذلك تغيير لغة الادب ، التى بدأت تتغير فعلا : « الصفة البصرية الوصفية التى تكتفى بالقياس ، وتحديد الموقع ، والتحديد ، والتعريف ، تشير بلا شك الى سبيل صعب، الى فن قصصى جديد » .

عنوان المقال الثالث (١٩٥٧) : «عن بعض المفاهيم البالية» هذه المفاهيم هى: الشخصية، والحكاية ، والالتزام ، والشكل ، والمضمون. القصة ظلت حتى القرن العشرين مرتبطة « بالبطل » ذى الشخصية المعروفة المحددة ، أو ، اذا جاز التعبير ، ذى السجل المدنى المعروف . لكن « سلطان » البطل زال اليوم، وعلى القصةالجديدة أن تثبت قدرتها على الحياة بدونه . كانت القصة حتى الآن تروى احدى الروايات بأسلوب محبب ، وتهدف الى اقناع القارىء بصحة ما يقرأه . لكن :

« قوة القصصى (اليوم) تكمن فى خلقه خلقا حرا تماما ، دون الاقتداء بأى نموذج ، والجدير بالملاحظة هو أن القصة الجديدة تؤكد هذا الطابع » .

من هنا كان زوال القصة حسب المفهوم القديم للكلمة • هل يعني هذا أن القصة الجديدة قصة بلا أحداث ؟ لا • ولا ينبغي أن نشبه البناء الجديد للقصة بمحاولة لمحو الاحداث والمغامرات والعواطف، بكل بساطة• ويسوق روب جرييه مثالا على ذلك قصص بروست وفولكنر وبيكيت وقصصه هو المليئة بالاحداث •

عندما يتحدث روب جرييه عن الالتزام ، يدرك أن الثورة والفن متعارضان ، لأن الثورة تتطلع الى هدف ما ، فى حين « يخلق الفن من أجل لا شيء » •

« وسوف يظل أهم شيء فى العالم ، فى نظر الفنان على الاقل » •

ويعبر المؤلف عن فهمه للالتزام بما يلى :

« الالتزام ــ بدلا من أن يكون ذا طابع سياسى ــ بالنسبة للكاتب هو وعيه الكامل بقضايا لغته الخاصة والاقتناع بأهميتها القصوى ، ورغبته فى حلها من الداخل• تلك هى فرصته الوحيدة فى أن يظل فنانا » •

ولا يفرق روب جرييه بين الشكل والمضمون ، بل يرجع العنصرين الى الشكل ويعطى هذا الاخير أهمية كبرى ، مرتبطة بالطبع ، بالاهمية التى يوليها « للاشياء » •

« العمل الفنى ، وشأنه شان العالم ، شكل حى ، كائن ، لا حاجة الى تبريره » •

فى شكل القصة تكمن حقيقتها، بل ويكمن معناها أيضا ، « معناها العميق » ، أى مضمونها •

« الحديث عن مضمون القصة وكأنه شيء مستقل عنها يعنى محو هذا اللون الادبى كله من عالم الفن » •

ذلك أن العمل الفنى لايتضمن شيئا بالمعنى الدقيق للكلمة • ويذهب روب جرييه الى أبعد من ذلك ويقول ان الفنان الحق ليس لديه شيء يقوله ، وانما لديه أسلوب فى القول • من هنا جاء الاتهام « بالمجانية » الذى وجه الى رائد القصة الجديدة وزملائه • ودليل المؤلف هو أن الاسلوب هو غالبا ما تبقى من أعمال كبار القصصيين •

عنوان المقال الرابع (١٩٥٨) هو «الطبيعة والانسانية والمأساة » • لا شك فى أن هذا المقال هو أشهر مقالات روب جرييه • يبدأ المؤلف دافعا عن نفسه تهمة اللا انسانية ، مما يتيح له فرصة لايضاح بعض خصائص القصة الجديدة وتحديدها • الخلاف بين روب جرييه ونقاده ينحصر فى جملتين تعبر كل منهما عن مفهوم للعالم : فى نظر النقاد ، « العالم هو الانسان » ، وفى نظر روب جرييه « الاشياء هى الاشياء والانسان ليس سوى الانسان » • ويطلب منا هذا الاخير بأن نسلم بان الاشياء خارجية ولا معنى لها ، ولا يهدف الا الى وصفها :

« وصف الاشياء••• هو الوقوف خارجها، وأمامها طواعية • لا يتعلق الامر اذن بتملكها أو ارجاع أى شيء اليها • ولانه ينظر اليها منذ البداية على أنها ليست الانسان ، تظل دائما فى مأمن من الانسان » •

والوصف ، وما يهم فيه ، هو الوقوف على استقلال الأشياء ، ووصفها « من الخارج » ، وتسجيل بعض المسافات والابعاد ، ليس الا:

« ان تسجيل المسافة بينى وبين الشيء ، والابعاد الخاصة بالشيء (أبعاده الخارجية، أى مقاييسه) والمسافة بين الاشياء، واصرارنا على أن كل ذلك مسافات فحسب ••• يعنى تقريرنا أن الاشياء هنا ، وانها ليست سوى أشياء وأن كلا منها محدود بنفسه • والمشكلة ليست مشكلة اختيار بين توافق حسن وتضامن سييء لأنه يوجد ، من الآن فصاعدا ؛ رفض كل تواطؤ » •

النظر هو خير ما يتيح الفرصة لتسجيل المسافات ، ذلك أنه لا يهتم بالالوان ، ولا بالبريق ، ولا بالشفافية ، بل يهتم بالحدود • طبيعى الا يكون هذا الابصار الا ذاتيا، وهو، بالتالى ، يساعد الانسان على « تحديد مكانه فى العالم » •

هذا وينتهى الكتاب بثلاث مقالات متكاملة ، تبدو فى كثير من الاحيان وكأنها ايضاح أو تفسير لأفكار المؤلف ، نذكر من بينها مقالا بعنوان « القصة الجديدة والانسان الجديد »

(١٩٦١) يصحح فيه روب جرييه أخطاء النقد بالنسبة للقصة الجديدة :

« ها هو ميثاق القصة الجديدة كما تتناقله الشائعات :

١ ـ القصة الجديدة وضعت قوانين قصة المستقبل .

٢ ـ القصة الجديدة طرحت الماضي جانبا .

٣ ـ القصة الجديدة تريد أن تطرد الانسان من العالم .

٤ ـ القصة الجديدة تهدف الى الموضوعية الكاملة .

٥ ـ القصة الجديدة تقرأ بصعوبة ، ولا تخاطب الا المتخصصين » .

بينما ينبغي أن نقول ان القصة الجديدة بحث لا نظرية :

« ان ما يشترك فيه الافراد ، في كل واحدة من الحركات الادبية ، هو الرغبة في الهرب من الجمود بصفة خاصة ، والحاجة الى شئ آخر .. الى أشكال تحيا وتموت ، في كافة ميادين الفن.. أشكال لابد من تجديدها على الدوام : فالتأليف القصصي في القرن التاسع عشر، كان الحياة بعينها منذ مائة عام، لم يعد سوى شكل أجوف » .

وما دامت الاشكال تتطور ، فلا يمكن بالتالي تثبيتها في نظريات تفترض الجمود .

ويدفع روب جرييه عن نفسه وعن زملائه تهمة تقنين القصة الجديدة :

« نحن لا نعرف ما ينبغي أن تكون عليه القصة ، القصة الحقيقية ، نحن نعرف فقط أن القصة اليوم ستكون تلك القصة التي سنكتبها اليوم ، وما علينا أن نشبهها بما كانت عليه بالامس .. »

ـ القصة الجديدة ليست الا استمرارا لتطور القصة، ذلك التطور الذي بدأ في عصر بلزاك وكافكا أو فولكنر ليسا مؤلفين طليعيين ، انهما مؤلفان محدثان فحسب ، سيصبحان « كلاسيكيين » عما قريب .

ـ القصة الجديدة لاتهتم الا بالانسان ومكانه في العالم .

بالرغم من أن الشخصية، بالمعنى التقليدي للكلمة ، لا وجود لها في مؤلفات روب جرييه **فان الانسان ماثل فيها دائما :**

« الانسان ماثل في كل صفحة ، وكل سطر ، وكل كلمة (من قصصي) ، حتى لو وجدنا فيها كثيرا من الأشياء الموصوفة بدقة ، فان هناك أولا ودائما العين التي تراها ، والفكر الذي يعاود رؤيتها ، والعاطفة التي تغير من شكلها . والاشياء ، واقعية كانت أم خيالية ، لا يوجد لها ألبتة في قصصنا خارج الادراك الحسي عند البشر » .

حتى اذا وجدت الاشياء فعلينا الا ننسى أن العين البشرية هي التي تراها على الدوام .

ـ القصة الجديدة لا تهدف الا الى الذاتية الكاملة . ان وجهة نظر المؤلف ليست وجهة نظر رجل عليم ، بل رجل هو :

« أقل الرجال حيادا وأكثرهم تحيزا : انه ... ملتزم دائما بمغامرة عاطفية من أكثر المغامرات الحاحا ، الى درجة غالبا ماتغير شكل رؤياه ، وتولد لديه تهيؤات قريبة من الهذيان » .

القصة الجديدة تخاطب كل من حسنت نيته . على القارئ أن يأخذ القصة على ما هي عليه ، لا أن يرجعها الى القرن التاسع عشر، ذلك أن هذه القصة لا تخضع لمعنى موجود سلفا :

« القصة الحديثة بحث ... بحث يخلق معانيه تباعا بنفسه . هل للحقيقة معنى ؟ هذا سؤال لايستطيع الفنان المعاصر أن يجيب عليه : اذ أنه لا يعلم شيئا عن الجواب . كل ما يمكن أن يقوله هو أنه ربما سيكون لهذه الحقيقة معنى ، بعد أن يمر عليها ، أى بعد أن يبلغ عمله نهايته » .

في مقال آخر (١٩٦٣) ، يتناول روب جرييه « قضية الزمان والوصف في قصة اليوم » . كثيرا ما أخذ النقاد عليه وعلى زملائه المكانة التي يحتلها الوصف في كتاباتهم. بل انه قيل ان قصصهم ليست سوى أفلام لم يكتمل نموها وأنها أسلوب فاشل في الكتابة يفسح المجال أمام الكاميرا . ويبرر المؤلف وصفه للاشياء في القصة قائلا : فيما مضى ، كانت هذه الاشياء مدمجة في انقضاء الزمان الذي كان يعطيها معنى ، في حين أن الاشياء التي يصفها هو في كتاباته أشياء « لا معنى لها » . **ان بناء الكتاب عنده يتأرجح**

بين « حركة مزدوجة من الخلق والمحو » ، ويولد « خيبة الامل » تلك التى تلازم قصة اليوم . هذا ويركز روب جرييه اهتمامه على الحركة الوصفية تلك . لكن ، لا الوصف ، ولا الشيء الموصوف يعنى أن المؤلف عاجز .

وهنا يبين ضلال القائلين بأن هذا الاسلوب فى الكتابة ميال الى فن التصوير أو الفن السينمائى . ان السبب فى انجذاب كتاب القصة الجديدة الى السينما لا يرجع الى .. « موضوعية الكاميرا.. وانما الى امكانياتها فى ميدانى الذاتية والخيال » .

السينما فى نظر كتاب القصة الجديدة وسيله للبحث ، لا وسيلة للتعبير . وما يسترعى انتباههم فيها هو مخاطبتها لحاستين فى أن واحد : حاسة السمع وحاسة البصر. ويسوق روب جرييه مثالا على ذلك فيلميه « الخالدة » و « العام الماضى فى مارينباد » . ففى كليهما العلاقات وقف على ما يرى وعلى ما يسمع ومن ثم كانت حركة مزدوجة من البناء والهدم ، تلك التى نجدها عند المؤلف فى معالجته للزمان . أن الفيلم السينمائى والقصة يتقابلان اليوم لان كلا منهما مبني على لحظات وأبعاد زمنية لا صلة لها ألبتة بالتوقيت الفعلى . بل انه يبدو ، على العكس، ان الابحاث الفنية الحالية تعمل على خلق أبنية ذهنية خالية من « الزمان » :

« وقت العمل الفنى الحديث ليس بأى حال من الاحوال تلخيصا أو تركيزا لوقت أكثر طولا أو واقعية قد يكون وقت الحادثة أو القصة المروية فعلا .. هناك على عكس ذلك، مطابقة تامة بين الوقتين . فحوادث قصة « مارينباد » لا تدور فى عامين أو ثلاثة أيام، بل فى ساعة ونصف بالضبط » .

من هنا تنشأ خيبة الامل التى سبق أن أشرنا اليها ، والتى تتميز بها القصص والافلام الحديثة. ومن هنا يتحتم على القارىء أو المتفرج أن يخلق ،لا الرواية ، وانما واقع العمل الفنى نفسه ، ذلك العمل الفنى الذى قدم له ولم يكتمل تكوينه بعد .

ينتهى كتاب « من أجل القصة الجديدة » بمقال عنوانه «من المذهب الواقعى الى الواقع» (١٩٥٥ - ١٩٦٤) . ان روب جرييه ، شأنه شأن من سبقوه، يكتب باسم الواقعية. ومن هنا كانت الثورة الادبية التى قامت بها « القصة الجديدة » . على أية حال ، لا يمكن أن تكون القصة أداة تعبر عن حقيقة خاصة ، ذلك أنها تخلق واقعها وتؤلفه . انها أداة للبحث ، للبحث عن نفسها . لا معنى اذن لرجوعها الى الواقع اليومى :

« أنا أبنى ولا أنقل . هذا ما كان يصبو اليه فلوبير : بناء شيء من لا شيء ، بناء شيء يقف وحده دون أن يحتاج الى الاستناد الى أى شيء آخر خارج العمل الفنى نفسه ، هذا هو ما تتطلع اليه القصة اليوم » .

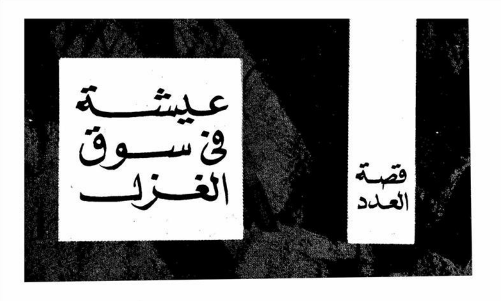
هذا البناء نسج من « الزيف » :

« كل شيء يحدث كما لو كان « الزيف » قد أصبح احد الموضوعات التى يفضلها خيال كاتب القصة الحديثة ، لقد ولدت فئة جديدة من الرواة : لم يعد الرجل يكتفى بوصف الاشياء التى يراها ، انه فى الوقت نفسه ، يتخيل الاشياء من حوله ويرى هذه الاشياء التى يتخيلها » .

ولا يرى روب جرييه أن «القصة الجديدة» نظرية ثابتة أو موضة سوف تنقضى . لكنه يرى انها مرحلة من مراحل تطور الادب :

« ان ما يقدمه الفن للقارىء أو المتفرج اليوم هو طريقة للحياة فى عالم اليوم ، وللمشاركة فى خلق عالم الغد . ولبلوغ هذه الغاية ، تطلب القصة الجديدة من الجمهور أن يثق فى قدرة الادب، وتطلب من كاتب القصة الا يخجل من الاشتغال بالادب » .

تلك هى أفكار روب جرييه عن « القصة الجديدة » . انها أفكار تتفق وأفكار ناتالى ساروت أحيانا ، لكنها تختلف عنها فى كثير من الاحيان . وجدير بالملاحظة أن لكل كاتب من كتاب القصة الجديدة أسلوبه الخاص وطابعه الخاص . حتى ان الحديث عن «القصة الجديدة» يتطلب الحديث عن كل منهم على حدة . لكن وصف النقاد لهم بالجمود واللا انسانية ينطبق عليهم جميعا. ومهما تضاربت الاقوال، لا يمكن أن ننكر أن « القصة الجديدة » اتجاه جديد أتى على المقومات التقليدية لهذا اللون من الادب . ولم يكن ليتسنى لهذا الاتجاه الجديد أن يجيء الا فى وقتنا هذا ، عصر السينما والماديات. ولولا أن «القصة الجديدة» تعتمد اعتمادا كليا على مجهود القارىء للاقت اقبالا أكبر . فضلا عن أن الغموض الذى يكتنفها فى كثير من الاحيان يحد من انتشارها.



بقلم محمد عصمت

دقت ساعة الحائط الاثرية سبع دقات رنانة وكأنها صلصلة ناقوس الكنيسة ... ايقظت الزوجة الحبلى من سباتها فأيقظت هي بدورها زوجها النائم بجوارها يشخر كالذبيح ..

نهض السيد أمين عفاشه متأخرا مصدوعا بعد ليلة أرق بسبب رسالة وصلته من «ناصح أمين» ينصحه بمراقبة ابنتـه « نسمة لطفى » ومنعها من مصاحبة زميلها بالجامعة – شمس الدين الزفتاوى – المعروف بين الطلبة باسم جيمس دين – يتصيد الطالبات فى سيارته الصغيرة بحجة توصيلهن الى منازلهن فى وقت اشتدت فيه أزمة المواصلات ..

ارتدى ثيابه فى عجل واستمهلته زوجته ليفطر فقال دعينى الحق ميعادى ، وأغلق الباب خلفه وهبط يهرول على الدرج وهو يعقد رباط عنقه ... ثم عاد صاعدا ليأخذ حافظة دفاتره التى نسيها ..!

فسألته زوجته – ماذا تتغذى اليوم – وأجاب – نفسى فى الملوخية – وعندما غادر البيت اعترضه طفح المجارى يسد طريقه فأخذ يخطو محاذرا وهو يحبس انفاسه الى محطة الباص بشارع شبرا .. ومر به باص وثان وثالث لم يعبأ واحد منها بأشاراته ولم يكن فيها موطىء قدم ... فرأى أن يقطع الطريق الى ميدان رمسيس مشيا ليلحق باحدى حافلات الجيزة من أول مواقفها ..

وسحب من جيبه الرسالة يستعيد قراءتها للمرة المائة وهو يفكر كيف يحمى ابنته من الذئب ويعجب ساخطا كيف يتسلل الشيطان فى صورة شمس الدين الزفتاوى الى قلب عذراء كابنته نسمة يمنيها ويغرر بها – نسمة نوارة الاسرة التى يعقد عليها أمله بعد أن خاب رجاؤه فى ولديه منير فهمى وسمير حسنى .. منير الذى بدأ دراسته بجد حتى سن المراهقة ثم أخذ يتخلف ويفشل فتسبقه اخته الصغرى فيحاول أن يكون من ابطال كرة القدم فيفشل ويدفعه الفشل الى اعتناق المذاهب الهدامة .. ثم يتحول الى أخيه سمير يضربه ويبتز نقوده ويستولى على سجائره ..

أما سمير فأمره عجب ! يخرج كل صباح الى المدرسه فلا يعود الا بعد العشرة مساء بحجة أنه يستذكر دروسه مع رفاقه بعيدا عن أخيه المجرم منير ـ سماره افسدته السينما ـ سلاح ابليس في العصر الحديث في نظر السيد أمين ٠٠ المشط عدته يسدل به على جبينه خصلات من شعره الملوى ٠٠ ويرسل الى محدثه نظرات ناعمة ٠٠ ويمشى في استرخاء راقص ٠٠ الضرب المبرح لم يغير منه شيئا حرمانه من المصروف لم يؤثر في وفرة النقود في جيوبه مع تذاكر السينما والسجائر ٠٠٠ كيف يحصل عليها ؟ ألص هو ؟ ٠٠ أم فنان ؟ ام ماذا ؟ ٠٠٠ أى مصير يتربص بأولاده ؟ وأى عار سيلحق بأسرة عفاشة الشريفة ؟ وبرز لقب عفاشة بشعا كأنه وصمة ٠٠ يطارده كما يطارد القاتل ضحيته ٠٠

واعترضته فتاة متبرجة تتسكع أمام سينما دولى في استرخاء راقص فقطب لابتسامتها وهى تسأله عن الساعة وترسل اليه نظرات ناعمة ٠!

انت رجل طيب ياسيد أمين ٠٠ عشت حياتك مستقيما بارا ٠٠ تخرجت من مدرسة التجارة الثانوية متفوقا فالتحقت بالوظائف وتزوجت مبكرا ـ بلا خطيئة ـ من جارة عفيفة عاقلة متوسطة الجمال لترتاح اليها فاخلفت لك المتاعب وهى لا تدرى ٠٠

وعزى نفسه بأن القديس غاندى اخلف ابنا فاسدا ٠٠

وفى ميدان رمسيس شق لجسمه الضخم طريقا في أول حافلة قادمة من الجيزة محملة بأكداس الوافدين منها الى شبرا وغيرها ٠٠٠ آه لو يجد شقة صحية فى الجيزة بأجر مناسب مثل شقته الواسعة بشبرا ٠٠٠ وتمتم ساخطا ـ دنيا معقدة ـ ٠

وانطلقت الحافلة كالوحش وهو معلق ذراعه بالعامود العلوى لا يملك حراكا وسط الزحام ٠٠ وصل الى الديوان متأخرا أربعين دقيقة وأخبره زملاؤه أن المدير طلبه مرارا فهرع اليه وهو يصلح هندامه :

ـ ماذا تأخرت يا سيد أمين ؟

ـ المواصلات يا سيادة المدير ٠٠

ـ ولماذا لم تعمل حسابها كزملائك ؟

ـ الاولاد يا بيه !

ـ وما شأن الديوان بالاولاد ؟

ـ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

ـ يا سيد أمين ٠٠ الاستاذ المفتش الادارى فى انتظارك معي منذ ساعة للمراجعة وجرد عهدتك ٠٠ لا تؤاخذنا يا أستاذ أنطون على تعطيلك وسننذر السيد أمين لتأخره ـ نهض الاستاذ انطون القزم ٠٠ يتقدم السيد أمين الضخم الى مكتبه فاحتله وتنحنح وأخرج نظارته المكبرة التى تجسم أدق الخطأ ٠٠ واستل قلمه الذهبى ذا المداد الاحمر ٠٠ هدية السيد المدير اليه يوم سوى له بعض اخطائه ـ وقد اشتهر الاستاذ انطون بأنه حجة فى المحاسبة لا تخفي عليه شارده وان كانت ذمته من النوع المطاط ٠٠٠ وبدأ يراجع ويؤشر ويدون الملاحظات التى تجعل من الحبة قبة وكلما جرى القلم بالمداد الاحمر على الورق ازداد وجه السيد أمين احتقانا ٠٠٠ وأخيرا حول الاستاذ وجهه الممتلىء بالنمش الاصفر الى الصراف يسأله بنبرة خنفاء وهو يقذف مع كل كلمة بخارا نتنا أحس المسكين أمامه بالغثيان ٠٠٠

ـ ما هذه الاخطاء كلها ؟

ـ انها خطأ واحد تكرر فى الصفحات التالية ٠

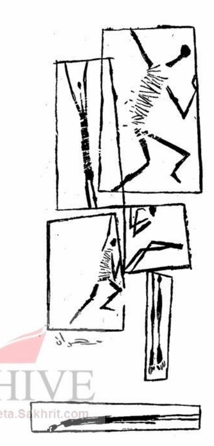
ـ ولماذا تكرر الاخطاء ٠

ـ زحمة العمل ٠٠٠ جل من لا يخطىء ٠

ـ يا حبيبى ليس فى عملنا يا أم ارحمينى ٠٠٠ افتح الخزانة ٠

وجرد الخزانة فوجد بها عجزا تسعة قروش كاملة فعاد يسأل والصراف يحبس أنفاسه عن سبب هذا العجز ٠

ـ انه عجز بسيط فى زحمة عشرات الموظفين وحركة مئات الجنيهات وعلى رأى المثل عيشة فى سوق الغزل ٠



ـ عذر غير مقبول يا ست عيشة !

وغلا الدم فى رأس السيد أمين وصاح بصوت يتهدج وهو يلوح بكفه :

ـ اسمع يا أستاذ ٠٠ أنا لا أسمح لمخلوق بأن يجرج كرامتى !

وابتسم الاستاذ فى برود قائلا ـ انت الذى قلت عيشه يا سيد عفاشه ٠٠ كلها واحد يا محترم ! وتحول سخط الصراف الى اللقب الذى لصق به وقد حرص على حماية أولاده من شره ٠٠ وطلب الاستاذ فنجان قهوة مضبوطا ثم أخرج نصف سيجار ضخم اشعله بقداحة يعلم السيد أمين انها هدية من أمين المخازن للتستر على بعض مخالفاته ٠٠

وأخذ يحدق فى عينى السيد أمين وكأنه بومة انشبت مخالبها فى طوق حمامة تمتص دمها ٠٠ وهو يرشف القهوة فى تلذذ وتشف ٠٠ وينقر على المكتب بالقلم قائلا : ما رأيك يا سيد عفاشه ؟ هه ؟٠٠ ماذا تقول ؟ هه ؟ وصرخ السيد عفاشه منفعلا ـ أهى مساومة ؟ ماذا تريد منى أن أقول ؟ دقى يا مزيكة !

وعاد الاستاذ انطون يبتسم فى هدوء وبرود قائلا ـ يظهر أن أعصابك متعبة ياسيد عفاشه ٠٠ لقد انصرف جميع الموظفين ولم اكمل المراجعة سأعود غدا لانتهى منك ٠٠٠ فلا تتأخر ٠٠ نهارك سعيد !

وقام الجلاد الحقود يمشى فى صلف متأبطا حافظته ٠٠٠ وخرج السيد أمين من الديوان ورأسه يدور ٠٠ واذا بزميله منصور عند محطة الباص يستقبله متهللا يقول ـ لقد صرح لى المدير باجازتى السنوية من باكر سأقضيها بين احضان عشيقتى ـ ٠٠٠ وعلق الصراف وهو شارد الذهن ـ ألك عشيقة ؟ ـ فربت الصراف على كتفه قائلا ـ الاسكندرية يا جميل ! سأترك مع أخى توكيلا لتصرف له مرتبى ٠٠ مالك ظاهر عليك الضيق ؟ وأجاب السيد أمين : الحر يخنقنى ٠٠ والصداع يدق بالمطارق رأسى ٠٠ لا بد لى من طبيب ـ سلامتك ٠٠ تعال معى الى الاسكندرية ولو بقطار البحر تجدد شبابك فى هوائها النقى وتغسل همومك فى بحرها البديع وتوفر نفقات الطبيب والدواء ـ وغبط السيد أمين هذا العصفور الطليق ٠٠ وهز رأسه موافقا على اقتراحه ٠ وجدا مكانا فى الحافلة فجلسا متجاورين٠٠ وادخل السيد أمين يده فى جيبه يستخرج بطاقة الاشتراك للمفتش فوجده فارغا !

ضاع الاشتراك وضاعت الحافظة أيضا بما فيها.. بطاقة تحقيق الشخصيه والجنيه اليتيم المتبقى من مرتبه .. وهبط قلبه الى قدميه .. هل سقطت من جيبه ؟ هل نشلت فى حافلة الصباح وهو معلق ذراعه الى أعلا ؟ ماذا يفعل؟ وتطوع السيد منصور بسداد ثمن التذكرة لزميله - هون عليك .. الدنيا بخير - ثم راح يتسلى بالمشاهد من النافذة وهو يغنى لنفسه مترنما - يا اسكندرية يا .. يا نور عينى يا .. بينما سرح خيال السيد أمين فى سلسلة المصائب التى انهالت على رأسه واستحكمت حلقاتها حول عنقه تخنقه .. أى ذنب جناه فاستحق هذا العذاب ؟ أين الخطأ ؟ هل اخطأ يوم تزوج ؟ هل أخطأ يوم انجب ؟ هل أخطأ يوم الحق ابنته بالجامعة ؟ ... وبعد ... ما الحل ؟

هل تعقدت مشاكله كما تعقدت مشاكل الدولة فى المجارى والمواصلات والتموين والاسكان ؟ ولكن مشاكل الدوله ترجع الى سبب واحد هو تزايد السكان بسرعة خطيرة - وحلها فى نظر السيد أمين بسيط .. اجراء سريع وجرىء لتحديد النسل وتنظيمه ... أما مشاكله هو فما سببها ؟ وما هو حلها ؟ ان رأسه يكاد ينفجر .! لو أنه سقط تحت عجلات الحافلة التى قفز اليها فى الصباح لانتهت مشاكله فى لحظة ... ام يفعل مثلما فعل بعض ابطال القصص فيستولى على مرتبات الموظفين والعمال فى أول الشهر .. ويختفى بها ؟ لا .. لن يفعلها .. انه ليس لصا ولا خائنا .. لقد عاش شريفا فليمت شريفا ! هل يلقى بنفسه من أعلى عمارة كما فعل قاض نزيه ؟ لا .. ان هذا الحل يغضب الرب .! لو رجع الى صباه لتطوع فدائيا يفتك بكل صهيونى حتى يستشهد ويستحق أن يعلق اسمه على شارع المستشفى - شيكولانى - ولكن أى اسم ؟ عفاشه ؟ انه لا يصلح اسما لشارع فضلا عن بطل شهيد !

هبط صاحبه من الحافلة قبله بمحطة قائلا - لا تنس يوم الخميس ٤ يوليو سأنتظرك بمحطة سيدى جابر على قطار البحر ومعك مرتبى ..

ولما وصل السيد أمين قرب بيته عاد يغوص مرة أخرى فى الوحل الملوث وعاوده الغثيان .. وفتحت له باب الشقة زوجته فدخل وهو ينظر الى الشعر المنفوش والعينين الذابلتين والخدين الغائرتين ثم يهبط ببصره الى البطن المنتفخ فى شهره التاسع.. وفاجأها قائلا - انتقصنا المصائب ؟ فحدجته بنظرة احتجاج صارمة - ألست السبب ؟ فعاد يؤنبها - ألم تسمعى الريس يقول ان تزايد النسل أخطر من القنبلة الذرية ؟

وجلس أمام المادة ينتظر الغداء .. وهو لم يفطر صباحا.. ورفع ناظريه داعيا « يارب تب علينا تب ! »

وجاءه الجواب على لسان زوجته تداعبه مبتسمة وهى تضع أمامه طبق الملوخية « لما نوف المكتوب ! »

ولمح ذبابة تسبح فى الملوخية فرفع يده وقام غاضبا يلقى بالمنشفة فى وجه زوجته ثم دخل غرفة النوم ..

حاولت الزوجة أن تسترضيه فصاح فيها - دعينى ... أنا قرفان من البيت والوظيفة والاولاد والأكل ... دعينى استرح ساعتين وصحينى الساعة السابعة حتى انجز الاوراق المطلوبة باكرا منى - وأغلق الباب بعنف واستلقى على سريره ينشد بعض الراحة بعد يوم عصيب .. وبدا له وجه انطون الملعون يحدق فيه كالبومة.. تذكر موعده معه غدا.. تذكر اهاناته الجارحة .. عيشه .. عفاشه.. المداد الاحمر ..

دقت ساعة الحائط الاثرية سبع دقات .. اندلع على اثرها صراخ الزوجة الحبلى وعويلها .. واندفع لنجدتها جاراتها .. وتكلمت وهى تشرق بالدموع - « لم يكن يشكو من أى مرض .. كان يشقى من أجلنا .. وراح فجأة دون وداع ! »

ثم التفتت الى الجسد المسجى على السرير تخاطبه - « وفيت المكتوب يا أمين ؟ »



لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربى وبعده

تأليف : د. عبد المجيد عابدين
عرض وتحليل : د. محمد مصطفى هدارة

موضوع هذا الكتاب على جانب كبير من الاهمية لانه يربط بين الواقع التاريخى المصرى والعربى منذ عهود بعيدة قبل انبثاق الاسلام وقبل أن يمتد نوره الى مصر عقب الفتح .

لقد أتعب الاستعمار الاوروبى نفسه فى محاولة تمزيق الوحدة العربية عن طريق احياء الاصول الاولى للشعوب التى تكونت منها فيما بعد الدولة العربية الاسلامية ابان ازدهارها وقوتها . وكانت مصر بصفة خاصة بؤرة التزييف التاريخى الذى اصطنعه الاستعمار ، ليبعدها من الركب العربى ، ويبعد الركب العربى عنها ، فادعى أن الفراعنة بعيدون كل البعد عن الاصول السامية التى ينحدر منها العرب فتكون العروبة فى مصر بالتالى شيئا مستحدثا مصطنعا ، اذ لاتجرى فيها على عرق . وفى هذا الكتاب محاولة صادقة لاثبات الصلات العريقة التى كانت بين مصر الفرعونية والعرب ، مما يؤكد ماذهب اليه بعض علماء الاجناس من وحدة الاصل المصرى والعربى ، ولم يقف المؤلف عند الاصول التاريخية الاولى ، ولكنه جعلها مدخلا للحديث عن عروبة مصر الاصيلة بعد الفتح ، واسهامها القوى فى تاريخ الحياة الفكرية الاسلامية .

ولقد شاء المؤلف أن يجعل كتابه (لمحات) من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربى وبعده ، والحقيقة انه كان أمينا فى هذه التسمية اذ جاءت مطابقة لموضوع الكتاب الذى لا يعتبر منهجا متكاملا او شاملا لتاريخ الحياة الفكرية المصرية ، ومعذلكنرى هذه اللمحات - على تنوعها - ذات وحدة موضوعية لاشك فيها . وهى تدور حول الافكار الرئيسية التالية :

اولا : ان مصر اسهمت بنصيب فى الفكر العربى منذ اقدم عصورها، على أساس منوحدة الاصل المشترك أو وحدة الحضارة المشتركة أو كليهما ، كما اسهمت بنصيب وافر فى الفكر العربى الاسلامى .

ثانيا : ان التراث الشعبى الذى امتزجت موروثاته وتعربت عناصره المختلفة بعد الفتح مع تعريب أصحابها ، كان مادة غزيرة ومنبعا خصبا لثقافة الفصحى فى شتى صورها : فى الاجتماع ، والدين ، واللغة ، والادب .

ثالثا : ان الحياة الفكرية فى مصر كانت دائما بمثابة شرارة تولدتمن تقابل طرفين أوقطبين- أو التقائهما - فى مجالات الفكر الاجتماعىوالدينى والادبى واللغوى ، وان ازدهار هذه الحياة التى تولدتمنهذه الثنائيات الفكرية فى البيئة المصرية ، كان يتوقف على وثاقة الصلة بينها وبين الشخصية المصرية ، كما توقف على قدرة هذه الثنائيات او بعضها على تدعيم كيانها فى المجتمع المصرى .

وينقسم الكتاب الى ثلاثة أبواب رئيسية : خصص الاول منها للحديث عن مصر قبلالفتح العربى ،والبابان الآخران يتناولان مصر بعد الفتح العربى ، أحدهما يختص بالفكر الدينى ، والآخر يختص بالفكرالادبى

والفصل الاول من الباب الاول وعنوانه (مصر عبر سيناء) يتحدث فيه المؤلف عن علاقة اللون بالمعتقدات في مصر القديمة ، فيبين أن اللون الاخضر المائل الى السواد كان محبوبا لارتباطه بالخصب والنماء ، وأن اللون الاحمر كان مكروها لانه يمثل الجدب والفناء ، وأن المصريين القدماء صوروا «ست» اله الشر في هيئة حيوان يشبه الحمار ، لان أهل بلدان الشرق القديم ، قلما عرفوا الحمير البيض . ثم يبحث المؤلف في أصل تسمية «مصر» ويقول ان التاريخ عرف مصورا عديدة ، فكان هناك مصر شمال الشام ، ومصر الجزيرة العربية ، ومصر شرقى الدلتا . واختلف العلماء في اشتقاق اللفظ ، فمنهم من حاول رده الى أصل مصرى قديم ، ولكن معظمهم رجحوا أنه من أصل سامى بمعنى الحد الفاصل بين أرضين . ثم يخرج المؤلف بفكرة جديدة حقا حين يربط بين التسمية واللون الاحمر ، فالمواضيع الثلاثة التى اشرنا اليها كانت تقع في أرض أكثر صخورها حمراء ، ثم ان اللغة العربية احتفظت بهذا المعنى لكلمة مصر ، فقد ورد فيها الثوب الممصر اى المصبوغ بالفين الاحمر ، أو بخمرة خفيفة . وكنت أرجو ان يناقش المؤلف الآراء المختلفة في أصل هذه التسمية ، فلعلها تقدم دليلا واضحا على اشتراك الاصول المصرية والعربية ، ومن بين الافتراضات التى كان يصح مناقشتها ماقاله صاحب القاموس المحيط ان مصر المدينة المعروفة سميت كذلك لتمصرها أو لانه بناها المصر بن نوح .

ثم يتحدث المؤلف عن الجانب الشمالى الغربى من بلاد العرب ، فيرى أن تسمية القسم الشمالى الذى يبدأ بحدود فلسطين شمالا ، ويمتد الى رأس خليج العقبة جنوبا ، والجنوبى الذى يقع شمال الحجاز وتهامة ، كانا فى خلال عصور الجاهلية ملتقى ثقافات وحضارات شتى ، وانه من المحتمل ان يكون هذا الجانب أو جزء منه ، مهدا لاقدم بواكير العربية الفصحى . ولما كانت شبه جزيرة سينا المعبر الطبيعى المفتوح للعلاقة بين القبائل العربية والمصريين القدماء ، لهذا لانستغرب تسرب الافكار والمعتقدات بين الفريقين فكانت القبائل العربية تعبد الاله ست لاعجابها بما وصف به من قوة البطش ، كما كان للعرب الاقدمين آثار عميقة في الحضارة المصرية ذاتها . وكان ينبغى للمؤلف أن يبين لنا أوجه هذا التأثير ، بالاضافة الى ضرورة التوسع في شرح رأى العلماء الذين أثبتوا أن أجداد قدماء المصريين كانوا من أصول سامية ثم يتحدث المؤلف عن السمات المشتركة التى يستخلصها من دراسة الحضارة المصرية القديمة ، وحضارة الساميين فيرى أن المصريين وصفوا صحاريهم بالحمرة ، وكذلك فعل أهل الجانب الشمالى الغربى من جزيرة العرب بل ان الاسماء السامية «مصرى» و «أدوم» و «كنعان» واسم فينيقية المشتق من اليونانية ، كلها معناها أحمر أرجوانى ، فاذا انتقلنا الى شمالى تهامة والحجاز وجدنا احدى قبائل معد تسمى « مضر الحمراء » ، ويبدو انها سميت كذلك لان البادية (الارض الحمراء) كانت من نصيبها بعد تفرق قبائل نزار بن معد ، وهذا التشابه في التسمية ليس مجرد صدفة أو اتفاقا من وحى الطبيعة.

كذلك نرى في اشتقاق العربية واستعمالها مايؤيد الحس اللغوى المشترك ، فكما جعلت اللغة المصرية الارض صنفين : حمراء وسوداء ، والبشر صنفين : حمرا وسودا ، كذلك العربية الفصحى اشتقت اسم الصحراء من الصحرة (وهى حمرة تضرب الى غبرة ، واطلقت السواد في بعض معانيه على الخضرة والعمران . وكما ارتبطت الحمرة بمعان ذميمة عند المصريين ، كذلك كانت في الفصحى فقالوا سنة حمراء أى شديدة الجدب . وسجلت الروايات العربية أن ابليس دخل جوف الحمار لما دخل سفينة نوح ، وهذا يذكرنا بتجسد ست في صورة حمار . ولم يشر المؤلف الى أوصاف الحمار في القرآن الكريم ، وهى كلها تبين تبلده وصوته المنكر ، وتتفق مع ماأثر عن العرب في وصفه .

ويرى المؤلف ان ظهور ملكات فى الجانب الشمالى الغربى كالزباء وبلقيس يدفعنا الى التساؤل :

أهو تاثير مصرى أم انه بقية نظم كانت من هذا التراث المشترك الاقدم بين مصر وبلاد العرب ؟ يضاف الى ذلك ان اهل الجانب الشمالى الغربى كانوا في الجاهلية أشد ممارسة لنظام حق الامومة من اى جزء آخر فى بلاد العرب ، فانتسبوا الى أمهاتهم ، ومنحوا المرأة السيادة في الاسرة كما كانت الحال في مصر القديمة . وفي هذه البيئة التى بوأت المرأة مكانا رفيعا وجعلتها في موضع قداسة ، نشأت قبيلة عذرة وهى من قضاعة ، وكانت مساكنها تمتد شمالا الى رأس خليج العقبة . وقد اشتهرت بالحب العفيف في الاسلام ، بل انبعث من هذه البيئة عدد من قصص الحب في الجاهلية كقصة حب خندف وزوجها الياس بن مضر التى تذكرنا بقصة ايزيس وأوزوريس .

وقبل أن ندع هذا الفصل الحافل بجوانب التأثير والتأثر بين مصر القديمة وجيرانها من العرب ، ينبغى أن أشير الى رأى نقله الباحث عن بعض العلماء يقول ان بلقيس حكمت بلاد سبأ الشمالية اذ أن السبئية في عصر سليمان الحكيم الذى جرت معه قصتها ـ وهو القرن العاشر الميلادى ـ كانوا لايزالون في موطنهم الاصلى في الشمال أو الشمال الغربى من الجزيرة العربية وذلك قبل ان ينزحوا الى الجنوب ويؤسسوا هناك حكما . وماكنت احب ان يترك المؤلف هذه النقطة دون دراسة متمعنة ، لكى نستطيع أن نصل الى حقيقة نطمئن اليها ، ونصحح ماذهب اليه كثير من المفسرين الذين كانوا يتحدثون عن سبأ الجنوبية فيما يشرحونه من آيات القرآن الكريم .

فاذا انتقلنا الى الفصل الثانى من الكتاب وعنوانه « الشخصية المصرية بين تيارين » وجدنا المؤلف يتحدث عن تجارب المصرى التى ادت به الى حماية الحياة التى احبها ،

ومغالبة الضعف والفناء بشتى صورهما ، واذا كان جوهر الشخصية المصرية لم يتغير على مر الزمن ، فان صور التعبير عنها قد اختلفت ايجابا وسلبا باختلاف الموجهات الثقافية والمؤثرات الاجتماعية . أما التيار الاول الذى كان يتجاذب الشخصية المصرية ، فهو تيار ايجابى متجاوب ويتلخص فى أن الشعب المصرى لم يستجب في تاريخه كله الا للغتين . اللغة المصرية القديمة واللغة العربية كما لم تؤثر فيه ثقافة غير ثقافةهاتين اللغتين . وأما التيار الثانى فهو سلبى منسحب بمعنى أن الشعب المصرى لم يستجب للثقافات الاجنبية التى جلبها المستعمرون الفرس واليونان وغيرهم ، بسبب وجود عزلة تامة بينه وبينهم ، ولهذاكان المصريون يتجهون الى الزهادة والتنسك بدافع وطنى ودينى ، وهذا يبين بوضوح وجلاء أن العرب لم يكونوا مستعمرين كالفرس واليونان وغيرهم بدليل تجاوب الشعب المصرى معهم ،ووجود أكثر من أساس مشترك للتفاهم والمودة ، وهذه النواحى جميعايكشف عنها الفصل الاول من الباب الثانى، اذ يعتبر المؤلف رسالة الاسلامرسالة انسانية في نظرتها الى الجماعات والشعوب والى الفرد في ذاته ،ولهذا وجدت طريقها سهلا ميسورا فى نفوس المصريين الذين دخلوا في الدينالجديد عن رغبة وايمان ، ولم يلبثوا أن شاركوا في الحركة العلمية الاسلامية مشاركة فعالة ، فظهر منهم يزيد بن أبى حبيب النوبى الاصل الذى كان علما من أعلام الحديث والفقه ، وظهر عثمان بن سعيد الملقب بورش وهو امام من أئمة القراءات . وقد كان المؤلف فى غنى عن الرجوع الى كتاب (صفحات من تاريخ الاستعمار) في الحديث عن الفتوحات العربية ، لأنه لم ينقل الا اقوالا عادية جدا لاتنتسب في الحقيقة لاحد ، لكثرة ماترددت على أقلام الباحثين المسلمين .

وقد سرى في مصر التيار السنى منتصرا على بقية التيارات الاخرى ، واستوعبت مصر عن دراية وفهممذهب مالك وأبى حنيفة ، ثم أقبلت على مذهب الشافعى . وكان لمصر اسهام قوى فى ارساء الدعائم الاولى الفقهية والتشريعية في الاسلام ، حتى لقد نشات مدرسة فقهية مصرية يرى المؤلف من خصائصها انها كانت أكثر اتباعا للاثر المروى من مالك ، ويقصد بهذه المدرسة مدرسة يزيد بن أبى حبيب المتوفي سنة١٢٨ هـ ، تلك التى أفرد لها المؤلف فصلا مستقلا تحدث فيه عن حياة يزيد وعلمه وتلامذته وخصائص مدرسته. ثم بين أن النشاط العلمى لهذه المدرسة تبدى في ميادين ثلاثة : رواية الحديث عامة ، والفقه، والتاريخ .

وعقد المؤلف بعد ذلك فصلا عن الاتجاهات الروحية في مصر تحدث فيه عن نشاة وتطور الزهد السنى في مصر ، فكان هناك صوفية في الشمال يتمثلون في الزهدالاسكندرى، حيث ظهرت طائفة من العباد في حوالى منتصف القرن الثانى الهجرى ، ثم تطور أمرهم بفعل عوامل مختلفة حتى برزت منهم طائفة يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر) التفت حول عيسي بن المنكدر وأعتقد أن هذه النقطة من البحث كانت بحاجة الى دائرة اوسع للنظر في تطور حركة الزهد في أهم مراكز الحضارة الاسلامية في القرن الثانى: في العراق . فقد تجلى فيه الاتجاه الى الزهد منذ عهد الأمويين لارتباطه بالثورة على السلطة الحاكمة ، وربما كان بدء ذلك في أيام عثمان بن عفان نفسه وقد وجد في العراق منذ القرن الأول الهجرى كثير من النساك الذين أطلق عليهم اسم (العباد) مثل معضد بن يزيد العجلى والربيع بن خثيم الكوفى . وفى كتاب الفهرست لابن النديم وحليه الأولياءلابى نعيم ، وصفه الصفوة لابن الجوزى نجد عشرات من الاسماء الذائعة في الذهد والتصوف ، وخاصة في القرن الثانى الذى شهد تحول حركة الوعظ الى زهد حقيقى ، ثم الى تصوف وتجرد، وان كان نكلسون يرى ان متصوفة القرن الثانى ظلوا على مذهب أهل السنة ملتزمين قواعد الشرع ، وأن تصوفهم لم تكن فيه صفات بارزة يمتاز بها ، ولا وجهة نظر خاصة ، بل هم وقفوا فى منتصف الطريق بين الزهد والتصوف . وربما كان افضل وصف يعبر عن موقفهم هو وصفهم بالرضا، الا اننا نعتقد أن هؤلاءالزهاد قد تطور امرهم الى ابعد من ذلك ، اذ بداوا يرتبطون فى جماعات منذ منتصف القرن الثانى الهجرى تقريبا ، فى منازل خاصة وصوامع منعزلة حيث يعيشون بعيدا عن جلبة الدنيا وضجيجها وفق مثلهم النفسية العليا.

وفي ذلك التاريخ نرى رباطا صوفيا فى عبادان حيث اجتمع تلامذة الزاهد الكبير عبدالواحد بن زيد وانقطعوا عن الحياة متجردين لعبادة الله والوصول الى نهج الحق ، وقدمدح ابو العتاهة زهاد عبادان هؤلاء بأبيات مثبتة فى ديوانه .

وحقيقة اخرى ينبغى أن تذكر في

هذا المجال وهى أن طوائف الزهاد في هذا القرن لم يمارسوا الزهد بطريقة نظرية فحسب تبعا لميلهم الطبيعي ، ولكنهم بدأوا يجعلون منه علما واسعا ويؤلفون فيه الكتب التى تحدد طبيعته مثل (كتاب المريدين) الذى ألفه يحيى بن معاذ الرازى المتوفي عام ٢٠٦هـ ، ومثل (كتاب الزهد) الذى ألفه بشر بن الحارث المتوفى عام ٢٢٧هـ كما يثبت صاحب الفهرست •

أما جماعة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر التى ظهرت فى مصر كما يقول الباحث ، فهى تذكرنا تذكيرا قويا بحركة (المطوعة) التى ظهرت فى بغداد أثناء الفتنة بين الامين والمأمون ، اذ قام رجل يقال له خالد الدريوش فدعا جيرانه وأهل بيته ومحلته على أن يعاونوه على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فأجابوه الى ذلك ، وشد على من يليه من الفساق والشطار ـ كما يقول الطبرى ـ فمنعهم مما كانوا يصنعون• ثم قام من بعده رجل يقال له سهل ابن سلامة الانصارى فدعا الناس أيضا الى مادعا اليه خالد ، وزاد عليه العمل بكتاب الله جل وعز وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعلق مصحفا فى عنقه فاتاه خلق كثير • فأخذوا يطوفون ببغداد وأسواقها وأرباضها وطرقها ليمنعوا الخفارة التى فرضها الفساق ، وهى نوع من ابتزاز الاموال . ولعل طبيعة البحث كانت تفرض ربط هاتين الحركتين لملاحظة أوجه التأثير والتأثر بينهما، فربما كانت الحركة البغدادية ـ وهذا ما أعتقده ـ ذات تأثير مباشر فى مثيلتها بمصر ، ولو انهما حدثا في وقت متقارب .

وننتقل بعد ذلك الى الباب الثالث من الكتاب الذى أفرده الباحث لدراسة الادب فى مصر بعد الفتح العربى ، وقد تحدث فيه عن القصص الرسمى الذى كان يستخدم وسيلة من وسائل الدعاية السياسية ، ثم تحول ليكون قصصا شعبيا ، وانتقل الكاتب نقلة كبيرة حين عبر العصر السنى الاول ليصل الى العصر الفاطمى حيث يتحدث عن سيرة عنترة ، فيثبت بادلة علمية قوية انها كتبت فى ايام الخليفة المستنصر بالله ، وأن صورة بطل السيرة عنترة انما هى صورة مقنعة للمستنصر • بهذه الروح العملية الدقيقة ذاتها يتناول الباحث سيرة سيف بن ذى يزن فتتيح له احاطته الواسعة باللغات الشرقية أن يثبت أن هذه السيرة انما كانت تعبر عن صراع سياسي ودينى بين سلطنة الكانم المسلمة في غرب السودان ، واثيوبيا قلعة المسيحية في افريقية . وكانت قد تالفت في ابان الحروب الصليبية قصة ملكة لاثيوبيا يقال لها (ماكدة) زعموا انها زارت سليمان الحكيم فى بيت المقدس وانجبت منه بالزواج ولدا يدعى (منيليك) تولى بعد وفاة امه عرش اثيوبيا ، وواضح أن يهود اثيوبيا (الفلاشة) قد شاركوا في نسج هذه القصة واشاعتها لتمنحهم حقا شرعيا في حكم البلاد .

أما سلاطين الكانم فقد استغلوا شخصية سيف بن ذى يزن الحميرى الذى عرف بعدائه للاحباش منذ احتلوا بلاده في الجاهلية ، ليعبروا عن عدائهم لاثيوبيا التى تناهض حركة التعريب والاسلام في افريقية .

وفى هذا الباب نفسه يحاول الباحث تاريخ النثر المصرى الصحيح، ويصل الى نتيجة مؤكدة وهى عدم وجود أصالة فنية مصرية فى الادب الفصيح • وكنت ارجو أن يتقصى الكاتب الاسباب التى ادت الى ذلك ، فى الوقت الذى نجد فيه الاصالة المصرية واضحة فى نواحى الفقه والتشريع •

وقبل ان ادع هذا الكتاب الحافل الذى يضم الوانا من الدراسات اللغوية والادبية والتاريخية اود ان اسجل بضع ملاحظات على ما جاء فى الفصل الاخير من الكتاب • اما الملاحظة الاولى فهى خاصة بما أثاره المؤلف من احتمال تاثر ابى تمام فى صوره المجسمة والمشخصة باقوال ذى النون المصرى التى برزت فيها (صور من التشخيص والتجسيم الفت بين المحسوس والمعنوى على نحو مخالف لما جرى به التركيب التقليدى القديم) ، ورايى ان هذا الاحتمال بعيد ، والاقرب الى التصور ان يكون ابو تمام قد تاثر بمدرسة البديع التى سبقته وكان من اعلامها كلثوم بن عمرو العتابى وبشار بن برد وابن هرمة ومسلم بن الوليد واضرابهم ، تلك المدرسة التى أشار اليها الجاحظ فى البيان والتبيين ، وكان محقا فى افراد هؤلاء الشعراء وتمييز مذهبهم • وكانت عناية هذه المدرسة بعناصر التشخيص والتجسيم واضحة كل الوضوح ، وخاصة فيما وصلنا من شعر بشار الذى بلغت الصورة الشعرية عنده حدا من الروعة لاحتوائها على تفاصيل دقيقة، واستقصاء صاحبها لعناصر التجسيم والتصوير • وبشار لا يترك الصورة دون أن يلح عليها بريشة فنان أصيل يضع كل لون فى موضعه ، ولا ينسى أدق الاشياء وأهونها ، وذلك فى مثل قوله :

طال الثواء على تنظر حاجة

شمطت لديك فمر بها بغصاب

او قوله :

ترجو غدا وغد كحاملة

فى الحى لا يدرون ما تلد

وهو اجمل بكثير من بيت أبى تمام الذى اورده المؤلف تعبيرا عن مذهب التجسيم والتشخيص • والملاحظة الثانية خاصة بحديث المؤلف عن السجع ، فقد ذكر أنه استخدم قديما عند المسيحيين أداة للتأثير فى مواعظهم الدينية • ولكن الكهان فى الجاهلية استخدموه قبل المسيحيين فى جميع اقوالهم، حتى نسب اليهم هذا الضرب من الكلام ، ولهذا اظهر الرسول صلوات الله عليه كراهته للسجع فيما أثر عنه من الحديث (اسجع كسجع الكهان) حتى لا يشتبه كلام المسلمين باقوال هذه الفئة الضالة التى كانت تدعى التنبؤ والتوسط بين العرب وآلهتهم من الاصنام • وبهذا انقطع السجع فى أيام الرسول والخلفاء الراشدين من الخطب والمواعظ الدينية الا ما كان ياتى عفوا • بل يروى أن معاوية كان يملى على كاتبه جملة فجاءت مسجوعة ، فغير من الفاظها حتى ينفى السجع عنها • هذا مع أن المؤلف يقول فى كتابه ان السجع لم ينقطع من الرواية العربية الشفوية التى يراد بها التأثير على الاسماع فى أى عصر من عصورها •

اما الملاحظة الثالثة فهى تتصل بحديث المؤلف عن سيبويه المصرى الزاهد المختلط العقل الذى حاول ابن زولاق مؤرخ سيرته أن يبين سبب اختلاطه بوقوع حادثة له ، ورايى أن هذه الظاهرة كانت تحتاج الى دراسة اوسع لوجود كثير من عقلاء المجانين فى تاريخ الزهد الاسلامى ، حتى ان ابن الجوزى عقد فصلا خاصا بهم فى كتابه (صفة الصفوة) ذكر فيه عددا منهم مثل سعدون المجنون الذى يقال انه صام ستين سنة حتى خف دماغه ،

ومثل بهلول المجنون (وهو عمرو بن المغيرة الصيرفي الكوفي) الذي كان معاصرا لهارون الرشيد وتوفى في عام ١٩٠ هـ ، وينسب اليه كثير من الشعر في الاخلاق والزهد • ويقال انه كان يعظ الرشيد ويرفض عطاءه ، ومن شعره الذي يكشف لنا عن زهادته الحقيقة وتسامحه النبيل ما قاله حين رماه بعض الصبية بالحصى فادمته حصاة :

حسبي الله توكلت عليه
من نواصي الخلق طرا بيديه

ليس للادب في مهربه
ابدا من راحة الا اليه

رب رام لي باحجار الاذى
لم اجد بدا من العطف عليه

ولهذا اعتقد ان سقوط سيبويه المصري في البئر ليس سببا حقيقيا لاختلاطه ، ما دامت توجد فئة من المتصوفة بهذه الكيفية • ويبدو لي ان استغراقهم في الزهادة والعزلة الروحية هو الذي يؤدي بهم الى حافة الجنون او لعلها حافة العقل •

ومما يتصل بهذه الملاحظة ما جاء في شرح المؤلف لنص من اقوال سيبويه وهو (شغلكم عن العلم اكل الفراريج والدراريج ، والنوم في الدراويج ، وركوب الهماليج ، ومنع المحاويج ، واباحة الفيء للملاليج) ان الدراريج (لعلها جمع دروج وهي الريح السريعة المرور) واعتقد ان النوم في الريح السريعة المرور امر لا يتسق مع معنى النص ، ولا يمكن ان يكون محل نقد سيبويه الزاهد ، ولكن الكلمة محرفة في الغالب واعتقد ان اصلها الدواويج جمع (دواج) وهو ثوب مبطن يشبه اللحاف يلبسه الاغنياء • اما كلمة العلاليج الواردة في النص ، فهو جمع غريب حقا كما يقول المؤلف ولكنني لا اعتقد انه يعني به العلوج ، وانما يعني كلمة في مارة علج رمز لها بهذا الجمع الغريب كنوع من التعمية في الغالب ، وهذا امر يلجا اليه الصوفية احيانا ، والكلمة التي اظنه يرمي اليها جمع علجن وهي المراة الماجنة •

وبعد فهذه الملاحظات العابرة التي عرضت لي في أثناء قراءتي لهذا الكتاب الممتع بدقته العلمية ، وروحه المنهجية السليمة ، وبما يكشف من ثقافة صاحبه الواسعة التي تنقلت بين موضوعات مختلفة بدرجة متساوية من العمق وبراعة التحليل ، تعتبر مجرد (خطرات) متواضعة اضمها الى جانب (لمحات) المؤلف النافذة التي اوجزت عرضها وتحليلها ، حتى ادع للقارىء فرصة التزود بكل ما في تلك اللمحات من غذاء فكري أصيل •

ديوان .. قلبي وغازلة الثوب الأزرق

للشاعر : محمد ابراهيم ابو سنه   عرض : مصطفى عبد اللطيف السحرتي

شاء الشاعر الشاب محمد ابراهيم أبو سنه في ديوانه البكر ((قلبي وغازلة الثوب الازرق)) ان يكون صادقا مع نفسه ونزعاته وآرائه ، صدقا حقيقيا ، غير حافل بالنزعات الجارية في المجتمع ، ولا آبه بالآراء الشائعة في البيئة ، ولا باختلاف هذه النزعات والآراء مع الجمهرة من الناس ، لشعوره شعورا عميقا بانه يختلف عن هذه الجمهرة .

وشاء أن يعبر عن خواطره ، ومذهبه في الواقع المادي ، والواقع النفسي ، تعبيرا مخالفا لما سار عليه أغلب الشعراء العرب ، في انتهاج التعبير المنهجي ، أو التعبير الرومانسي نازعا الى تعبير أصيل جديد ، جامعا بين الاسلوب الواقعي والخيالي والرمزي في وعاء واحد .

فاستخدم صورا في بنائه الفني ، متفاوتة الصفة ولكنها صور في الاغلب الغالب ، جديدة وغير مطروقة ، كما استخدم الرمز الموضوعي ، والاستعاري والحلم ، والاسطورة ليعطي ابعادا مكثفة لعمله الفني ، وقد يحرك تعبيره في كثير من قصائد الديوان ، بغموضه ، بل وابهامه ، ولكن هذا الغموض ، قد يتكشف بعد اعمال الذهن ، وبذل الجهد .

فحين تقرأ قصيدته المعنونة ((طفلة القمر)) قد تطوف بك الحيرة فيما يقصد اليه ، ولكن بعد قراءة القصيدة مرات يتضح انه يعني بها ((الحرية)) ، وأنه ينعى فيها على الناس خضوعهم ، ومسكنتهم وخلودهم للهوان ، والفقر ، والى انهم أسلموا للقوى القادر ((طفلة القمر)) يقتالها بخنجره وهم رقود مخدرون ، وفيها يقول : ــ

فانتم أسلمتم الى العدو طفلة القمر
أسلمتم عدوة الجدران للجدران
ينام كل واحد بظله ويمضغ الدخان
وتهمسون :
سيحدث الذي من أقدم الزمان كان
ولا جديد يستطيعه الانسان
وانما السلطان من لا يعرف السلطان
وكل شيء هاهنا يتم في أوان . (1)

وفي ابيات تالية ، يزيد معناها وضوحا وقوة فيقول :

أما رأيتم العذراء طفلة القمر
رأيتها تجرها سنابك الخيول في حظيرة الملك

وشعرها مذبة في كف زوجة السلطان
غسلتم اليدين في دمائها
صليتم من اجل ان تموت
لأنها تكلف الكثير
ومهرها هو الدماء
وصرخة الاباء
ووقفة الخيول للخيول

ويمثل هذا التناول غير المباشر للجرية القتيلة جاذبية هذا الاسلوب وقوته في مثل هذا الموضوع .

وفي موضع آخر من قصيدته ((نرجس المدينة)) ، نراه يستخدم الرمز الاستعاري ، في تصوير المدينة

(1) ص ٢٥ من الديوان .



المحبة للمظاهر ، وناسها المحبين لانفسهم وذواتهم ، فيستعير المرآة رمزا لهذا التصوير . يقول :

خرجت انشد الصحاب
رايتهم جميعهم يحملقون فى المرآة
مدينتى مدينة المرآة
تحدق العيون فى صلاه
مدينتى من الصباح للمساء
تطل فى المرآة
فنحن ياحبيبتى نعيش فى حضارة المرآة

والرمز هنا رمز متقن يضفى على الفكرة رواء وطزاجة وقوة ، وهو رمز قريب للاذهان .

ولم يسر الشاعر على هذا الغموض المحبب ، بل انه ليصدمنا فى بعض قصائده بالغاز يتحير الذهن بل البصيرة فى تعرف كنهها .

ونذكر مثالا لذلك قصيدته « طائر الشباب » التى امكننا بعد الغلغلة فيها ، ان نصل الى ان الشاعر يصور حالة الفتاة الراغبة فى اللذة ، وتريد فتى احلامها فاذا ماسقط طار عنها فتى احلامها ، فينقلنا من صورة تجرى فى عقلها الباطنى الى اخرى تجرى فى عقلها الواعى بسرعة زائدة ، وصور ورموز متراكمة ، لم نستطع ان نرى نقاط الاتصال بينهما ، وذلك لعدم هيمنة الشاعر على مادته ، ولا على بنائه واجراء اللمسات الاخيرة عليه . فاذا تركنا النظر الى تقنيتها ، ونظرنا الى القصيدة كتجربة معتبرة انتهينا الى انها غير موفقة .

ولنستمع الى بعض سطورها من مثل قوله :

ويعبر الربيع فى عيون طائر الشباب
عذراء صدرها بلا قباب
وخدها بلا ورود
وتضحك الاتراب من قوامها
لكنما الاطفال يولدون فى بحيرة الشراب
ويعصرون فوق صدرها
تفاحه العذاب
ويهربون عندما تفيق من منامها
محشوه باوجع الانين
تمتصها حشائش سوداء فى الطريق
والنهر رغم مائه الكثير يكره الغريق

نقرا هذه السطور ، فلاندرى كيف يعصر الاطفال فوق صدر العذراء تفاحة العذاب ؟ الا بتوهم وحسبان ، ان اطفالا يعبثون بعذراء ، ثم نلتقى بقوله بعد ان نهضت فى الم وحسرة ، بان حشائش سوداء فى الطريق امتصتها ، وقد يعنى بتاويل بعيد ، أنها عزفت عن الناس ، ولاذت بالعراء الوحش ، ثم يصدمنا بعد ذلك معقبا على ماسلف : بان النهر رغم مائه الكثير يكره الغريق ، فلاندرى ماصلة النهر هنا ؟ وربما عنى ، انه نهر الحياة .



وبمثل هذه التخيلات التى شغلنا بها الشاعر ، وتراكمها فى هذا الجزء وفى غيره من اجزاء القصيدة ، اضاع التجربة ، وافسدها .

وقد تبدو قصيدته « الحجاج فى الطريق » مربكة ، فهو فيها يرى أن أرضه مريضة ونهره جف ، والعيش كفاف ، وقريته تنام عارية لم تعرف الضياء ، ولامخرج لهذه الحالة الا باللواذ بجزيرة الشفق ، هو وكوكبه معه ، ويلقون فى سبيل ذلك الايذاء ولكنهم اذا ماوصلوا اليها بلغوا مرادهم ، وتأخذك الحيرة فيما يعنى بجزيرة الشفق ، ولكن الطلسم يحل ، عندمانفهم ، اذاكان هذاالفهم صحيحا انها الثورة الحمراء ، فيها يصل ويصل من معه من الحجاج المؤمنين بها الى غايتهم . ويبلور قصده فى آخر القصيدة اذ يقول :

مصباحنا لربة الشفق
قد نلتقى بعاصف غضوب
والليل ربما قد يغلق الدروب
لكننا النساك لانمل
نظل نقطع الابعاد لانكل
وبعدها وبعدها نصل (٢)

— ٢ —

ولانود أن نستطرد فى بيان رموز الشاعر والغازه فى تقنياته ، مرجئين ذلك الى الحديث عنها عند التحدث عن موضوعاته ومضامينه .

وأول مانلحظ فى هذا الديوان ، ان موضوعه الرئيسى هو رفض الواقع الذى تعيش فيه القرية والمدينة على سواء ، وليس رفضه لهذا الواقع رفض الهارب المعتزل بل رفض المفكر الذى يريد الهدم والبناء ، ولهذا نراه يتحدث كثيرا عن الحزن ، الحزن على مايراه بنظارته الزرقاء على هذا الواقع ، فالحزن يجلل قصائده ، كما يجلل نفسه ، ولم يخرجه هذا الحزن الا العيش لحظات فى رحاب الحب ، وجمال الانثى ، وهى لحظات ، تبدو بصورة خاصة ، قصيرة وسريعة .

فموضوعاه الرئيسيان فى هذا الديوان هما انكار الواقع ، وقبول الجمال ، فالواقع جاف عقيم مجدب والجمال فى الانثى مثمر ، الواقع كالجبال الجرداء ، والجمال والحب يفرقهما بالمطر .

والحب الذى يطلع علينا من الديوان هو حب طهور ، حب يصبو منه الشاعر الى تذويب همومه ، والتخفيف

(٢) ص ١٠٩ من الديوان .

من آلامه وأحزانه ، حب يتخذه وسادة لرأسه المثقل بالمتاعب ، وعكازته الى الامل ، وزاده فى رحلته الحزينة كما يقول فى قصيدته «الانسالى» .

حب يقتصر على النظرة فى جمال العينين ، وعلى لمسة الكفين ولايشى بالضمة ، أو القبلة ، ففى العينين زاده الذى يلوح فى حدائق العيون من ثمر ، وفى الكفين وسادتين يريح فيهما الهموم فى المساء كما يقول فى قصيدته اللطيفة «رسائل الى حبيبة غائبة» التى جاء فيها قوله :

عامان مانظرت للنجوم
حبيبتي وأنت تعلمين
كفاك كانتا وسادتين
أريح فيهما الهموم فى المساء
عيناك كانت السماء
عبدت حكمة الحياة فيهما وروعة المجنون

وهكذا ازدحم شعره الغزلى بوصف العينين ، وأخذ يتلاعب بالآراء فى تصويرهما ، فالعينان معبدان يودلو رقد فيهما كما يقول فى قصيدته «ترحمى عليه» . والعينان شرفتان رحل منهما الى الحقول كما يقول فى قصيدته «الى مجهولة» ، والعينان معزفان للهوى وأغنية ، كما يقول ، فى قصيدته «عيناك» .

وليس فى شعره الغزلى مايستوقف الالتفات ، فهو شعر أكثره فكرى ، وليس فيه دفء ولا حرارة الحب حبا قويا . ولكن مايستوقفنا فيه ، هو دلالة هذا الشعر على نوعية حبه ، وهو أنه حب عفيف ، قصد به إذابة الهموم ، والخلاص منها كما أسلفنا ، وهذا مايتضح من قصائده الجميلة التى قد تعد فى نظرنا خير قصائده فى هذا المجال «المسافر وفيروزة البحار» التى اتخذ الفيروزة فيها رمزا لصديقة لاقاها فى أحد الثغور ، وفى آخرها يقول :

فإن أتاك أجلسيه
وامسحى جبينه وخففى متاعب الرحال
فالبحر قد أضاع من يحبهم
والحزن خلفه يطوق الجبال

ويمكننا أن ندخل قصيدته التى عنون بها الديوان «قلبى وغازلة الثوب الازرق» ، من بين قصائد الحب وإن جمعت فكرات أخرى والذى فهمناه منها بعد اجهاد ، أن قلبه المعذب ، قلبه العارى ، يريد أن تكسوه الحبيبة بثوب المحبة ، وأنه يريد منها بعد أن ودعها لطلب الرزق ، أن يعود اليها فيجدها قارة على حبه ، وهو فى الاعراب عن هذه التجربة ، لم يقتصر على التعبير عنها تعبيرا ذاتيا ، بل أراد أن يجعل منها تجربة بشرية شاملة . واستعار لهذه التجربة أسطورة الملك أوديسيوس ، الذى بعد حرب طروادة ورجوعه الى بلاده ، جرفت الرياح سفنه ، وألقت به الى أمكنة مجهولة ، وبعد غيبة عشرين عاما ، عاد الى بلاده ، وكان قلبه فى هذه الفترة يحوم حول زوجته «بنلوبى» ، التى ازدحم حولها الخطاب ، وقلبها معلق بزوجها فكانت تمهلهم الى أن تنسج الثوب الازرق ، ولكنها كما تقول الخرافة ، ماتكاد تبدأ فى نسجه حتى تنسل الخيوط ، فتعود الى نسجه من جديد ، وبقيت على هذا الحال ، حتى عاد زوجها .

حاول الشاعر أن يضم نسيج هذه الاسطورة الى نسيج فكرته ، ليقويها ويمنحها أبعادا انسانية فسيحة .

ومحاولة تكثيف الفكرة بالاسطورة وإعطائها أبعادا جديدة لتقويتها ، محاولة طيبة فى ذاتها ، على شرط أن تكون الاسطورة معروفة ، وأن يقربنا الشاعر الى تعرفها ولكنه لم يستطع ذلك .

فلقد أخذ يجول ويدور هنا وهناك الى غير غاية ، فهو فى البداية يقول ان قلبه معذب عار ، عار فوق ضفاف التاريخ يظهر ويغرق ، منذ كان يناضل فى السفح هدير الطوفان .

وينقلنا الى روما أيام نيرون ، ويكشف عن عذابات قلبه لظلامه ، ومظالم الطغاة ثم يعقب بعد ذلك بأن قلبه معذب لحال بلاده التى جفت بحيراتها ، ثم يدخل فى التجربة التى حاول الاعراب عنها ، فيذكر أنه هجر الدار ليطرق باب الرزق ، وخلف من يهوى ، تسأل عنه الغرب وتسأل عنه الشرق ، كما يقول ، واستعار أسطورة أوديسيوس وبنلوبى ، ليقول أنه سوف يعود منتصرا ويجد حبيبته ، كما عاد أوديسيوس ، ووجد حبيبته على وفائها . وانتصر على أعدائه ، وعاد الى ملكه وسيعود الشاعر مثله ليجد بلاده مزدهره ، وبحيراتها فياضة المياه ، وسيعثر قلبه على ثوب أزرق !

هذه الشطحات هنا وهناك مزقت هذه التجربة الانسانية الكبيرة ، لأن تداعياتها غير متواصلة ، ولا ملتحمة ، بل كتبت فى إهمال ، وكيفما اتفق ، ولم تأت من قلب الفكرة التى يبغى الاعراب عنها .

واذا كانت الذروة أو الخاتمة تكشف دائما عن فكرة الشاعر وتبلورها فإن ذروة القصيدة كانت ذروة ضعيفة ولنستمع اليه يقول :

أما قلبى فسيعثر فى غابات الموز
على ثوب أزرق
سيتم الرحلة باسم الانسان
ولن يفرق
سيظل على أبواب الغيب يدق
وسيفتح كل الشرفات الخضراء على المشرق

ثم يقول فى ضعف وانطفاء :

أما أنت أيا غازلة الثوب

أتمى الثوب الازرق !

فالتجربة طيبة ، والبناء مخلخل ، والاسطورة التى أتى بها لتقوية التجربة لم تفلح فى هذه التقوية ، والسطران الاخيران اللذان ينبغى أن يكونا قويين ومؤثرين كانا ضعيفين ، بل منطفئين . وأود أن أقول ، مخلصا ، ان الشاعر مع مالشعره من وزن شعرى مقدور ، فانه يهمل فى مراجعة بناء طائفة من قصائده ، فيشعر قارئه بعدم التسلسل المنطقى أو التسلسل الشعورى فيها . وسنتحدث عن هذه الناحية فيما سيجىء .

— ٣ —

واذا كانت قصائد الشاعر الغزلية ، قصائد غير ذات أهمية كبيرة ، فإن قصائده فى انكار الواقع ، وإبداء الحزن على حال قريته ، بصرف النظر عن اختلافنا معه فى هذا الانكار ، فإن بناء بعض هذه القصائد ، أقوى فنا وأتقن مما فى قصائده الغزلية ففى قصيدته «النهر والذين يعبرون» ،

يتحدث عن حال الصياد فى القرية ، والجائع فى المدينة ، والجندى المحب الذى يخبىء رسائل الحب فى التراب ، ونشعر فى هذه القصيدة بجو المأساة ، وبخاصة فى وصفه لحال الصياد بالقرية التى كنا نود ان يقتصر عليها ، ليحدث وحدة فى التأثير . وفى هذا الجزء يقول :

رأيتهم هناك يعبرون فى المساء
عيونهم فجيعة بلا عزاء
خيولهم مهمومة غريقة الآذان
ياويلها فى صمتها الكئيب كالانسان
قابلتهم أولئك الذين يعصبون حزنهم
على الجباه

شباكهم مشدودة الى الصخور فى القرار

والبحر كالسماء واسع بلا قرار
وكلما يمر شاطىء قديم
يكفكفون العبرة العقيم
وينشدون

لاشىء غير حزننا يظلل الطريق
الحزن وحده هو الصديق (٤)

ويعاود رفض الواقع المحلى فى قصيدة أخرى هى ، قصيدة «العجوز والحلم والنهر» وهو يصور فيهاحالة عجوز ، ويشبه قريته بها ، عجوز تمزقت من الضجر ، والعجوز تحلم بأن زوجها عاد ، وأن الحياة ابتسمت لها ، ويذهب الحلم ، وتعود الى حالها الاليم المضنية . وهكذا حال قريته .

وفى هذه القصيدة نراه يمزج الحلم بالواقع ، ليعطى صورة للقرية الحزينة ، التى تراودها أحلام جميلة هاربة ، لاتلبث أن تطوف بها هنيهة حتى تزول . وتعود الدنيا فى عنيها سوداء او كما يقول « يصبح القمر زجاجة سوداء من رماد » .

وهذه القصيدة ، وان استخدم الحلم فى تقويتها ، فان قارئها لايشعر بجو المأساة فى القرية . لان الشاعر ينزع دائما الى الصور بعيدة التصور ، كما رأينا فى الصورة السابقة صيرورة القمر زجاجة سوداء من رماد . ولو استعمل الشاعر الصور الحسية الموحية ، لكان لشعره تأثير أقوى .

ولعل أروع واقوى قصيدة له فى هذا المجال الذى يعبر فيه عن رؤيته القاتمة للريف هى قصيدته « الاغنية المرحة » — حيث يجرى فيها حوارا بينه وبين حبيبته التى تطلب اليه أن يغنى أغنية مرحة والا يحمل هموم الدنيا ، فيرد عليها بأن قلبه لايطاوعه لان فى القرية جدب ، وهو فى هذه القصيدة يستخدم أسطورة أوزوريس المصرية القديمة فى تقوية رؤيته ، ويقول لحبيبته ان أوزوريس اله الخصب قد مات ، وزوجته ايزيس كانت تبحث عنه ليعيد الى الارض خصبها ، ويعود أوزوريس الىالحياة بقوة الطلاسم . وقد وفق الشاعر كل التوفيق فى تكثيف هذه القصيدة ، وخلع عليه ابعادا جديدة .

اسمع اليه وهو يتأبى ان يغنى لحبيبته اغنية مرحة :

لكن ياسوسنتى لو كنت اتيت الى قريتنا
لو كنت رأيت جنازة أوزوريس
كل القرية كانت تبكى نعشا اخضر
أوزوريس الاخضر كان يضيع فى الانحاء
الفجر هنالك لم يعرف لحنا .
الايتام وماأكثرهم ذابوا حزنا ماأكثرهم
بعدك ياأوزوريس .

ثم نراه فى صلب القصيدة ، يأمل عودة أوزوريس ، أى عودة الخصب الى قريته فيقول على لسان زوجته ايزيس .

عد لى ياأوزوريس الاخضر
عد لى فك خناجر كل الطير
عد لى سوف نهز بأيدينا
هذا الكون الاصفر
عد لى كى ينبت قمح
ليتامى هذا الوادى
ماأكثر ايتام الوادى يارب الارباب

وينهى القصيدة انهاء جميلا حيث يقول من حيث ابتدأ :

— من اجل الغائب أوزوريس
لست أطيق أغنى ياسوسنتى الفرحه
من اجلك وحدك ، اغنية مرحة !

وليس شك ان هذه القصيدة هى خير قصائده فى هذا المجال ، كما أنها من أجمل الدرر فى هذا الديوان .

— ٤ —

وكما تناول الشاعر مأساة القرية برؤية قاتمة ، فقد تناول كذلك مآسى الافراد فى القرية ، بروح ناقدة ، فتحدث عن خادم العمدة «جابر» الذى كان يعمل فى الحقل ، وفى البيت فينظف ويمسح الارض ، وينظف المائدة وفى أثناء عمله فى الحقل ، وفى تنظيف البيت ، واعداد المائدة للضيوف مات ، واخذ المدعوون يتناقلون الحديث هنا وهناك ، ولم يخطر على بالهم «جابر» . وقد استخدم الشاعر القصة فى بناء هذه القصيدة واسماها «من صور الاقطاع» ، ولكنه لم يوفق فى خلع الانفعال المؤثر على هذه الفكرة .

ويحدثنا فى قصيدته «ريفية» فى مدينة الغرباء عن خادم تعمل بالمدينة ، تقوم باعمال المنزل ، وتمسح الارض فى الشتاء القارس ، وتشعر بغربة فى المنزل ، ويقص حالتها النفسية قصا مؤثرا بطريق المونولوج الداخلى أو تيار الشعور .

فهاهى ذى الخادم تقوم بعمل القهوة ، فتتسلل الدموع من عينيها ، وتحلم بقريتها وتشكو حالها فىاغفاءتها الى امها ، فهى سجينة ، ووجوه الناس لاتعرفها ، وهى قد كبرت ولاتجد من يعرفها ، وقد تجاسرت يوما ، فاتصلت بانسان ، ولكنه تنكر لها ، لانها فقيرة ، وتود العودة الى القرية ، لان الناس لايتجاوبون معها ، لان الفقراء هناك لايخافون الفقيرة .

وقد أدى الشاعر القصة اداءطيبا وان كانت تحتاج الى لمسات تشذب بعض سطورها فهو يبدأها بقوله :

— « كانت القهوة تغلى ويداها تنسجان » ، ولا معنى للنسيج ، فى هذه الآونة . وقوله «ماتت الفتوة تعبى ، فتسلت بالبكاء» ، ولم يقل لنا فى البداية انها كانت تغنى . وفى قوله « وأنا وحدى شهيدة ، ربما كانوا جميعا شهداء » .. تناقض ظاهر لانها هى الشهيدة وحدها ، والاخرون فى المدينة غير شهداء . وأرى ان من واجب الشاعر أن يحاسب نفسه على كل لفظة وعبارة ، لان القصيدة تنقية وتكثيف وتركيز .

ولم يقف الشاعر عند رفض الواقع، وبيان مأساة العائشين في الريف، ولكنه نظر نظرة ناقدة صارمة الى أخلاق سكان المدينة، وسلوكهم، فهم نهازون ومنافقون، في قصيدته «الذين يسرقون حبكم» ـ وهم انانيون، نرجسيون، محبون للمظاهر في قصيدته «نرجس والمدنية» ـ وهم منافقون يحبون أنفسهم في قصيدته «الذين يغنون لغيرك ياوطني» ومن خير قصائده في هذا المجال، قصيدته «نرجس والمدينة» التي اشرنا اليها في بداية هذا الحديث، ويصف فيها سكان المدينة بانهم انانيون، محبون للمظاهر، يحملقون دائما في المرآة فهم نرجسيون. وقدبدأ هذه القصيدة باسطورة ناركسوس الاغريقي الذي كان يعشق ذاته، والذي وقف يوما على الشاطيء فرأى في الماء صورته، فاحب جمال الصورة، وصبا اليها فغرق في الماء، وقد روى هذه الاسطورة مستقلة كفرشة للقصيدة، ليوضح فكرته عن رجال المدينة ونسائها، ولم يدمجها في بنية القصيدة، فكانت اشبه بالتطريز لها.

ويمثل هذه النظرة القائمة، رأى الشاعر في سكان المدينة، بنظرته الريفية الساذجة التي تدين بالمثل الرفيعة، فحمل عليهم، وتكتل برمه منهم، لانهم يظهرون غير مايبطنون ويتلاقون في نفاق، ويكتمون مايجول في نفوسهم خوفا وفرقا. وكل يعيش لنفسه. واعرب الشاعر عن هذا التبرم في قصيدته «السر»، وهي تجربة جديدة حادة عبر فيها الشاعر عن خواطره في توتر وحدة. وبداها بنغمة مؤثرة حزينة.

في صمت أحمل كفنك
وادخل قبرك
لاغيرك
سوف يصلي من اجلك
لاغيرك
فالناس هنا منكفئون على سر
لا احد يبوح
ومدينتنا صوت مبحوح

قبضة شيطان يرقص فيها الذعر
شيء مر . (٥)

وهذه القصيدة في رأيي، من اقوى قصائده بناء، واحلاها نسيجا، ومع هذا فان بعض سطور زائدة تسربت فيها وكان يمكن حذفها، فلاتتعرقل حركة القصيدة عن الانطلاق.

ومن مثال ذلك ماجاء في هذا المقطع:

لا احد يقول حقيقته
والزمن توقف في منتصف الليل
ماتت تحت الفرسان الخيل
الويل الويل
لمن قال حقيقته
في كلمات تحمل بعض الضوء
فالكلمات هنا من جلد يتشقق
ينزف منها الدم

فترى السطر الثالث من هذا المقطع «ماتت تحت الفرسان الخيل» سطرا يوقف حركة المقطع، وهو سطر لايوضح الفكرة، بل يبلبلها لانه صعب التاويل علينا.

ثم نراه يتابع هذه السطور، معبرا عن ضياع الامل.

ومناديل العشاق على سور حديقتهم تتمزق
والابحار محال
الابحار محال

لا احد يفك بروميثيوس الموثق
لا احد يشير الى الميناء

فنراه يقحم هذا السطر «لااحد يفك بروميثيوس الموثق» ليقوي فكرته باسطورة بروميثيوس.

ونرى أن هذا السطر يعرقل التسلسل، أو على الاقل هو نوع من التطريز واستعراض الثقافة ومسايرة «المودة» الجديدة التي ابتدعها ت.س. اليوت وامثاله، ولا حاجة الى هذا السطر، لانه من النوافل في القصيدة.

واذا غضضنا النظر عن مثل هذه الشكليات الثانوية فان القصيدة تجربة في ذاتها جديدة وناجحة كما اسلفنا القول.

ويبدو أن الشاعر بعد عزلته، ورفضه للواقع رفضا كليا، ونظره الى الناس نظرة تنم على الانعزال وعدم قدرته على التواؤم مع البيئة، اخذ يتحول رويدا رويدا في فترة من فترات حياته الى النظر الى الواقع نظرة فاحصة جدية، فرأى أن من اسباب شقاء بلاده وجود الفارق الطبقي الكبير بين «الغني والفقير»، وبين ابناء القرية وابناء المدن، وفاتحة هذه المرحلة تكشف عنها قصيدتاه «لعبة» «والقرية المرتعشة».

فمن خلال لعبة يريدها صبي فقير، كشف عن الفارق البعيد بين الغني والفقير فالشاعر في هذه القصيدة يقول للصغير الذي يتلهف لاقتناء عروسة جميلة غالية:

صغيري العزيز أنت تجهل الكثير
بني انها لآخرين غيرنا
لآخرين يملكونها ويملكوننا
ويسرقون خبزنا
وفي الطريق لايروننا
جيوبهم يطل من عيونها الذهب

ثم يقول:

فتلك لعبة كبيرة الثمن
لطفلة من غير جنسنا
وقومها الكبار يملكوننا
ويملكون عالما من الذهب
وعالما من الرقيق مثلنا
فتستطيع أن تشير
تقول ياأبي، فيشتري لها قمر!

والقصيدة جيدةقامت على صورتين متقابلتين لحال الغني والفقير، ومع هذا فلم يسلم بناؤها من الصور الصغيرة الذهنية البعيدة التصور، واستخدام مثل هذه الصور، شائع في شعر محمد ابراهيم أبو سنه، وهي صور وان كانت أصيلة في ذاتها الا أنها لاتوضح المعاني والافكار في القصيدة توضيحا ملموسا، ومن هذه الصور قوله في أول هذه القصيدة:

«أهذه «العروسة» التي يسيل فوقها السنا»، وهي بداية لاتشد حواسنا وتجعلنا نظر الى جمال العروسة، بل الى جمال الصورة.

ومن هذه الصورة ايضا التي جاءت

فى وسط القصيدة كاشفا فيها عن حال الفقراء :

نسير كارتعاشه بلا غطاء
كدعوة مريرة بلا سماء
كأنة حزينة بلا انتهاء

ومثل هذه الصورة المتراكمة وان كانت اصيلة فى ذاتها وغير مطروقة، فانها لا تقربنا من هؤلاء الفقراء ، ولا تقوى شعورنا بحالتهم التاعسة، بل تبدو وكأنها نوع من الزينة .

ولهذا طالبنا الشاعر فى موضوع سابق باستعمال الصور الحسية الموحية ، والصور الواقعية التى تتصل بحياتنا اليومية ، فمثل هذه الصور، تكون أشد فاعلية فى القلب والذهن معا .

وفى قصيدته « القرية المرتعشة » نراه يجرى مقابلة بين حال القرية التاعس ورجالها الخائفين وبين رجال المدينة ونسائها الذين ينعمون بالرغد والترف ، وينتهى فى هذه القصيدة بدعوة رجال القرية الى تبديد ظلامها، ورفع الجليد المتكاثف من حولها .

والتعبير فى الجزء الأول من القصيدة تعبير مهتز مختل فنجده يقول واصفا حال القرية :

وعامها يؤقت الجليد
والرياح عامها
تكاد لا تعى هناك صيف
وعامها الطويل الف ـ
وعامها القصير لم يزد
وربما يجىء ضيف

ومعانى هذه السطور تحمل الى الذهن الاضطراب ، فعام يؤقت للجليد والرياح عامها ، وعام طويل بألف ، وعام قصير لم يزد ، فلا تجد فى هذه السطور الا لعبا بالآراء .

وقد جاء تعبيره فى الجزء الثانى من القصيدة اذ يقول معبرا عن حال أهل المدينة :

هناك يا نساء قريتى نساء
الهم ما سمعن عنه ، لم يطف
ببالهن ، ما سمعن بالمساء
تصيح فى خدودهن حمرة الدماء
هناك يا رجال قريتى رجال
وجوههم كالقطن فى البياض

ثم ينهى هذا الجزء بقوله :

فنقرى يا قريتى فى هيكل المساء
وثقبى بفاسك الجليد
فسوف ينتهى الشتاء
وتبدأين من جديد !

ـ ٧ ـ

ويتحول شعر أبى سنة فى هذه الفترة الى لون باسم ، فيعبر عما يكنه قلبه من حب عميق للناس ، ولكنه يحس فى أثناء ذلك بالأسى لأن حبه لا يتحول الى اعمال ، وتمثل هذه الحالة الجديدة قصيدته « يا قلبى » التى بداها بقوله :

ما أجمل يا قلبى ان تلهث خلف
حياة الناس

منقطع الأنفاس

تصل فى كل عيون أذبلها الهم
وتجفف من فوق جراحات الناس الدم

ثم يصور قلبه بصور قريبة الى الذهن والحس يقول :

يا منديل العطر الضاحك
فى أيدى الحسناوات
يا لون البسمات
يا لون العين الخضراء
ان كنت تحب
يالون الدمعة فى عين يتيم فقد الأب

ثم يعاود ابراز حبه لبعض الأفراد التاعسين :

يقول :

كم تلهث فى كل مكان تبذر أحلامك
كم تأكل أيامك
فى باخرة لا تبصر عند الأفق شواطىء
وتعود ترف على عين صغير
مات أبوه
جثة حر قد شنقوه !

ثم ينتهى فى هذه القصيدة الجميلة بابداء أساه ، لأن هذا الحب ، ليس ايجابيا ، يقول :

لكن ماذا يجدى يا قلبى حبك
والريح ذراع فوق الباب
الريح عواء ذئاب

ثم ينهى هذه القصيدة بقوله :

والحب طيور لا تفلت من أيدى الريح
سيظل هتافك يا قلبى أبكم

وهذا الحب الذى يخفق فى قلبه للناس ، و لايقدر على ممارسة دواعيه، هو ضرب من الفرح الباطنى يمازجه الأسى ، هو فى اعتقادى منتهى الحب .

وقد جلاه فى قصيدته الحلوة الآسرة « دعوة الى المعبد » وهى قصيدة تروى فى جهر تحول الشاعر من الرفض الى القبول ، تحول فكرى ، وقلبى معا ، وهى أشبه بالاعتراف ، حيث ينبؤنا الشاعر فيها بانه هجر اتجاهه الفكرى الذى كان يعتنقه ، اتجاه كان يجعله فى دنيا الناس فى غربة وضياع ، واتجه الى واقعه والى شعبه . فوجد نفسه وعرف دربه .

ويبدا هذه القصيدة بقوله :

يا شعبى المعبود هددنى الصقيع وما
التحفت بغير حبك
أنا صيحة الثلج المحطم فوق قلبك
أنا قد عرفت الحب يوما
قد عشقت بغير دربك
ورفعت قلبى كالشراع بكل زورق .

ويستطرد ذاكرا أن قصائده الذاتية في الحب ، والتي تجاهلت حب الشعب كانت ناصلة اللون خافتة اللحن ، فوسدها الظلام ، وها هو ذا الآن وهو يغني للـوطن وللشعب ، عادت الى قصائده النضارة ، والى نفسه الأنس والطمانينة والامل حيث يقول في ذروة قوية جميلة مخاطبا الشعب :

فاذا انا بشـعاع حبك اهتـدى
واذا هنالك في ضـفافك معبدي
النجم يكتب في جبينك كل احلام الغد
ببحيرة العرق المفدى قد غسلت انا يدى !

وبهذه القصيدة الجميلة ، موضوعا وشكلا ، وجد الشاعر نفسه ، ووجدنا الشاعر في بنائه القوى ونغماته الدافقة بالقلوب والآذان .

— ٨ —

ولا نستطيع تناول باقي القصائد ، وحسبنا اننا تناولنا طائفة منها تحدد اتجاهاته وتكشف عن فنه ، اتجاهه الرافض في قصائده ((النهر والذين يعبرون)) و ((العجوز والحلم أقول اتجاها)) ، الى قبول الحياة في الطريق)) و ((الاغنية المرحة)) ، وغيرها من القصائد التي لم تتناولها مثل قصيدته «الوباء، واليمام المهاجر» — واتجاه ناقد للواقع الفردي في مثل قصيدته « من صور الاقطاع » و«ريفية في مدينة الغرباء» وناقد للواقع الجماعي في مثل قصيدته « اللعبة والقـرية المرتعشة » واتجاه ناقد لسيكلوجيـة النـاس وخلقهم في مثل قصـيدته « الذين يسرقون حبكم » و « نرجس والمدينة » وغيرهما من القصائد ، من مثل « من قريتي الى مرفهة » ، واتجاه واقعي متفائل ، يبدو في قصـيدته « يا قلبي » و « عودة الى المعبد » .

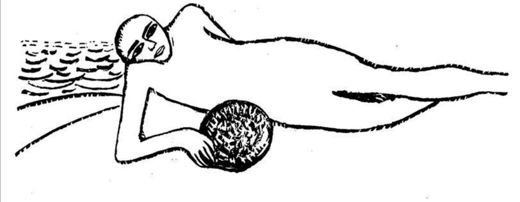
وتتخلل هذه الاتجاهات نزعة ، ولا اقول اتجاها الى قبول الحياة في ظل الحب والجمال الأنثوى .

وفي القصائد المعبرة عن هـذه الاتجاهات يجود في طائفة منها ونذكر بخاصة « الاغنية المرحة » و « السر » و « طفلة القمر » و «حب فقدته » و«رسالة الى حبيبة غائبة» و«عودة الى المعبد» وغيرها من القصائد .

وقد اخذنا على الشاعر ، انه يهمل في اجراء اللمسات التهذيبية الأخيرة بعد الانتهاء من كتابة قصائده ، كما اخـذنا عليه انه ينزع الى الصـور بعيدة التخيل ، والتي لا تتصل بالواقع وتربطنا بالحياة اليومية ، مما يوهن تأثيرها في المتلقي ، كما لاحظنا عدم اهتمامه بجمال التركيب في كثير من تعبيراته ، ولا مجال لبيان ذلك ، فهذا شيء يطول ذكره ومع هذه الهفوات الفنية التي يمكنه علاجها ، فانا لنحمد



له ما في شعره من وزن فكرى مقدور ومن أصالة موضـوعية ، وحسن استخدام للرموز المتقنة ، وأهم من ذلك كله نزعته المستقبلة وبعده عن المحـاكاة والتقليد في موضـوعاته أو أسلوبه ، وهذا مايجعلنا نثق بأن الشاعر محمد ابراهيم أبو سنة سوف يشق طريقه في احسان وتوفيق ، اذا تلاءم مع واقعـه ، وعبر عنـه مصورا أو حافزا اياه الى التقدم كما رأيناه في فترة من حيـاته في مثل قصيدته الممتازة ((عودة الى المعبـد)) ، وثقتنا وطيدة قائمة على ما نعرفه فيه وما لمسناه في هـذا الديوان من ذكاء ، واعتـداد عنيـد بنفسه ، وطموح بعيد ، وهي صفات عقلية وذهنية ، سوف تجعله من نجوم الشعراء اللامعين المرموقين في سـماء شعرنا الحديث .





عالم كولن ويلسون

تأليف : سيدنى كامبيون   عرض : على كمال زغلول

لاقت الترجمة العربية لكتاب كولن ويلسون الاول ((اللامنتمى)) (١) نجاحا غير عادى لدى القراء العرب ، فقد ظهرت له في بيروت ثلاث طبعات متتالية كذلك لم يكن حظ كتابه الثانى ((سقوط الحضارة)) من النجاح باقل من حظ كتابه الاول . ولم تلبث ترجمة روايته الاولى ((طقوس في الظلام)) ان نشرت وتلقفها قراؤه بشغف كبير .

ويدل النجاح الذى لاقته كتب ويلسون الثلاثة في العالم العربي على حاجة مجتمعنا المتطور الى مثل هذه الكتب التى تفتح أمام شبابنا مجالات أوسع وآفاقا جديدة في عالم الادب والفكر .

ولم يقتصر نجاح كولن ويلسون على الشرق فحسب ، بل تعداه الى الغرب فقد لاقى نجاحا منقطع النظير في انجلترا وأمريكا والمانيا على وجه الخصوص . ومنذ أن نشر له كتاب ((اللامنتمى)) عام ١٩٥٦ ، والحديث عنه وعن الكتاب لم ينقطع في الاوساط الادبية والثقافية فى لندن . فالمؤلف لم يكن قد تعدى الرابعة والعشرين من عمره عند نشر الكتاب ، الذى يعد بحق بحثا عميقا وشاملا لشخصية اللامنتمى في الادب العالمى ، بحيث يصعب على من في مثل سنه ان ياتى كتابه على هذه الدرجة من العمق والشمول . واننا لنجد في عصرناهذا كثيرا من الادباء الشبان ممن في مثل سن كولن ويلسون ممن يشتهرون بكتابة القصة القصيرة او الطويلة او قرض الشعر ، دون ان نجد من بينهم من ترجع شهرته الى اعداد مثل هذا البحث الموضوعى الشامل الذى تحتاج كتابته الى الرجوع الى العديدمن الكتب والمراجع للاطلاع عليها وتفهمها . وقد أثار ذلك فضول الكثيرين ودهشتهم من ذلك الشاب الحديث السن الذى استطاع ان يقرأ كل هذه المؤلفات ليعد منها كتابه عن اللامنتمى .

من أجل هذا ألف سيدنى كامبيون كتابه ((عالم كولن ويلسون)) الذى نعرض له الآن . وقد قدم كولن ويلسون للكتاب بقوله :

((لقد اتممت دراستى الثانوية وانا في السادسة عشرة ، ثم قمت ببعض الدراسات المسائيةلمدة سنة للحصول على احدى الدرجات العلمية ، وكنت أشتغل ببيع الصحف ، ولما لم يكن أبى وأمى في حاجة لما أحصل عليه من نقود فقد أتاح لى ذلك أن انفق بعض المال في شراء بعض المواد الكيميائية لمعملى الذى اقمته في احدى الحجرات الخالية بالمنزل ، وكنت اقضي وقت فراغى في قراءة بعض الكتب التى كنت استعيرها من المكتبة العامة . وهكذا استطعت أن اثقف نفسي بنفسي ، ولما كانت بى رغبة فى أن أصبح ذات يوم كاتبا مرموقا ، لذلك كان يتحتم على أن ارفض أى وظيفة محترمة ، أو أية منحة دراسية جامعية . وعشت عيشة المشردين حتى نشر كتابى الاول)) .

* * *

يبدأ الكتاب الذى نعرضه بفصل يحكى قصة لقاء سيدنى كامبيون بكولن ويلسون الذى تم بناء على طلب سيدنى كامبيون ، وكان قد أعجب بشخصية كولن ويلسون وكتاباته ، فرغب في أن ينحت له تمثالا نصفيا . ومن لقاء الاثنين ولدت فكرة هذا الكتاب الذى بين أيدينا .

وفي الفصل الثانى من الكتاب وعنوانه ((الطفل غير العادى)) يقص المؤلف قصة ويلسون من اولها فيقول :

((ولد كولن ويلسون في السادس والعشرين من يونيو سنة ١٩٣١ وكان طفلا مزعجا لايكف عن الصياح والحركة

(١) The Outsider 1956 ترجمه الى العربية أنيس زكى حسن ، ونشرته دار العلم للملايين .

لجذب انتباه من حوله ، ولكنه بعد أن بلغ العاشرة هدأ وأصبح يحب العزلة ويكره الالعاب الجماعية ، فكانت كرة القدم في نظره وهو في الحادية عشرة عبارة عن «أناس سخفاء يطاردون كرة من الجلد» . وحتى السادسة عشرة قضي ويلسون حياته في شجار دائم مع أبويه ، فقد كان يقضي معظم وقته يقرأ في فراشه الامر الذى لم يرتاحا له . وفي نهاية عامه السادس عشر فشل في الحصول على شهادة اتمام الدراسة الثانوية ، فعمل في مغزل للصوف حيث كان يشرف على بعض العاملات ويزن الصوف قبل تسليمه لهن ، وبعد استلامه منهن ، ورأى والده أن هذا الفشل دليل آخر على انه غير صالح لشيء . وكان هذا العمل يستغرق وقته من الثامنة صباحا حتى السادسة مساء، ولكى يقضي كولن على الملل الذى كان ينتابه أثناء عمله فقد أخذ يخطط لمشروعاته الادبية . وكانت أولى أعماله قصة قصيرة بعنوان «آلة الجو» (٢) ، ومسرحية طويلة من ثلاثة فصول بعنوان «أب وابن» (٣) ، وهي مستلهمة من مسرحية برناردشو «الانسان والانسان الكامل» (٤) ، وفيها يحاول كولن ويلسون أن يوازن بين تفاؤل برناردشو ، وتشاؤم ت.س اليوت .

ولم يستطع ويلسون أن يستمر في عمله بالمغزل سوى بضعة أسابيع ، سئمة بعدها وهجره ليعتكف في حجرة نومه حيث انصرف الى كتابة مسرحية وقراءة أشعار اليوت وقصيدة ملتون الشهيرة «الفردوس المفقود» .

وكان ويلسون يتردد من آن لآخر على احدى المدارس القريبة ليستعير منها بعض الكتب المقررة لنيل شهادة اتمام الدراسة الثانوية ، وفي احدى المرات انتحى به ناظر المدرسة جانبا وعرض عليه أن يعمل أمينا للمعمل بالمدرسة فيتسنى له الحصول على بعض المال ليستعين به على اتمام دراسته . ومع ذلك فلم ينصرف ويلسون لدراسته بل وجه كل همه للتأليف ، فكتب بعض القصص القصيرة والمقالات والمسرحيات ومنها مسرحية من فصل واحد بعنوان «المصلح» (٥) ومنها يتخيل برناردشو بعد موته وقد ذهب الى الجحيم ، فترتب على ذلك رسوبه في الامتحان.

وبعد حوالى سنة من العمل بالمدرسة لم يطق ويلسون البقاء فيها ، فتركها وأخذ في كتابة مذكراته بعد أن توجه الى مكتب العمل باحثا لنفسه عن عمل جديد ، وفي هذه المرة قرأ ويلسون «الجريمة والعقاب» و «المجذوبين» لدستويفسكى ، وأعاد قراءة «يوليسيس» لجويس .

عمل ويلسون بعد ذلك في مكتب للضرائب ، كما كتب بعض القصص القصيرة ، وقام ببعض الدراسات الخاصة بالشعر والمسرح في أحد المعاهد ، وكان يتلعثم دائما عندما يطلب منه قراءة احدى القصائد أو مشهدا من احدى المسرحيات . وقد راودته في هذه المرحلة من حياته بعض الافكار الغريبة فقرر ذات يوم أن يصبح نباتيا ، ولكن مديرة المنزل الذى كان يقيم فيه عارضت تلك الفكرة بشدة .

وجاء ميعاد أدائه للخدمة العسكرية وكان لذلك فيما بعد أبلغ الاثر في حياة كولن ويلسون ، فقد كان يهاب الجيش منذ الصغر ، ويرجع ذلك الى أن والده كان اذا ماتوعده قال له : « انتظر يوم تنضم الى الجيش وعندئذ سيعود لك عقلك» وقد قاسي ويلسون الكثير في الجيش اذ التحق بسلاح الطيران ، وكثيرا ماسقط اعياء في أثناء أدائه للتدريبات العسكرية الاولية ، فكان يقضي بالمستشفى فترات طويلة .

وبعد انتهاء المرحلة الاولية كلف ويلسون بالقيام ببعض الاعمال الكتابية ومع ذلك لم يطق الكاتب الشاب الجو العسكرى والاوامر الصارمة . وقد كتب ويلسون في مذكراته صباح ذهابه الى فرقته متسائلا « هل سيغيرني سلاح الطيران أم سأخرج منه كما أنا الآن محتفظا بشخصيتي » .

وقد اعتاد كولن ويلسون أن يكتب يومياته منذ صغره . فتجمعت لديه وهو في التاسعة عشرة من عمره عشر كراسات كبيرة ضمنها احاسيسه المختلفة تجاه كل مامر به في سنيه الاولى ، ولكنه آثر أن يحرقها لما كان فيها من خواطر لم تعجبه هو ، ولم يشأ أن يطلع عليها احد .

وبعد هذه التجربة بدأ كولن ويلسون يكتب يومياته من جديد ، ولكن بتركيز أكثر في هذه المرة ، فكان ينتقى من أحاسيسه وانفعالاته وأفكاره مايرى أنه يستحق التسجيل . وكثيرا ما كان يتكاسل عن كتابة يومياته تلك كما لو كان يخشي أن يأتي يوم يمزقها فيه ، وقد أعطى كولن ويلسون هذه المذكرات الى سيدني كامبيون عله يستفيد منها في كتابه «عالم كولن ويلسون» . وفي الكتاب ثلاثون صفحة من هذه المذكرات ذكر فيها الكاتب الشاب انفعالاته أثناء خدمته في القوات الجوية وآراءه في بعض الكتب التى قرأها .

وقرر ويلسون بعد تسريحه من الخدمة العسكرية أن يعمل عملا جسمانيا فاشتغل بالبناء ، وكان يحمل الملاط على كتفه . وكانت الايام الاولى التى قضاها في هذا العمل من أجمل أيام حياته . كان حديث العمال كله يدور حول موضوع واحد هو «الجنس» وقد استمع كولن ويلسون الى حديثهم هذا باهتمام بالغ بينما كان يقرأ «البهجوار جيتا» وهى احدى الملاحم الهندية المقدسة في مقصف قريب من مكان العمل . وكثيرا مافكر في تلك الفترة في السفر الى الهند .

وكانت الفكرة التى خرج بهـا ويلسون من تجربته الاولى كعامل بناء هي أن انسانية الانسان تكمن في تطلعه نحو المستقبل وشعوره بأن هناك

(٢) The Atmosphere Machine
(٣) Father and Son
(٤) Man and Superman
(٥) The Reformer

هدفا يبغيه ، وهو بغير ذلك ينتمي الى قطيع من الحيوانات .

وعمل ويلسون بعد ذلك بائعا على احدى موائد القمار ، ولكنه طرد لتغيبه يوما واحدا عن العمل . ثم عمل في ثلاثة مزارع مختلفة ، واحدة بعد الاخرى . ولما لم يكن يملك من المال مايكفي لان يرحل الى فرنسا حيث صديق له كان يراسله في ستراسبورج ، فقد عمل في احد البساتين ثم في مزرعة . وهكذا استطاع أن يجمع أجر السفر الى فرنسا . واستمرت اقامته هناك ستة أسابيع مليئة بالمغامرات ، فقد أفلس واختلف مع صديقه الى حد العراك . وفي النهاية استدان من من القنصلية البريطانية ثمن تذكرة العودة الى بلده ليشستر حيث عمل كاتبا في احدى الشركات الهندسية الكبرى بمرتب ١٢ جنيها في الشهر .

ومرة أخرى مل ويلسون العمل في المكتب وتركه الى غيره ثم الى آخر الى أن أعجبه العمل في مصنع للمطاط وهناك التقى بفتاة تدعى «بيتي» أعجبته وأحبها ثم تزوجها بعد ذلك. وكان يذهب اليها ويقرأ عليها آخر ماكتبه ، وكانت رواية عن ستراسبورج واعتاد ويلسون أن يسمع برامج الاذاعة التي يحبها عند «بيتي» ، فكان يستمع معها الى مسرحيات كاملة وبعد الزواج قرر الانتقال الى لندن ليعيش معها هناك حيث التحق بعمل في مصنع للبلاستيك يبعد عن مسكنه بضع دقائق .

وفي هذه الاثناء عكف ويلسون على دراسة «كتاب الموتى» فقد كان يبحث عن امكانية استخدام مثل هذا الكتاب كأساس لروايته «طقوس في الظلام »(٦) تماما كما استخدم جويس «الاوديسا» أساسا لروايته «يوليسيس» .

ونشرت «بيتي» اعلانا لتعمل ممرضة لعرض عليها احد المرضى الاغنياء أن تمرضه وتلازمه طيلة اليوم وتقيم معه في قصره ، ولم يمانع أن يعمل كولن ويلسون في مكتبه . وكانت هذه أهدأ

(٦) Ritual in the Dark نقلها الى العربية ، فاروق محمد يوسف ، ونشرتها دار العلم للملايين .

وأهدأ أيامهما ، فلم يكونا يدفعان ايجارا لمسكن علاوة على أن ويلسون تمكن من أن ينسخ أولى رواياته على الآلة الكاتبة . واعتاد ويلسون أن يقضي أيام السبت في المتحف البريطاني .. فكان يقضي اليوم بطوله في المتحف حيث يتناول بعض الشطائر التي يحملها معه . وفي هذا يقول : « كانت تراودني رغبة رومانسية في أن أكتب في نفس المكان الذي كتب فيه صمويل بتلر وكارل ماركس وبرناردشو و هـ.ج. ويلز » .

ومالبث المريض الثري أن مات ودب الخلاف بين ويلسون و «بيتي» مما أدى الى انفصالهما في النهاية بعد ذلك انضم ويلسون الى « جماعة لندن الفوضوية» (٧) . وقضي معظم عام ١٩٥٣ يحاول أن يثبت وجوده بين صفوف هذه الجماعة . وأخذ يستمع الى خطب الفوضويين باهتمام بالغ في «هايدبارك» وخصوصا خطب زعيمهم فيليب سانسون ، وكانت فكرة ويلسون عن الفوضوية مستقاة من بعض الشخصيات الروائية في الادب الروسي كرواية «الشياطين» أو «المجذوبين» لدستويفسكي ، ومن الاخبار التي كان يقرأها في الصحف عن حوادث الانفجارات التي كانت تحدث آنذاك في دول امريكا الجنوبية .

وقد تحدث ويلسون الى الفوضويين بصفته فوضويا كبيرا بعد أن قدمه لهم فيليب سانسون . وقد أثار حديث

(٧) London Anarchitic Group

ويلسون كثيرا من الفوضويين الذين لم يوافقوه على ماقال . وبعد أن انتهى ويلسون من حديثه انتحى به سانسون جانبا وأخبره بلطف شديد أنه لن يسمح له بالحديث مرة أخرى الا اذا فهم ووعى مبادىء «مالاتستا» (٨) وقد شعر ويلسون بضيق شديد اذ لم يكن في نيته أبدا أن يكون داعية لمفهوم رجل آخر عن الفوضوية .

ولم يلق خطابه الثاني اهتمام المستمعين الفوضويين على عكس ماتوقع ويلسون الذي قضي اسبوعين في اعداده وعلق عليه آمالا كبيرة . لذلك انتهز أول فرصة سنحت له لينسلخ عن «جماعة لندن الفوضوية» ، وكانت هذه الفرصة هي الخلاف الذي قام بعد قبول هربرت ريد ـ أحد أعضاء احدى الجوائز الشرقية ـ وتسمك الجمعية باسمه من باب الدعاية لها بحجة أن الجائزة أعطيت له لا لنشاطه السياسي ، بل لنشاطه الادبي والاجتماعي .

وقد كتب ويلسون بعد ذلك بسنين عديدة مقالا في مجلة «انكاونتر» قال فيه :

« لم تكن لي أية معتقدات سياسية سواء أكانت فوضوية أم نقابية أم غيرها .. ولكني تحدثت في «هايدبارك» بعد أن خاب أملي (يشير الى تجربته الزوجية) وكان لدى شعور بوجوب عمل شيء ما ، كما كنت اريد أيضا أن أجرب الحديث الى الجماهير ، ولم يكن مقدار سعادتي ليتناقص لو كنت اتحدث عن الشيوعية او المرمونية (٩) أو عن أى مذهب آخر » .

ثم عمل ويلسون في محل لبيع السجاد ، وهناك تعرف على زميلة له في العمل تدعى «جوي» واشترك معها في تقديم حفلة مسرحية بمناسبة عيد الميلاد قدما فيها مسرحية برناردشو «الانسان والانسان الكامل» وقام ويلسون بدور «جون تانر» .ولم

(٨) Malatesta قائد ايطالي عاش في القرن ١٥ ، وعرف باهتمامه بالعلم ، وقد كثرت جرائمه فحرمه البابا بيوس الثاني من ولائه للكنيسة .

(٩) طائفة مسيحية .

لندن بعد أن اقنع «جوى» بالسفر معه . وهناك عمل باحد المفاسل ، وكان يشرف على أربعة من العمال يحمل معهم الغسيل مبتلا الى المناشف وكان عملا شاقا بالنسبة له ، وهناك زاره والد «جوى» بعد أن تاكد من أن ابنته لاتنوى الزواج منه وطلب اليه أن يتوقف عن مقابلتها ، وبالطبع رفض ويلسون . وغادره الاب بعد مشادة عنيفة ، وبالرغم من ذلك فقد استمر ويلسون « وجوى » على علاقتهما دون زواج .

واخذ ويلسون ينتقل من عمل الى آخر والتحقت «جوى» بعمل فى احدى المكتبات . وكانت مشكلات ويلسون لاتنتهى مع مديرات المنازل التى كان ينزل بها ، فدائما يتشاجرن معه ، وهو لايشعر بالاحترام ابدا نحوهن . ولكى يحسم ويلسون كل هذه المشكلات قرر أن يبيت في خيمة يقيمها في أى مكان يناسبه ، وفعلا اشترى خيمة ومشمعا عازلا للمطر وغطاء ثم اقام خيمته بالقرب من المكتبة التى تعمل بها «جوى» واستانف حياة أهنا من سابقتها فقد انحصرت نفقاته فى الطعام واشباع هواياته . وكان يقضي أيامه فى المتحف البريطانى يعيد كتابة «طقوس في الظلام» للمرة الرابعة ، وأما أمسياته فكان يقضيها اما فى احدى المكتبات واما مع «جوى» .

وفي المتحف البريطانى تعرف ويلسون على الروائى البريطانى انجوس ويلسون (١٠) وكان موظفا فى المتحف ، وبعد حديث طويل بينهما وعده انجوس ويلسون بأن يقرأ روايته « طقوس في الظلام » فاذا وجدها جيدة فسيقدمها لناشره لينشرها . وأسرع كولن ويلسون فاشترى آلة كاتبة وبدأ ينسخ الجزء الاول من الرواية .

ومرت فترة راحة عمل فيها ويلسون فى احدى المقاهى من الخامسة والنصف مساء وحتى الحادية عشرة يغسل الاكواب والفناجين وكانت تلك أكثر الاعمال التى قام بها ويلسون راحة ، كما مهدت له سبيل القراءة في وقت فراغه قبل ذهابه الى عمله .

وفي هذه الاثناء أرسلت زوجته السابقة «بيتى» تطالبه بنفقة دائمة فاضطر ويلسون للعمل في الصباح أيضا حتى يتمكن من ارسال النفقة لمطلقته ولابنه .

وخطرت له فكرة وضع كتاب عن اللامنتمى بينما كان يقرأ فى المتحف البريطانى رواية الجحيم L'Enfer التى كتبها باربوس ، وبعد أن كتب مقدمة الكتاب أرسلها الى أحد الناشرين الذى رد عليه بأنه مهتم بالكتاب ويود أن يراه في صورته النهائية ، وبعد أن وصل نصف الكتاب الى الناشر أرسل الى ويلسون يؤكد أنه سوف ينشر الكتاب فور اكتماله .

وقد عاد كتاب «اللامنتمى» بعد نشره بمال وفير على ويلسون ، وساعده هذا المال على الهروب هو و «جوى» من لندن بعد هجوم عنيف لاقاه من الصحافة والتليفزيون . وكان نصف هذا الهجوم حسدا وحقدا على النجاح الذى حققه ويلسون بكتابه الاول الذى بيع منه في أسابيعه الاولى ٣٠ ألف نسخة . وكان هروبه مع «جوى» بعد معركة هاجمت فيها أسرتها شقتهما ، فقد أتاه أبوها يحمل سوطا لتأديبه والعودة بابنته الى بيت العائلة ، فلاذا بالفرار من باب خلفى حيث استأجرا كوخا في «كورنوول» ، وهناك كتب ويلسون كتابه الثانى «الدين والتمرد» (١١) الذى جلب عليه سخطا لاحد له بعد نشره ، وجعل كثيرا من النقاد الذين سبق أن أثنوا على كتابه الاول يتراجعون عن رأيهم .

ثم كتب ويلسون أولى مسرحياته «موت الله» (١٢) وقدمها الى مسرح «رويال كورث» الذى رفضها ، وكان قد سبق أن رفض الناشرون روايته «طقوس في الظلام» بحجة انها ستثير الرأى العام . لذلك قرر ويلسون أن يعيد كتابة روايته للمرة الخامسة ليعدل من الحوادث التى قد تثير النقاد عليه .

وغادر ويلسون انجلترا كلها الى المانيا حيث عرضوا عليه القاء محاضرتين في احدى الجامعات هناك ، وقد حققت المحاضرتان نجاحا باهرا وعاش ويلسون و «جوى» شهرين في المانيا أعجبا فيها بجو الحياة الثقافية الذى يتسم بالجدية أكثر من جو بريطانيا ، فهناك لم يحدث أن سالوه أبدا عن حياته الخاصة أو عن رأيه في النساء أو الازياء ، بل سالوه عن آرائه ومعتقداته . وكان ويلسون يقضي الليل كله مع الطلبة بعد انتهاء المحاضرات حتى الساعات الاولى من الصباح وهم يتناقشون . ومع أعياد الميلاد عاد ويلسون و «جوى» الى انجلترا مرة أخرى .

وأخيرا نشر ويلسون روايته الاولى «طقوس في الظلام» عام ١٩٦٠ بعد أن نشر كتابه الثالث عصر الهزيمة (١٣) ثم توالت كتب ويلسون في السنين الاخيرة وكلها لم تصل الى مستوى «اللامنتمى» ومع ذلك ظلت كتبه تجذب انتباه الجميع لما فيها من دراسة سليمة واستنتاجات تدل على تفكير وخيال ناضجين . وكتب ويلسون روايتين أخريين هما «ضائع فى سوهو» (١٤) و «عالم العنف» (١٥) .

وبالرغم من الهجوم الذى لاقاه ويلاقيه ويلسون عند كل كتاب جديد يصدر له فان له جمهورا كبيرا في اقطار كثيرة من العالم يتلقف كتبه فور صدورها ، فهو يمثل في نظرهم مثلا للشباب المكافح في سبيل الافكار التى يؤمن بها .

---

(١٠) Angus Wilson

(١١) Religion and the Rebel نقله الى العربية الدكتور أنيس زكى حسن تحت عنوان «سقوط الحضارة»

(١٢) The Death of God

(١٤) The Age of Defeat

(١٣) A drift in Soho

(١٥) The World of Violence

الغث والسمين فى علم النفس

تأليف : هـ . ج . أيزنك   عرض : محمد فرغلى فراج

يعد أيزنك H.J. Eysenek (استاذ علم النفس في جامعة لندن) عالما من ابرز علماء النفس الذين يرسون قواعد المنهج العلمي في الدراسات النفسية الحديثة ، وهى مهمة شاقة ، والاغراء بعكسها أيسر كثيرا . ذلك أن موضوع هذا العلم زاخر بالجوانب التى يشق على الباحث أن يجد السبيل الى تناولها تناولا موضوعيا ، فهى لا تقدم نفسها طوعا لمقتضيات الدقة في الملاحظة ، والوصف ، والضبط التجريبى ، وبالتالى فقد أغرى الكثيرون ممن لا يعون المنهج العلمى وعيا كافيا ، أو لا يؤمنون بعموميته، اى بصلاحيته لتناول أى موضوع من موضوعات البحث ، أغرى هؤلاء بالتوهان في عالم عريض من المفاهيم أو التصورات الذهنية التى لا تشير الى مضمون واضح المعالم ، ولا تقبل بطبيعتها الخضوع لعمليات التحقيق العلمى . والنتيجة ألفاظ تجرها ألفاظ ثم لا سبيل الى التحقيق المباشر أو غير المباشر من مدلولات هذه الالفاظ .

وأما هذا العالم الكبير فانه يؤمن بالمنهج العلمى القائم على الملاحظة، والتجريب ، والضبط الكمى ، وبان هذا المنهج هو الطريق الاوحد للتقدم العلمى .

وفي هذا الكتاب الممتع يعالج ايزنك بعض ميادين علم النفس ، ويحاول ان يميز بين الغث والسمين ، أو بين الكلام العلمى ولغو الكلام . ويهتم دائما بالوقائع التى كشفت عنها البحوث التجريدية المضبوطة كما يهتم بمقدار صلاحية النظريات وصدقها التجريبى .

وينقسم هذا الكتاب الى جزءين : الاول عنوانه ((مناطق حدود المعرفة)) ويتكون من أربعة فصول :

١ ـ التنويم والايحاء .

٢ ـ أجهزة كشف الكذب ، وعقارات الحقيقة .

٣ ـ التخاطر والاستشفاف .

٤ ـ تفسير الاحلام .

والجزء الثانى من الكتاب عنوانه ((الشخصية والحياة الاجتماعية)) ويتكون من أربعة فصول أخرى هى:

٥ ـ هل يمكن قياس الشخصية؟

٦ ـ الشخصية والارتباط الشرطى .

٧ ـ السياسة والشخصية .

٨ ـ سيكولوجية تذوق الجمال .

***

في الفصل الاول «التنويم والايحاء» يعرض ((أيزنك)) لذلك التاريخ الغريب للتنويم الصناعى (المغناطيسي) والتنويم الصناعى حقيقة علمية رغم ما أحاط بها في الماضي ، ولما يزل يحيط بها فى الحاضر من خرافات .

ويعرض أيزنك للدراسات التجريبية العلمية التى أجريت على التنويم الصناعى . فقد اظهرت هذه التجارب أن الشخص النائم يتقبل الايحاءات التى يوجهها له المنوم ، وينفذ ما يطلب اليه القيام به . كما أنه تحت تأثير الايحاء يمكن أن يرى ويسمع أشخاصا أو أشياء لا وجود لها من حوله،بل يمكن كذلك الايسمع وألا يرى ما يحيط به ، أو لا يحس حتى بدبوس يغرس في جسمه . وقد استخدام التنويم الصناعى فى اجراء العمليات الجراحية قبل اكتشاف الكلوروفورم وغيره من وسائل التخدير .

ومن الغريب ان الذين تجرى عليهم العمليات الجراحية وهم تحت تأثير التنويم الصناعى لا يحسون بأية الام على الاطلاق ، كما أنهم لا ينزفون الدماء التى تنزف فى الجراحات العادية. وقد استخدم التنويم الصناعى فى عمليات التوليد ، وكذلك فى خلع الاسنان دون ألم ودون دماء .

كما أنه يمكن الايحاء للشخص ـ وهو تحت التنويم ـ بأن يقوم في يقظته فيما بعد بأعمال معينة Post hypnotic suggestion وبعد اليقظة ، وفي الوقت المحدد يقوم الشخص بتلك الاعمال مدفوعا بقوة قاهرة لا يدرى لها سببا ، ولا يعلم من أمرها شيئا .

ومن الظواهر الغريبة التى كشفتها التجارب العلمية ايضا ، امكان جعل الشخص النائم ينكص الى سنوات عمره الاولى ، فنجده انه يتصرف ويتحدث بتصرفاته وحديثه الطفلى القديم ، بل انه يتذكر حينئذ اشياء نسيها منذ زمن بعيد ، بل حتى ردود أفعاله العصبية التى لا سلطان له عليها تعود ـ دون ما وعى منه ولا علم ـ الى ما كانت عليه أيام طفولته الاولى في شكلها ومستوى نضجها .

ويناقش أيزنك في هذا الصددامكان

استخدام التنويم في جعل الشخص يأتي بأفعالا معادية للمجتمع دون دافع من جانبه ، بل ودون جدوى من مقاومته للقوى المجهولة التي تدفعه الى ذلك .

وفي تفسير ظاهرة التنويم الصناعي يفند أيزنك الكثير من التفسيرات الخرافية . ويأخذ في تفسيره لهذه الظاهرة بنظرية الفعل « الفكر - حركي » مع ربطها بنظرية الكف ، inhibition

ويرى أيزنك في هذا الصدد أن اجراء التجارب المضبوطة هو السبيل الى بناء النظريات العلمية . وعدم اجرائها يمثل مرتعا خصبا للنظريات التي لا تقوم على أساس من الواقع.

ويحدثنا أيزنك في الفصل الثاني عن أجهزة كشف الكذب . وأساس هذه الاجهزة هو العلاقة الوثيقة بين المشاعر التي يعانيها الشخص ،وبين التغيرات الفسيولوجية المصاحبة لتلك المشاعر لدى ذلك الشخص . بل يرى البعض أن تلك التغيرات الفسيولوجية تسبق المشاعر في حدوثها . ((ففي أثناء استجابتنا لموقف معين تصب الغدد الكظرية هرمون الادرينالين في مجرى الدم ومن ثم نشعر بالغضب ، وفي موقف معين تخفق قلوبنا بسرعة ومن ثم نشعر بانفعال الخوف .))

وتقوم أجهزة كشف الكذب الحديثة على أساس التسجيل الدقيق للمصاحبات الفسيولوجية التلقائية للانفعالات ، وتصدر تلك المصاحبات عن الجهاز العصبي التلقائي ، ولا تخضع للتحكم الارادي ، ومن أمثلتها سرعة التنفس وضغط الدم. والطريقة المتبعة في استخدام أجهزة كشف الكذب هي أن تلقى على الشخص موضع الاختبار او الاتهام أسئلة عديدة ، بعضها يتصل بما يراد كشف حقيقته وبعضها غير متصل بذلك ، ويسجل الجهاز الارجاع ، لكل من الاسئلة المتصلة (بالجريمة مثلا) وغير المتصلة ، يصل الفاحص الى قرار ، عما اذا كان الشخص صادقا أو كاذبا ، حيث أن القاعدة هي أن الارجاع الفسيولوجية للأسئلة المتصلة أضخم وتختلف عن الارجاع المصاحبة للاسئلة غير المتصلة .

ولأجهزة كشف الكذب فوائدها العملية العديدة ، لكنها كذلك في حاجة الى مزيد من التجارب ، حتى تتحقق لها درجة معقولة من الدقة.

ويتحدث أيزنك في الفصل الثالث عن موضوع التخاطر والاستشفاف . ويعني بالتخاطر معرفة ما بذهن شخص آخر بغير طريق الكلام أو الاشارة ، ويعني بالاستشفاف رؤية أشياء حدثت أو تحدث أو ستحدث، وذلك دون اعتماد على ادراك حسي أو استنتاج عقلي .

ويبين أيزنك أن كثيرا من هذه الامور عرفناها عن طريق شهادة الشهود ، وهي كما أثبتت التجارب تتعرض للخطأ والخلط ، ولا يقبل في مجال العلم الا الشهادة المقرونة بالضبط العلمي ، والمحصنة ضد تدخل العوامل الذاتية .

ويعرض بعد ذلك التجارب التي أجريت في مواقف أقرب الى الضبط العلمي على كل من التخاطر ، والاستشفاف .ويناقش تلك التجارب مناقشة نقدية بهدف الوصول الى ما لها وما عليها .

وينتهي الى أن النتيجة الوحيدة التي يمكن للباحث المحايد أن ينتهي اليها هي أنه يوجد عدد قليل من الناس ، يصلون الى المعرفة التي توجد اما في عقول الآخرين ، أو في العالم الخارجي ، بوسائل ليست معروفة للعلم حتى الآن ... ويجب أن ينتظر تفسير هذه الوقائع معرفة أكثر تعمقا بالظروف التي يتوصل فيها الى هذه النتائج ، ووسائل انتقال المعرفة بغير طرق الحواس المعروفة لنا الآن .

ومن ناحية أخرى فليس هناك شيء معروف معرفة محددة فيما يتعلق بسمات الشخصية التي ترتبط بالقدر على المعرفة عن طريق التخاطر أو الاستشفاف .

ويخصص أيزنك الفصل الرابع للحديث عن تفسير الاحلام . فيلاحظ اتجاه البعض الى النظر للأحلام باعتبار أن لها صفة تنبؤية بما سيحدث في المستقبل ، في حين ترى نظريات أخرى ترتبط بنظرية فرويد في التحليل النفسي أن الاحلام تخبرنا عن عقدنا اللا شعورية الحالية التي لم نحلها ،وقد ترجع بنا الى طفولتنا الاولى ، حيث نشأت تلك العقد ونمت . وطبقا لنظرية التحليل النفسي هذه فان الحلم في مجموعه ، وفي جزئياته ، له معنى ، وهو تحقيق لرغبة تخرج من اللاشعور متخفية في ثوب رمزي ، وذلك حتى تفلت من الرقيب أو الأنا الاعلى الذي يقف لها بالمرصاد .

وقد استخدم فرويد في تفسير الاحلام أسلوب التداعي الحر ، للوصول الى الخفايا اللاشعورية،وراء الرموز الظاهرة في الحلم .

ويناقش أيزنك بعض الاحلام التي أوردها المحللون النفسيون تأييدا لنظريتهم في الاحلام . وفي كل مرة نجد أن الافكار التي يقال انها كامنة وراء رموز الحلم لم تكن بحاجة الى اخفاء أو تمويه ، وعادة ما تشغل ذهن الشخص بطريقة صريحة مباشرة في حالته الشعورية .

ويرى أيزنك أن الرموز في الحلم أشبه بتعبير بلاغي مركز عن المضمون، وليست ستارا يخفي ذلك المضمون، متفقا بذلك مع نظرية كلارك هل .

ثم يعرض المؤلف لبعض التجارب العلمية التي أجريت على الاحلام . ومنها ما أجراه العالم السوفييتي المعاصر ((لوريا)) كجزء من دراسته للعقد النفسية . ويتلخص أسلوبه فياحداث العقد النفسية اللاشعورية، تحت تأثير التنويم الصناعي ، ثم ملاحظة أثر تلك العقد لدى الاشخاص في أحلامهم أثناء نومهم الطبيعي .

وقد أدى استخدام هذا الاسلوب الى نتائج طيبة ، ولكن ما زالت الأحلام بحاجة الى مزيد من هذه الدراسات التجريبية المضبوطة ، بدلا من القصص المسهبة التي تظهر في تاريخ الحالات ، مليئة بالتخمينات، والمجادلات ، والافتراضات .

وموضوع الفصل الخامس من الكتاب هو : ((هل يمكن أن تقاس الشخصية ؟))

ويحدد أيزنك مكانة الشخصية في علم النفس على اعتبار أنها دراسة تربط بين العلوم البيولوجية ،والعلوم الاجتماعية ، أو بين علم النفس الفسيولوجي وعلم النفس الاجتماعي، وذلك لأن التفاعل بين الابنية المختلفة سواء لدى الانسان أو لدى الحيوان - هو القاعدة وليس الاستثناء .

ويشير في هذا الصدد الى الارتباط بين العشا (العمى الليلى) وبين الميول العصابية أو عدم الاستقرار الوجدانى ، وكذلك بين الارتباط الشرطى أو التعلم ، وبين الميل الى الانطواء ، وأيضا بين السلوك الاجتماعى للاشخاص وبين سماتهم الشخصية .

ويعرض أيزنك بعد ذلك للطرق المستخدمة فى قياس الشخصية ، وأولها : طريقة التقدير rating وهى وصف الاشخاص الآخرين بالسمات، أو القدرات ، أو الاستعدادات ، على أساس ملاحظة سلوكهم فى مواقف الحياة العادية ، الا ان هذه الطريقة تتعرض لتدخل العوامل الذاتية التى تجعلها غير ثابتة ، وغير مضمونة فى الوصول الى قياسات دقيقة لسمات الشخصية .

والأسلوب الرئيسي البديل لطريقة التقدير هو أسلوب الاستخبار أو الاستبيان questionnaire ، وفيه يطلب من الشخص الاجابة على عدد من الاسئلة عن نفسه ، ومن هذه الاجابات نحاول الوصول الى استنتاجات عن شخصيته . وقد انتشر استخدام الاستخبارات انتشارا كبيرا نظرا لسهولة استخدامها في اختبار أعداد كبيرة من الاشخاص في وقت واحد غير ان الشكوك بدات تنمو حول هذا الاسلوب ،فالأشخاص المجيبون قد لا يعرفون أنفسهم ، وان عرفوها فقد لا يعطون الاجابات الصحيحة . وحل هذه المشكلة هو عدم الاعتماد على التفسير الذاتى للاجابات ، وانما أن تكون العبرة بمقدار اتساقها ، ومشابهتها لاجابات جماعات تعرف مقدما سماتها المميزة ، دون اعتماد على الاستخبارات ، وتتخذ منها محكات لصدق الاستخبار الذى بين أيدينا . ويعتمد هذا الحل على التجريب والاحصاء ، لاعلى التفكير التأملى .

والاسلوب الثالث في قياس الشخصية أكثر أهمية من الأسلوبين السابقين ، وهو لا يستخدم ما يقوله الشخص عن نفسه أو عن شخص آخر، وانما يعتمد على القياس الفعلى لسلوك الشخص ، في موقف أو اختبار مصمم بهدف اظهار هذا النوع من السلوك تحت شروط تجريبية يحددها الباحث ويتحكم فيها .

ويحدثنا المؤلف في الفصل السادس عن الشخصية والارتباط الشرطى . فيشير الى مفهوم الارتباط الشرطى وكيف أن الفرد يتعلم الاستجابة لمنبه ما عن طريق الاستجابة لمنبه آخر ، وذلك كنتيجة لتكرار الاقتران بين المنبه الجديد والمنبه الاصلى .وترجع أهمية هذا المفهوم الى استخدامه في تفسير التعلم ، وله بذلك قيمة كبيرة في فهمنا لتكوين الشخصية ، باعتبار أن جزءا كبيرا منها مكتسب وليس فطريا .

ويعرض أيزنك للمفهومين الهامين في الارتباط الشرطى وهما : الاثارة والكف ، كما يعرض للصراع بينهما الذى لوحظ أنه يؤدى الى العصاب أو ما يشبه الانهيار العصبى ،وكذلك للعلاقة بين مفهومى الاثارة والكف ، وبين مفاهيم الهستيريا ، والقلق ، والانبساط والانطواء ، بما يوضح أهمية مفهوم الارتباط الشرطى كأساس تجريبى لتفسير السلوك وفهمه وتناوله نظريا وتطبيقيا ، وجدير بالذكر أن تجارب الارتباط الشرطى ترجع أساسا الى بحوث بافلوف العالم الروسى .

وفي الفصل السابع يناقش المؤلف علاقة الاتجاهات السياسية بعوامل الشخصية مثل الانطواء ، والميل الى العدوان . وكذلك علاقتها بمفاهيم التجريبية للظواهر الاجتماعية ، فهى غير مستعصية بطبيعتها على أسلوب البحث العلمى الموضوعى . وبدون ذلك لا يتوقع تقدم كبير فى المعرفة في هذه المجالات المعقدة .

*

يحدثنا أيزنك في الفصل الثامن عن سيكولوجية التذوق الجمالى . فالسيكولوجي في دراسته للجماليات يدرس خواص المنبهات التى تثير لدينا احساسا جماليا . كما يدرس سمات الاشخاص المزاجية التىترتبط باستحسان أنواع معينة من المنبهات. وفي تلك التجارب يقدم السيكولوجى المنبهات البسيطة المعروفة الخواص، لمجموعات من الاشخاص ، ويحصل على تقديراتهم لها . ويتادى من ذلك الى استدلالات معينة من الخواص الطبيعية للاشياء الجميلة وغير الجميلة وباستخدام الضبط التجريبى ،والمنبهات البسيطة نصل الى فهم لاساس التذوق الجمالى للاعمال الفنية الكبيرة .

ويعرض أيزنك أمثلة للتفسيرات التى تقوم على أساس مفاهيم التحليل النفسي الفرويدى للاعمال الادبية مثل ((هاملت)) لشكسبير ، و ((أليس في أرض العجائب)) للويس كارول ، ويناقشها وينتهى الى انها تفسيرات يستحيل اخضاعها لاى اختبار يحدد مدى صدقها ، أو زيفها ، ومن هنا لا يمكن قبولها كتفسير علمى .

ان هذا الكتاب المتع ، بمثابة نقطة معملية فى التحول الكبير فى علم النفس ، من ميدان الالفاظ والمفاهيم المائعة ، الى واقع الحياة النفسية القابل للملاحظة والتجريب والقياس



رسائل جامعية

تقدمها : نجاة شاهين

لبيد بن أبى ربيعة حياته .. وشعره

نوقشت فى كلية دار العلوم أخيرا الرسالة المقدمة من الطالب العراقى يحيى وهيب الجبورى ، المعيد بكلية الشريعة بجامعة بغداد لنيل درجة الدكتوراه فى الآداب ، وكان موضوعها « حياة الشاعر الجاهلى لبيد بن ربيعة » وشعره ، وتخريج ما لم يخرج منه . وقد أشرف على الرسالة الدكتور أحمد الحوفى .

يقول الباحث ان مما دفعه لاختيار هذا الموضوع تلك المكانة الرفيعة التى يحتلها الشعر الجاهلى بين المأثور من أدب العرب ، فقد تناوله العلماء والادباء بالعناية ، وتعهدوه بالرعاية والحفظ والصون ، وانصرفوا اليه يدرسونه ويرددونه ويتمثلون به . وعلى الرغم من اختلاف البيئات وتباعد الزمان ، فانهم لم يستطيعوا ان يخرجوا على نظم ذلك الشعر وتقاليده التى سنها فحول *الشعراء الجاهليين . ولما كان لبيد بن ربيعة واحدا من* أولئك الفحول المجددين الذين تركوا آثارهم الواضحة فى شعراء العصور المتأخرة ، كما أنه واحد من أصحاب المعلقات العشر ، فقد رأى أن يخصه بموضوع بحثه لنيل درجة الدكتوراه .

ولبيد شاعر فرد بين شعراء الجاهلية وشعراء الاسلام .. ويتميز بصفات تثير الانتباه ، وتدعو الى الاعجاب ، فهو شاعر من فحول الشعراء ومجوديهم ، وهو فارس ، وسيد من سادات الجاهلية ومعمر من معمريهم . وقد عرف فى اسلامه بالزهد والنسك والوقار والحلم ، وهى صفات قل أن توجد مجتمعة فى شاعر من شعراء عصره .. ولبيد يجمع كذلك بين تراث الجاهلية وتراث الاسلام ويحمل فى طياته مثل الجاهلية ومثل الاسلام .

***

وقد جعل الباحث منهجه دراسة شعر لبيد دراسة فنية ، بأن يجعل شعره صورة لعصره وحياته وبيئته ، لأن الدراسات السابقة ـ على قلتها ـ لم تمس شعره ، او تدرس فنه .. فدراسة المستشرقين كانت ـ فى الغالب ـ تأريخا للعصر وحديثا عاما .. وان كانوا أسبق من العرب الى العناية بلبيد وشعره . ولكن دراساتهم تفتقر الى الجانب الفنى .. وقد درس لبيد اثنان من المستشرقين الاول « سالون » ، الذى قدم رسالة صغيرة عن حياة لبيد بعنوان (لبيد الشاعر) الى جامعة ليبزج للحصول على درجة الدكتوراه سنة ١٨٧٧ م ، وهى رسالة موجزة تقع فى ست وثلاثين صفحة كتبها بالانجليزية ، واستعرض فيها بسرعة حال الشعر منذ الجاهلية حتى *العصر العباسى المتأخر ، ثم تعرض لحياة لبيد كما وردت* فى كتاب الاغانى ، ولم يتعرض لشعر لبيد الا بقدر ، لأن ديوان لبيد لم يكن قد طبع بعد فقد ظهرت طبعة الخالدى سنة ١٨٨٠ ، وطبعة هوبر سنة ١٨٩١ ، وقد أغفل « سالون » كثيرا من المشكلات التى تعترض حياة لبيد ، كما أنه لم يقطع برأى حاسم فى كثير من القضايا .. *وهذه الدراسة موجودة فى مكتبة المتحف البريطانى بلندن .*

أما الدراسة الاخرى ، فهى التى كتبها « فون كريمر » بالالمانية عن شعر لبيد بعنوان (حول أشعار

لبيد) ، وطبعت في مدينة وين سنة ١٨٨١ ، وهي عبارة عن مقالة نشرها في مجلة المستشرقين الالمان ، ثم اخرجها مستقلة ، وتقع في احدى وخمسين صفحة ، وقد اعتمد في دراسته على القصائد العشرين من رواية الطوس التي طبعها الخالدي ، وقد تناول فيها الحديث عن معلقة لبيد وما فيها من تشبيهات واوصاف ، واستدل من الشعر على معارف العرب وعن الامم البائدة والمواضع الكثيرة في الجزيرة العربية •• وقد كانت عنايته بالناحية الجغرافية من الجزيرة العربية كبيرة ، كما استدل على معرفةالجاهليين بالدين ، واستشهد بشعر لبيد ، وقارن ذلك بما عند الشعراء الجاهليين وما عند العبرانيين والنصارىوالاحناف، ثم سجل ملاحظاته عن القصائد العشرين التي نشرها الخالدي وما فيها من تصحيف وروايات ، ولم يتطرق لحياة لبيد واخباره ، وتتسم الرسالة بكثرة الاستطرادلموضوعات خارجة عن شعر لبيد •

ولبيد من بني جعفر بن كلاب من بني عامر بن صعصعة ، وكلتا القبيلتين الجعفرية والعامرية ذات شرف وسيادة ، ومكانة رفيعة في المجتمع الجاهلي ، ولذلك نشأ لبيد في كنف اسرة من الزعماء يشعر بكرامة اسرته وحسبها وعراقة نسبها ويفخر بذلك ويزهو •

فلا تسالينا واسالي عن بلائنا
اياداً وكلبا من معد ووائلا

وقيسا ومن لفت تميم ومزحجا
وكندة اذ وافت عليك المنازلا

لاحسابنا فيهم بلاء ونعمة
ولم يك ساعينا من المجد غافلا

وعلى الرغم من المكانة الرفيعة التي تتمتع بها اسرة لبيد فان المعلومات عنها قليلة بل نادرة ، مع انها لها صلة باحداث كبرى في حياة الجاهلية وحياة الاسلام •

وللبيد اخ يدعى « اربد » كان يملأ عليه حياته ، وينزل من نفسه منزلة كبرى •• ويروى انه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الغدر به فصعقته الصاعقة •

وله اخ ثان شقيق هو « حزام » ، الا انه لم يشتهر ولم يذكره في شعره •

واكبر رعاية لقيها لبيد كانت من عمه ابي براء الذي كان افضل اعمامه واقربهم الى نفسه :

لعبت على اكتافهم وحجورهم
وليدا وسموني لبيدا وعاصما

ولبيد رغم انه معدود من فرسان قومه ومعروف بالشجاعة والاقدام ، فانه لم يذكر نفسه في واقعة من الوقائع وهذا امر يلفت النظر ، ويرجح الدارس انه كان يشارك في ايام قومه ، وهو ذو جراة واقدام ، ولكنه لم يكن مبرزا مثل فرسان قومه •• كما انه اقرب ما يكون الى الدعة والهدوء وايثار السلم •

اني امرؤ منعت ارومة عامر
ضيمي وقد جنفت علي خصوم

جهدوا العداوة كلها فاصدها
عني مناكب عزها معلوم

وشخصية لبيد القوية الفعالة في قومه تظهر اول ما تظهر في حادثة انقسام بني عامر ، وخلافهم الذي ادى الى نفي بني جعفر لقوم لبيد الى اليمن ، فقد حاول بث الوئام والصفاء جهده ، ولكن الحرب قامت وهزمت جعفر• وقد مكث الجعفريون في اليمن مجاورين بني الحارث بن كعب عاما كاملا •• فعرض بنو الحارث على بني جعفر ان يزوجوهم عشرين من نسائهم ويتزوجوا عشرين من بني عامر •• وقد احس عامر بن مالك سيد القوم بما يريد بنو الحارث من اذلالهم والاستعانة بهم ، وكان لهم موقف معروف هو الذي دعاهم الى العودة الى بلادهم ومصالحة بني ابي بكر •

***

الوصف عند لبيد

وتتضح في شعر لبيد جملة فنون ، منها ما برز فيه كالوصف والرثاء والفخر ، ومنها ما لم يبلغ فيه مبلغ غيره من الشعراء الجاهليين كالغزل والهجاء والمدح • على ان ابرز الفنون التي جلى فيها هي الوصف ، وقد رصد الجزء الاكبر من شعره لهذا الفن ، فوصف الطبيعة ممثلة في حيوانها ، وللحيوان في نفس لبيد شان كبير فقد تحدث عن صفاته الجسمية والنفسية وعاداته وطبائعه ، وصور نوازعه واحاسيسه ، وذكر في شعره حيوانات كثيرة مما الف في البادية واهم هذه الحيوانات التي وصفها :

١ ـ الناقة ، وقد تحدث عنها في خمس عشرة قصيدة ، فوصفها مبينا قوتها وضخامة جسمها وشدته ، ثم وصف هزالها ونحولها بعد ان قطعت الفيافي وجابت الفلوات ، وعين اصلها ولونها وصفاتها ، وشبهها بالبقرة والثور والحمار والاتان والظليم ، كما شبهها بالبناء الشامخ والسفينة وبالسيف والدلو والسحابة •

بطليح اسفار تركن بقية
منها فاحنق صلبها وسنامها

واذا تغالى لحمها وتحسرت
وتقطعت بعد الكلال خدامها

فلها هباب في الزمام كانها
صهباء خف مع الجنوب جهامها

ويضيف لبيد للصفات الجسمية اوصافا اخرى ، فيبين نسبها وسنها وطبيعة طعامها وعملها في غير اوقات الرحلة والسفر فيقول •

بكرت به جرشية مقطورة
تروى المحاجر بازل علكوم

وهو يشبه ضمور ناقته مع شدة احتمالها بغمد السيف فهو مع رقته شديد الاحتمال ايضا ويشبه ضخامتها بالسفينة العظيمة ، كما اظهر عواطفها من الخوف والفزع والحب والكره والجراة وشدة الاحتمال .

٢ - البقرة والثور .. واكثر ما يرد ذكر البقرة الوحشية او الثور الوحشي في سياق قصة من القصص ، ويستطرد اليها لبيد حين يتحدث عن ناقته ، فيشبهها بهذه البقرة أو ذاك الثور . وقد ذكر البقرة في سبع من قصائده ، وفي كل من هذه القصائد السبع يروي قصة حزينة ، فيها قلق وخوف ومطر وظلام ثم معركة ودماء وتكاد تكون هذه القصص متشابهة .. ففي معلقته يروى محنة البقرة التي راحت ترعى مع صواحبها فغفلت عن وليدها .. وهي تتبع الفحل الذي يتقدم القطيع فافترست السباع صغيرها على غرة منها .. وتقضي البقرة ليلتها المروعة وفي الصباح تعاود البحث عن ولدها . وظلت كذلك سبع ليال ، حتى يئست وجف ضرعها واستبد بها الخوف والجزع .. ويلاحظ ان لبيدا في وصفه للبقرة يعني بحالتها النفسية وعواطفها وحركاتها اكثر مما يعني بوصف جسمها واعضائها . ولكن لبيدا لم ينفرد بين شعراء الجاهلية بهذا الوصف للبقرة بل شاركه فيه « الاعشى » .

اما الثور الوحشي فقد اظهر فيه لبيد معاني القوة والنشاط والسرعة وشدة القتال ، وقد شاء ان يبرز فيه هذه الصفات ليستعيرها بعدئذ لناقته التي تشبه الثور في هذه الخصال . وقد جاء وصف الثور في ثلاث قصائد ، يصف فيها حاله اكثر مما يصف جسمه .

٣ - الحمار والأتان .. ومثلما ساق لبيد قصصا شائقا عن الثور والبقرة ، وصور احاسيسهما وعواطفهما وما مر عليهما من محن ، ساق عن الحمار واتانه قصصا اخرى عددها ثمان تتشابه كلها في اطارها العام ، في التعبير الفني ، وفي التفاصيل وفي الجو النفسي الذي يعني به كل العناية . ويتخذ لبيد من تشبيه ناقته بهذه الحيوانات وسيلة للحديث عنها ، والا استطرد في متابعة اوصافها . والقصة التقليدية للحمار انه يناضل الحمر الاخرى لينفرد بالاتان ، فيدفعها امامه ويخلو بها بعيدا ، فيقضيان اشهر الشتاء راتعين يجتزئان بالرطب عن الماء ، حتى اذا اقبلت شهور الصيف انطلق بها يريد الماء ، وهما في عدوهما يثيران غلالة رقيقة يتجاذبانها .. حتى اذا بلغا الماء شربا منه وخاضا فيه .

٤ - الفرس .. ولم تحظ الفرس من لبيد بالعناية التي حظيت بها بقية الوحوش ، فليس لفرسه قصة مثل القصص الذي صاغه حول البقرة والثور والحمار .. فكان في وصفه لها عجلا غير مطيل ، صرف همه بوصف جسمها ونشاطها وفرط سرعتها .

وكان لا بد ان يقترن وصف الفرس بذكر فروسية لبيد ، وحسن بلائه في القتال . ومن اوصاف حصانه انه ضخم متين كجذع الهاجري ، طويل العنق شديد العظام ، ذو نشاط ومرح ، ينجو به من المخاوف ، وهو كريم من عتاق الخيل وقد لصق عذاره على خده الاسيل ، موثق الخلق ، مرتفع الكتفين تعود الصهيل عند مشارف الاحياء حين يعود من غزوه ، اذا ما حمي وتصبب العرق من جسمه انساب على متنه الاملس كما ينساب الماء على الصخرة الناعمة الملساء ..

ولقد اغدو وما يعدمني
صاحب غير طويل المحتبل

ساهم الوجه شديد اسره
مقبط الحارك محبوك الكفل

باجش الصوت يعبوب اذا
طرق الحي من الغزو صهل

وكما استعار لبيد لناقته صفات البقر والحمار والثور ، كذلك استعار لها ايضا صفات الظليم والنعامة.

وقد تبدو اوصاف لبيد في الحيوان وفي الطبيعة منفصلة ، وهذا غير صحيح فهي متصلة مترابطة متداخلة . فقد رسم لبيد للطبيعة لوحات كثيرة يجد المتامل فيها المطر والسحاب والسيول والنبات والرياض والنخيل ، وظلام الليل ونجوم السماء وحر الهجير ويلمح السراب والبرق ، ويعرف الطرق وعيون الماء .. ومن لوحاته الفنية :

اصاح ترى بريقا هب وهنا
كمصباح الشعيلة في الذبال

ارقت له وانجد بعد هدوء
واصحابي على شعب الرحال

يضيء ربابه في المزن حبشا
قياما بالحراب وبالالال

كأن مصفحات في ذراه
وانواحا عليهن المآلي

فاقرع في الرباب يقود بلقا
مجوفة تذب عن السخال

واصبح راسيا برضام دهر
وسال به الخمائل في الرمال

فلبيد لا يصور البرق وحده وانما يوفر لصورته كل اسباب الكمال فهو يحدد الزمن ، بعد هدوء الليل ، ونوم اصحابه على شعب رحالهم ، فهم على هذا في قافلة راحلة .. وهو يرسم صورة دقيقة للبرق يسطع ضوؤه على صفحة السحاب الاسود الكثيف ، كان المرء يرى احباشا محاربين شديدي السواد .

الفخر ..

عرف لبيد في حياته الجاهلية انه صاحب فخر ، فخر بنفسه وفخر بقومه .. وفي شعره يظهر هذان الضربان من الفخر .. فقد كان سيدا شريفا يشعر بهذه المكانة ويعرف لنفسه هذا القدر ، وشعوره هذا جعله شديد التغني بمفاخر ومآثر ، منها ما ورثه عن آبائه ، ومنها ما كان من صنع يديه .

ويبدو ان لبيدا قد جعل قصائده الطوال ، وان حفلت بشتى الموضوعات ، ملاحم للمفاخر .. وهو من هذه القصائد الطوال يتناول موضوعا ما ، وسرعان ماينتقل الى الفخر بمناسبة يستطرد بها ، والاستطراد اداة طيعة في شعر لبيد .

فبعد ان يذكر ناقته ويصف سيرها والطريق الذي قطعته في الهواجر حتى ينتهي الى وصف مجلس من مجالس الملوك وقف فيه للجدال والخصام ، لعله احد مجالس النعمان ، ويذكر خصومه بأنهم سادة اشراف بيض الوجوه منعمين مترفين ، جادلهم في ذلك المجلس وفاخرهم حتى فخر عليهم ، ثم راح يبين اسلوبه في الجدال ..

وخصم قيام بالعراء كأنهم
قروم غيارى كل ازهر مصعب

علا المسك والديباج فوق نحورهم
فراش المسيح كالجمان المثقب

نشين صحاح البيد كل عشية
بعوج السراء عند باب محجب

واصدرتهم شتى كان قسيهم
قرون صوار ساقط متقلب

فان يسهلوا فالسهل حظي وطرقتي
وان يحزنوا اركب بهم كل مركب

واول ما يلاحظ على هذه القصيدة ان لبيدا فخر فيها بصفات متعددة ، فلم يقتصر على خصلة من الخصال . ويلاحظ ايضا ان فخره لم يكن مندرجا في سياق واحد او مجتمعا من ابيات متصلة ، فقد حاول ان ينوع في معالجة موضوعاته ، فيبعد قليلا عن الفخر مشغولا بالوصف او الحكمة او الرثاء ، ثم يعود الى الفخر . ومن اسباب براعة لبيد وتمكنه من فنه ومعرفته بأسرار صنعته انه يحتال لموضوعه بمقدمات ، فلا يقحمه اقحاما ، بل يمهد له ببراعة ، فحين يتحدث عن الكرم يصطنع له وسيلة ، كلام زوجة وعتابها ، او ذكر الدهر الذي لا يبقى ولا يذر .. ويلاحظ ان كرم لبيد مقرون بالبرد وريح الشتاء ، وذلك ادعى للفخر لأن الناس في قحط وجدب ، يدفعهم الى شدة الحرص على اموالهم ..

وهو حين يفخر بخوضه غمرات الحروب او اجابته المستنجد المفزوع ، نراه يعنى ببيان قوته وشدة بطشه .

ودعوة مرهوب اجبت وطعنة
رفعت بها أصوات نوح مسلب

وقد وفق في التعبير بالكناية عن موت خصمه بهذه النائحات المتسليات اللواتي يندبن ويصرخن . وهو لايطيل في وصف المعارك ولا يفصل في ذكر القتال .. بل يجمل ذلك في ابيات لها دلالة وفيها غناء ..

ومن فخره بقومه قوله :

بنو عامر من خير حيي علمتهم
ولو نطق الاعداء زورا وباطلا

لهم مجلس لا يحصرون عن الندى
ولا يزدهيهم جهل من كان جاهلا

وبيض على النيران من كل شتوة
سراة العشاء يزجرون المسابلا

ومع ان فخر بعض الجاهلين يميل الى المبالغة والتهويل ، فان لبيدا قد شاء لشعره ان يبرأ من هذه النزعات ، فهو حين يفخر انما يعبر عن خصال معروفة في قبيلته ، وفي نفسه ، وتدعمها الحقيقة التاريخية ، كما ان صياغته لم تبلغ حد المبالغة . ويرجع ذلك الى انه لم يكن غرا طائشا ، وآية ذلك انه ينصف خصومه حتى في ميادين الفخر ، فحين فخر في معلقته بمجالس النعمان كان يقول :

عندي ولم يفخر على كرامها

الرثاء ..

اذا عد شعراء الرثاء في الجاهلية كان لبيد بينهم ، ان لم يكن في طليعتهم . واذا كانت الخنساء اشهر الشواعر ، فان لبيدا اشهر شعراء الرثاء في الجاهلية ايضا وقد عرف له الدكتور طه حسين فضله ففضله على الخنساء ، وقد بكى لبيد اخاه « اربد » بكاء مرا حزينا وذاع اسم « اربد » ببكاء لبيد .. وقد شغل الرثاء جزءا كبيرا من ديوان لبيد وكل مراثيه في اهله وعشيرته

أنكرت باطلها وبؤت بحقها

خلا واحدة في رثاء النعمان بن المنذر ، فقد رثى اباه واخاه واعمامه وابناء أعمامه ورجالا من قبيلته .. على ان أكثر قصائد الرثاء واجودها واصدقها عاطفة هي قصائده في رثاء اخيه لأمه « اربد بن قيس » وكان اكبر منه ، كما كان بطلا شديدا وفارسا من فرسان قومه ، وكريما من اجودهم . وقد فقد لبيد اخاه وهو صبي صغير فصار في رعاية أخيه وعمه ابي براء .. ولبيد يؤكد موت « اربد » بالصاعقة في شعره وذلك حيث يقول :

اخش على اربد الحتوف ولا
ارهب نور السماك والاسد

فجعلني الرعد والصواعق وال
فارس يوم الكريهة والنجد

وأشار الى مصرعه ايضا في قوله :

فان يك نوء من سحاب اصابه
فقد كان يعلو في اللقاء ويظفر

وقد رثاه في احدى عشرة مرثية بين قصيدة طويلة ومقطوعة قصيرة وارجوزة واحدة ، بكاه بكاء حارا فيه لوعة وتفجع وحزن :

لعمر أبيك الخير يا ابنة اربد
لقد شفني حزن أصاب فاوجعا

فراق أخ كان الحبيب ففاتني
وولى به ريب المنون فاسرعا

فعيني اذ اودى الفراق باربد
فلا تجمدا ان تستهلا فتدمعا

ولبيد في رثائه كثير النظر الى افاعيل الزمان وغدر الايام ، كثير التفكر في مصير الماضين من ملوك وعظماء يجد في ذكرهم العبرة والعزاء على مصيبته ، وهو يتناول قضية الموت والفناء ومشكلة الانسان وضعفه امام قدره المحتوم وبهذا يضفى لبيد الحزن على عوالم كثيرة ..

***

الغزل وذكر الديار ..

لم يفرغ لبيد للمرأة فيحبها ويغازلها ويبثها اشواقه .. لأن لبيدا كان من الشعراء الذين اخذوا انفسهم بالجد وعرفوا بالمهابة والوقار ، ولذلك فقد قل في شعره الحديث عن النساء .. كما انه لم يكن من فرسان الهجاء لانه ميال الى المسالمة .

ويكاد يجمع الرواة على ان لبيدا هجر الشعر منذ هداه الله الى الاسلام ولم يقل في الاسلام غير بيت واحد .. غير ان البيت الذى ذكرته المصادر للبيد ، لم تتأكد نسبته اليه .

هذا وقد قسم الباحث بحثه الى ثلاثة اقسام رئيسية ، اصغرها عن حياة العصر الذى عاش فيه لبيد ، واوسطها عن حياة الشاعر وقبيلته ، واكبرها شعره وما فيه من فنون وما له من خصائص .. وقد درس الباحث الطبعات المختلفة لديوان لبيد ، وبين ميزة كل منها ، ووقف وقفة طويلة عند الطبعة الاخيرة التى تعد كاملة وهي طبعة الكويت .

ولعل من اهم نتائج هذه الدراسة ان الباحث استطاع ان يثبت ان الدعوة القائلة بان لبيدا هجر الشعر بعد اسلامه دعوة باطلة ، فقد اثبت انه قال شعرا كثيرا مرتبطا باحداث اسلامية في زمن اسلامه .. ومن شعره الاسلامي قوله :

من يبسط الله عليه اصبعا
بالخير والشر باى اولعا

يملأ له منه ذنوبا مترعا
وقد اباد ارما وتبعا

وكان لبيد يحاول اقتباس آيات القرآن في شعره ودعا الناس الى اتباع ذلك .

***

وحاول الباحث تخريج ما لم يخرج من شعره خاصة، واثبت ان جزءا من شعر لبيد فقط هو الذى جاء برواية موثقة هي رواية الطوس ، اما سائره فجاء عن نسخ خطية مجهولة الاصل فضلا عن انها حديثة النسخ .

وقد عمل الدكتور احسان عباس تخريجا لشعر لبيد بذل فيه جهدا كبيرا افاد منه الباحث فائدة كبيرة ، وبعد الفحص وجد ان التخريج غير دقيق ، فاخذ جميع شعر لبيد من جديد والرجوع الى المصادر بصورة واسعة .. واستطاع الحصول على ثروة كبيرة من شعر لبيد ، كما اضاف الى التخريج مصادر جديدة حفظت شعر لبيدوكلها قديمة .

***

بدأ المناقشة الدكتور احمد الحوفي المشرف على الرسالة ، فاشاد بالجهد الكبير الذى بذله الباحث ، وهو معيد في كلية الشريعة جامعة بغداد وله مباحث ومقالات علمية منشورة كثيرة .

ثم تحدث الاستاذ محمد خلف الله احمد ، فوجه للباحث عدة ملاحظات اهمها ان الباب الاول الخاص بعصر لبيد كان في حاجة الى الضغط الشديد ، بل لعله كان من الافضل الاستغناء عنه ، ثم اشار الى ان الباحث بدافع حماسته للعرب حاول ان ينفي عنهم تهمة الشرك ، لأن معنى هذه الكلمة في رايه هي عبادة الاصنام ، في حين ان العرب كانوا يتخذون الاصنام وسيلتهم الى الله .

واخيرا تحدث الاستاذ مصطفى السقا فايد ملاحظات الاستاذ محمد خلف الله احمد واضاف انه يود لواستغنى الباحث عن الباب الاول ، ووضع بدلا منه ديوان الشاعر كاملا بما خرجه من شعره .. ليكون لدراسته اثر اعمق .

***

وقد نال الباحث على رسالته درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى .



رسائل تناقش خلال شهري أبريل ومايو

كلية الآداب جامعة القاهرة

قسم اللغة العربية :

● **الفرق في الشعر الأموى**
رسالة دكتوراه مقدمة من النعمان القاضي ، باشراف الدكتور شوقى ضيف .

● **القشيرى .. أدبه وتصوفه**
رسالة ماجستير مقدمة من ابراهيم ابراهيم البسيونى ، باشراف الدكتور شوقى ضيف .

قسم الفلسفة :

● **المنهج الجدلى عند هيجل**
رسالة ماجستير مقدمة من امام عبد الفتاح امام ، باشراف الدكتور زكى نجيب محمود .

● **فكرة الضرورة المنطقية**
رسالة ماجستير مقدمة من محمد مهران رشوان ، باشراف الدكتور توفيق الطويل .

● **الوعى الترانسندنتالى فى الحكم الاستاطيقى عند كانت**
مقدمة من فتحى حسين على فوده ، باشراف الدكتور فؤاد الأهوانى .

● **ديناميات العلاقة بين التسلطية وقوة الأنا**
مقدمة من عبد الستار ابراهيم محمد ، باشراف الدكتور عثمان نجاتى .

قسم التاريخ :

● **دمشق من ١٠٧١ ــ ١١٥٤**
مقدمة من نبيل محمد عبد العزيز ، باشراف الدكتور سعيد عاشور

قسم الدراسات القديمة :

● **أسطورة الكترا عند شعراء المأساة اليونانية**
رسالة ماجستير مقدمة من محمد حسن وهبة ، باشراف الدكتور صقر خفاجة .

كلية دار العلوم :

● **الاعمال المصرفية والاسلام**
رسالة ماجستير مقدمة من مصطفى عبد الله الهمشرى ، باشراف الدكتور مصطفى زيد والشيخ عبد العظيم معانى .

● **الامام الأوزاعى .. منهجه كما يبدو في فقهه**
مقدمة من عبد الرزاق الحاج قاسم الصفار من العراق ، باشراف الدكتور مصطفى زيد .

● **الزرائع في الشريعة الاسلامية**
رسالة ماجستير مقدمة من هشام برهان ، باشراف الدكتور مصطفى زيد.

كلية الحقوق جامعة القاهرة :

● **المسئولية التأديبية للموظف العام**
رسالة ماجستير مقدمة من محمد جودت احمد الملط ، باشراف الدكتور محمود حافظ .

كلية التجارة جامعة القاهرة :

● **المشاكل العمالية بالمطابع الأميرية وأثرها على الكفاية الانتاجية**
رسالة ماجستير باشراف الدكتور على عبد المجيد ، والدكتور ملطف عبيد.

رسالة العراق

بقلم : مندوب المجلة

توثيق العلاقات الفكرية والثقافية بين مختلف الاقطار العربية من اهم الغايات التى تستهدفها « المجلة » فى سعيها الدائب نحو التطور والاستجابة لرغبات قارئيها . ولكى تتخذ هذه الغاية صورة عملية واضحة ، فقد اتصلت « المجلة » بعدد من كتاب الاقطار العربية ليوافوها باخبارهم وتعليقاتهم حول ما يدور عندهم من نشاط ثقافى ، وها هى الرسالة الاولى من العراق الشقيق ، نرجو ان تتلوها رسائل اخرى من سوريا والجزائر ولبنان وبقية الاقطار العربية .

يملأ نفس الاديب العراقى خلال هذه الايام شعور عنيف بركود الجو الادبى وجمود الادباء ويشكو اديب لأديب بضرورة الحركة والانتعاش .. وكان من نتيجة هذا التنادى ان قررت جمعية الكتاب والمؤلفين العراقيين تنشيط الحركة الثقافية وانعاشها باقامة الندوات والمحاضرات الاسبوعية واصدار مجلة ادبية تجمع شتات الاقلام العراقية وتحد من هجرتها الى مجلات عربية اخرى فى لبنان او الجمهورية العربية المتحدة .

ومن المحاضرات الثقافية التى القيت فى مقر الجمعية خلال شهر شباط (فبراير) ١٩٦٧ محاضرة عن البناء الفنى فى ادب نجيب محفوظ للسيد عبد الجبار داود البصرى ، ومحاضرة عن الشعر فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين للدكتور يحيى الجبورى ، ومحاضرات عن مكتبة الاوقاف والمخطوطات النفيسة الموجودة فيها للسيد عبد الله الجبورى ، ومحاضرة عن التغلغل الاسرائيلى فى افريقيا وموقف العرب منه للدكتور لؤى بحرى .

تحدث البصرى عن فن محفوظ فى المرحلة الاولى من اقاصيص همس الجنون الى ثلاثيته الروائية فبدأ ببيان اسلوب الكتابة وانواع القصص وطبيعة الحوار والحبكة ومقدمة الاقصوصة وختامها فى « همس الجنون » ثم انتقل الى عرض مظاهر الفن ومداميك البناء فى روايات رادوبيس وطيبة وعبث الاقدار واعتبر زقاق المدق والقاهرة الجديدة وخان الخليلى مرحلة متميزة ثالثة والسراب وبداية ونهاية مرحلة رابعة .. وكان من رأى البصرى ان الثلاثية تمثل قمة الفن عند محفوظ وفى نسيجها وبنائها تتكامل كل عناصر الفن التى ابدعها فى الروايات السابقة .. ومحاضرة البصرى فصل من فصول كتاب اعده منذ اكثر من خمس سنوات ولم ينشر حتى الآن .

وبدأ الدكتور الجبورى محاضرته ببيان ندرة المصادر التى تتحدث عن الشعر فى عهد الرسول واشار الى المحاولات المتعمدة لطمس معالمه ثم تطرق الى النواحى الفنية فى هذا الشعر فذكر ان فيه ضعفا ولينا بالنسبة للشعر الجاهلى وحاول ان يجد تبريرا لهذا الضعف واللين فى نفسية الشاعر المسلم وأثر العقيدة التى اعتنقها

وانتقل بعد ذلك الى تقسيم الشعراء الى شعراء انصار فى المدينة : كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وفى مكة عبد الله بن جحش وابو احمد بن جحش والحارث السهمى وشعراء معارضة كعبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب وامية بن ابى الصلت وشعراء يهود وشعراء بادية وختم محاضرته باستعراض الاوضاع السياسية وعلاقتها بالشعر .

وتحدث السيد عبد الله الجبورى عن تاريخ مكتبة الاوقاف وكيف جمعت كتبها من خزائن عدد من الجوامع والمساجد العراقية والكتب التى اوقفها الخيرون من علماء البلد وذكر آلاف الكتب الموجودة فيها وعدد المخطوطات واستعرض بعض هذه المخطوطات النادرة وكانت الندرة فى رأيه اما بسبب كون النسخة فريدة او قديمة العهد او طريفة وذكر أن المكتبة مستعدة للترحيب بأى طالب من ناحية المطالعة او الاستنساخ او التصوير (بالميكروفلم) .

وتناول السيد الدكتور بحرى فى بداية محاضرته عن التغلغل الاسرائيلى فى افريقيا بيان تاريخ هذا التغلغل فذكر أنه لم تكن علاقات اسرائيل بنفس القوة قبل عام ١٩٥٦ ولكنها بعد مؤتمر باندونج أحست بضرورة ذلك فنشطت فى تاسيس السفارات والقنصليات وارسال البعوث والخبراء واستدعاء وفود افريقية لزيارة اسرائيل وفتح معاهدها الجامعية امام الطلبة الافريقيين وعلل الدكتور بحرى نجاح اسرائيل فى علاقاتها الخارجية مع الدول الافريقية النامية بكونها مثلت دور الوسيط الاقتصادى والسياسى بين هذه الدول والدول المستعمرة .. فلقد تولد عند الشعوب الافريقية فى اول عهدها بالحرية شعور بالكره والعداء للدول التى استعمرتها وامتصت خيراتها وكانت من جهة اخرى لا تستغنى عن اقامة علاقات مع هذه الدول ولكنها لا تريدها علاقات مباشرة فاستغلت اسرائيل هذه الناحية ونجحت فى مسعاها .. وقد بين الدكتور بحرى ان الجمهورية العربية المتحدة تبذل جهودا جبارة فى مواجهة الدعاية الصهيونية فى افريقية فاشار الى الجانب الاذاعى والجانب الصحفى والى الزيارات والوفود الافريقية للقاهرة والى الاعداد الهائلة من الطلبة الافريقيين الذين

يدرسون في الازهر .. وفي رأي الدكتور ان اعتزاز كثير من الدول الافريقية بالاسلام يعتبر أقوى الركائز التي يمكن الاستناد اليها في محاربة الصهيونية داخل افريقيا .

اما عن حركة التأليف والنشر في العراق خلال شهر شباط فقد صدرت الكتب التالية : غفران ، ديوان شعر للسيد محمد جميل شلش ، وبغداديات .. للسيد عزيز الحجية ، واحمد الصافي النجفي للسيد تركي كاظم جوده والواقعية في الادب للسيد عباس خضر وأنا رجل،مجموعة اقاصيص للسيد فخري عبد المجيد فؤاد والاشقياء مسرحية للسيد عبد الستار العزاوي .

يقع كتاب الصافي في ١٦٠ ص من القطع الكبير وقد كتب مقدمته الدكتور يوسف عز الدين الامين العام للمجمع العراقي فائتي في مقدمته على المؤلف وخص مشاعره النبيلة حول ضرورة تكريم الادباء وهم احياء وتمنى له غدا أدبيا زاهرا .. ومؤلف الكتاب عامل كادح من عمال المطابع بلغ به حرصه على الادب والشعر ان يبيع أثاثه من اجل ان يدفع ثمن طبع كتابه الذي تضمن فصولا عدة عن حياة الصافي النجفي ووطنيته ونزعته الانسانية وحبه للحرية والنكتة والفكاهة واشار الى نقاده المعجبين والمناوئين مع مختارات من شعره وقد اغفل المؤلف التحدث عن عناصر الفن الشعري عند الصافي ومصادره عن الصافي في حاجة الى تتمة واكمال .

والشاعر محمد جميل شلش من شعراء الشباب .. سبق ان اصدر مجموعة شعرية من الشعر الحر (الحب والحرية) طبعت في لبنان وقد كتب مقدمتها الدكتور احمد عبد الستار الجواري وديوانه الجديد (غفران) من منشورات وزارة الثقافة والارشاد يتضمن ١٤ قصيدة،بعضها ينحو منحى عموديا وهو الغالب وبعضها ينحو منحى حرا وقد كتب مقدمته السيد عبد الجبار داود البصري الذي قال فيه : ان الشاعر محمد جميل شلش بلبل يغني لأول الاغنية جزء من ذاته فهو يغرد سواء كان وراء القضبان او خارج الاسوار لم يسكته القيد ولم يشمله المجد .. وذكر السيد البصري أيضا .. ان شلش لم يستطع التغلب على ظاهرة الفواصل الحادة التي تقطع القصيدة لا في شعره العمودي ولا في شعره الحر كما أشار الى المرافيء التي حام عليها الشاعر دون ان يستقر أو يرسو على مرفأ فيها .

ويمثل كتاب (بغداديات) تأليف عزيز جاسم الحجية وهو الكتاب الرابع عشر في السلسلة الثقافية التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد / مديرية الفنون والثقافة الشعبية،جزءا من التيار الذي يغري الاقلام العراقية الجديدة ويشحذ هممها لأن تلج هذا الميدان واعني بذلك ميدان البحث الفولكلوري .. يتضمن كتاب بغداديات تسجيلا امينا للعقائد والعادات الشعبية السائدة في بغداد مع ذكر اكلات بغدادية والعاب صبيان بغداد واغنياتهم وتقاليد الزواج والولادة ومراسيم الوفاة .

ومسرحية الاشقياء ومجموعة اقاصيص (أنا رجل) من منشورات جمعية الفنون والاداب . قدم للمسرحية السيد فتح الله الخيالي وقدم للاقاصيص السيد حسام الدين الساموك .

وعلى اثر انتقال السيد عبد اللطيف الكمالي مدير الاذاعة والتليفزيون العام في العراق الى السلك الخارجي وتعيينه في الملحقية الثقافية في سفارة الجمهورية العراقية بدمشق صدر مرسوم جمهوري بتعيين العميد خالد الشيخلي مديرا عاما للاذاعة والتليفزيون وقد استهل المدير العام اعماله بان عقد يوم ١٨ شباط ١٩٦٧ مؤتمرا صحفيا تحدث فيه عن أهمية الاذاعة والتليفزيون في التوجيه التربوي وفي المجالات الادبية والفكرية والعلمية والفنية ومجالات الحياة الاخرى .. وذكر أن هذا الجهاز ظل مدة طويلة مغلقا على فئة واحدة من الادباء المفكرين ورجال الدين ولم ينفتح مخلصا على الطاقات المكنوزة في بلدنا .. مما أدى الى شيوع السلبية عند كثير من مفكري العراق .. وأضاف ان من خطة الاذاعة الجديدة ان تفتح في مختلف الالوية مراكز للمراسلين الاذاعيين يعدون فيها البرامج وبذلك تكون الاذاعة عراقية لابغدادية كما كان شانها في العهود الماضية .

وقد دعت مديرية الاذاعة والتليفزيون العامة عن طريق رسائل موجهة الى نحو أكثر من ٦٠٠ أديب ومفكر وفنان ان يساهموا في اعداد برامج اذاعية وتليفزيونية وان يبدو اقتراحاتهم في تطوير هذه المؤسسة .

كما كتبت مديرية الاذاعة أيضا الى رئاسة جامعة بغداد ورئاسة المجمع العلمي وعمادة معهد الفنون الجميلة وجميع وزارات الدولة ترجوها حث منتسبيها من أجل التكاتف والتآزر لخلق اجهزة اعلام ناجحة تحقق الرسالة والهدف الذي قامت من أجله .

وخلال الشهر المنصرم افتتح المؤتمر السادس لنقابة المعلمين في العراق وقد تحدث بهذه المناسبة السيد رئيس الجمهورية العراقية والسيد نقيب المعلمين في العراق والسيد احمد عبد الحميد عنارة امين عام اتحاد المعلمين العرب والسيد عوض عبد الهادي ممثل نقابة معلمي ومعلمات الثانوية في السودان ثم اعقبه السيد ادهم باشوري ممثل نقابة المعلمين في سوريا ثم السيد محمد الجوهري ممثل نقابة المهن التعليمية في ج.ع.م. والسيد سليم مجذوب ممثل نقابة المعلمين في لبنان والسيد داود عودة ممثل منظمة التحرير الفلسطينية .

وبتاريخ ٢٠ شباط صدر قانون يقضي بانشاء جامعة في مدينة البصرة تسمى (بجامعة البصرة) وينص القانون على تخويل مجلس الجامعة انشاء مؤسسات،تابعة لها في اماكن اخرى من الجمهورية العراقية .. ونص القانون كذلك على ان الجامعة حرم آمن وأشار الى انها تعنى بتهيئة،ثقافة جامعية منظمة حرة وتتعهد البحث العلمي وتعنى بالتراث العربي والاسلامي والتربية القومية والفضائل الخلقية .

وتتألف الجامعة من ست هيئات هي : الطب ، العلوم ، الهندسة ، الزراعة والبيطرة ، والانسانيات ، القانون ، الاقتصاد .

وينص القانون على ان اللغة العربية هي لغة التعليم في الجامعة .



يرحب هذا الباب بنشر كل ما يصله من الآراء والتعليقات والتعقيبات والاستفسارات حول ما تنشره «المجلة» من مقالات وأبحاث أو غيرها من الموضوعات الثقافية العامة ٠

حول قصة الحضارة المصرية

بقلم : حسين ذو الفقار صبري

اطلعت بمنتهى الاهتمام والتقدير على مقال الاستاذ الكبير الدكتور عبد المنعم ابو بكر عن « قصة الحضارة المصرية ونشاتها » (١) خاصة وقد فهمت من هيئة التحرير الموقرة لمجلة « المجلة » انه قد قصد به الى القاء اضواء جانبية على مقالى عن « الحضارة المصرية افريقية أم آسيوية » .

وانى لسعيد جدا بتلك الفرصة ، فليس ادعى الى الاقتراب من الصواب ، من ان يقابل الرأى بالرأى ، فانى لا أدعى لنفسي العصمة ، بل كلما اغترفت من علم او خضت فى بحار معرفة ، اتضح لى سحق ابعاد ما اجهل ، او خطاى فيما اعتنقت حين كان محصولى اقل واكثر ضحالة ، ويعزينى انها حال الاجيال البشرية جميعا ، فكم من آراء في العلم أو المعرفة كانت لها صدارة ، فاذا بها تتهاوى فى عصور لاحقة بفضل زيادات تطرا عل الحصيلة الفكرية للانسان او مهارات تضفى على أساليب الاستقراء والتفكير ، وجميعها تقرب بيننا وبين الصواب ، خطوة اثر اخرى ، والخطيئة الكبرى في حق البشرية ان يعتقد انسان او جيل من الناس ان قد ملك ناصية الحقيقة في آى من ميادين الفكر ، انما هى بطبيعتها سعى دائب نحو مزيد ثم مزيد من نور ومعرفة .

والقيمة الاصيلة للحصيلة الفكرية لاى جيل هى تلك القمم التى ترتفع كالاهرامات طبقة فوق اخرى، وانها لتستمد امكانيات التسامق بما توفر لنفسها من توسع على مستوى القاعدة حيث مجالات البحث والدراسة .

فما من علم او مجال فكر قادر عل الاستمرار الى التسامق اذا ما ضيق على نفسه في اطار من قاعدة شديدة التخصص رافضا كل معونة او التقاء مع المجالات الفكرية الاخرى .

فاذا كنت قد حاولت في مقالاتى ان ارسم صورة لتعاقب الحضارات على ارض القارة الافريقية ، فقد شعرت انى اكون مقصرا ان لم اسع الى محاولات جادة ــ هى غاية جهدى ــ في المواءمة بين ما قدمه الينا ابرز العلماء المتخصصين ، كل في مجاله .

لقد قدم الينا علماء الآثار حصيلة ضخمة من معرفة عن مصر القديمة ، ولكن ما اكثر الآراء المتضاربة، وانه لامر طبيعى امام ما ضاع منها وما قد درس ، وما يزال منها فى جوف الارض ، فقد اعتمد علماء الآثار كما يقول الدكتور عبد المنعم ابو بكر « على المقارنة من ناحية ، وعلى الحدس والتخمين والاجتهاد من ناحية اخرى » ..

وفي خضم تلك الآراء المتضاربة ، كانما هى ادغال

(١) انظر « المجلة » العدد السابق ص ٣٤ ٠

أستوائية موحشة ، تشابكت أشجارها واختلطت فيها الافرع حتى انها لتحجب نور السماء ، ألا يحق لنا اذا ما بدا له قبس يطرف من بعيد ان نحاول ان نجد فيه بعضا من هدى بالفتح ثم السكون) .

انى لا أدعى انه لألاء نجم ثابت يحدد لنا الاتجاه الذى لا يخيب ، ولكن هى عديد من اجرام ربما اعانتنا اذا ما قابلنا بين ومضاتها ، الى الاقتراب من جادة طريق .

أولها التطور المذهل الذى ارتفع بالاساطير الى دراسات لها أسس علمية ، لم يات هذا عن عيافة وانما هى طرق شتى شقها ، أو على الاقل اجتذب اليها ، اساطين علوم مختلفة الاصول – التحليل النفسي ابرزها ، والآثار احدها ، بل والاصول اللغوية منها – فاذا بتلك الطرق المتعددة الاصول تلتقى آخر الامر ، لا أقول على اتفاق مطلق ، ولكن على الاقل حول خطوط دوائر تداخلت فتقارب مراكزها حتى تكاد ان تتلاحم.

ومن قبل ، طفرة في العلوم الجغرافية أو على الاقل تلك الفروع التى تركزت حول دراسة التوزيعات البشرية خلال العصور الجيولوجية ، ثم حول التفاعلات المتبادلة بين البيئة والاحياء ، والتقاء ذلك جميعه مع ايفالات العلوم الاحيائية حتى كادت ان تحدد لنا – لا أدعى تفصيلا فهو الصواب عسير المنال – ولكن الخطوط العامة فيما يتعلق بمكان نشأة الانسان ، وممرات هجراته الكبرى في العصور التى شهدت تكوين الاجناس، اعتمادا على نظرية « المناطق والطبقات » ، لنى تمثل – اعود واقول ليس الصواب المطلق – ولكن قمة في الفكر الجغرافى تسامقت عن سابقاتها ، ثم هى بعد ذلك منطلق الى تسامق مقبل ، طالما هناك علماء يرفضون الانعزال التخصصي فيسعون دوما الى الاستعانة كلما امكن ، بما قد تقدمه لهم قمم المعرفة في علوم ربما بدت أول الامر بعيدة كل البعد عن مجالاتهم ، ولكنها ليست كذلك بأية حال ، فالعلوم جميعا انما هى آخر الامر نتاج احتكاكات الفكر البشرى بظواهر الكون ، وانها لتلتقى آخر الامر في سعيها جميعا الى اقرار مكانة الانسان انطلاقا من ماضيه الى مستقبله عبر جسور الحاضر الذى نعيش.

وان الانسان لمقصر اشد التقصير اذا ما حاول ان يعزل أيا من فنون المعرفة في سجون من تخصص مطلق فيقيم الحواجز بينها وبين غيرها من مجالات العلم ومختلف أوجه النشاط البشرى ، جليلة كانت أم تافهة فانما مردها جميعا الى العقل الذى تحمل ، منه تنبع والى الانسان مرجعها .

فلو امكننا مثلا ان نقع على نماذج من الملح والنوادر التى اضحكت المصرى القديم بينما يحمر لها وجه الفتاة العذراء اذا ما القيت على مسامعها ، لربما كانت عونا اذا ما وجدت الباحث الجدى على رسم حدود القيم الاخلاقية في ذلك المجتمع ، فكيف يحق لنا اذن ان نتجاهل الاساطير والتى هى التجسيد القصصي للقيم التى قامت عليها الحضارة المصرية ؟ .

وبعد تلك المقدمة الطويلة ، التى لم يكن منها بد وان كنت قد حاولت جهدى ان اركزها تركيزا ، فهى تفسير لمنهاج – والله لست ادرى كيف وجدته مفروضا على – ولكنه يدفعنى دوما اذا ما حاولت التعرض يخرج بالموضوع عن الهدف المرسوم ، وانما كان لموضوع ما الى محاولة الالمام قدر الامكان بابرز ماوصل اليه الباحثون وكيف فعلوا وعلام اعتمدوا ، ثم احاول بعد ذلك اذا ما اختلفت بينهم الآراء ان استعين على الفرز بينها بما وصل اليه البحث في علوم اخرى لها بالموضوع صلتها لا يمكن انكارها .

ولقد وجدت في الجزء الاول من كتاب الدكتور عبد العزيز صالح عن الحضارة المصرية وآثارها اكبر العون اذ يبرز من خلال اسلوبه السلس ضخامة الجهد الموسوعى الذى بذله في استيعاب مختلف الآراء التى توصل اليها الباحثون حول مختلف نواحى الحضارة المصرية القديمة ثم يعرضها علينا في ايجاز غير مخل ويقابل بينها باحثا مدققا مؤيدا او مفندا وليس من شك في اننا نرقب جميعا الاجزاء التالية لهذا السفر العظيم ، الذى لا غنى عنه لكل مصرى تواق الى استكشاف ماضينا المجيد .

لم احاول ان اتناول في مقالى الحضارة المصرية في مجموعها فهو امر يفوق طاقتى وامكانياتى ، ثم انه يخرج بالموضوع عن الهدف المرسوم له ، وانما كان التساؤل حول اصول تلك الحضارة ، التى كثرت الادعاءات عن اسيويتها ، وكان في تقديرى ان ابرز ما تميزت به الحضارة المصرية هو اتجاهها الصارم الى الوحدة السياسية منذ لحظاتها الاولى ، اقول الحضارة المصرية وليس الثقافات الحجرية والتى منها « مرمدة » فهذه لها حكم آخر ، وان كانت بمثابة روافد حملت عبر الازمنة بعضا من خصائص اصبح لها فيما بعد طابعها المميز ، وقد المحت اليها في مقال سابق : « النيل اذ جرى » في العدد رقم ١١٢ من المجلة .

ولا شك انى تأثرت في هذا الشأن ايما تأثر بالبحث القيم الخلاق – تلك الدراسة المتفتحة الى آخر ما وصلت اليه العلوم الجغرافية – التى قدمها لنا على صفحات المجلة الدكتور جمال حمدان عن «شخصية مصر – دراسة في عبقرية المكان » .

كما لا يفوتنى ان أنوه بفضل « هرمان كيس » في كتابه عن مصر القديمة ، فهى دراسة من حيث « الطوبوغرافية الحضارية » والتى هى العنوان التوضيحى لكتابه ذاك .

وكنت قد وقفت طويلا عند تلك الفقرة التى وردت في كتاب هردوت ، وهو الذى كذب مرارا فيظهر صدقه فيما بعد ، من ان « المنطقة الطيبية » قد عرفت الحضارة – الحضارة وليس الثقافات الحجرية – حين

كانت المستنقعات طاغية على بقية اقاليم مصر ، والمنطقة الطيبية تعبير اغريقي احتوى على الارجح تلك الامتدادات من اقليم « ثنى » شمالا الى اقليم نخن جنوبا ، انها نفس المنطقة التى تتوسطها ثنية قنا والتى اشار اليها الدكتور سليمان حزين في دراسته عن « مقومات الحضارة المصرية » (تاريخ الحضارة المصرية ، باشراف وزارة الثقافة) تحت عنوان فرعى عن « الاوطان الصغيرة في وادى النيل الادنى » ، فابرز طبيعتها الفريدة من حيث اتساع الوادى وانعراج النهر فيكثر الارسـاب وتتهيا ولا شك تبعا لذلك القدرة على سهولة تصريف الزائد من مياه الفيضان ، ثم انها نفس المنطقة التى اعتبرها الدكتور جمال حمدان خاصرة الجنوب فهى ملتقى لعديد من طرق المواصلات شرقا الى البحر الاحمر وغربا الى الواحات .

انها منطقة قد بزت غيرها من حيث تهيئة جميع المميزات البيئية للانطلاق الحضارى المبكر ، ثم هى النواة لطفرة اقتصادية طاغية طبقا لنظرية « جوردون تشايلد » التى هى عماد كتابه « ماذا حدث في التاريخ» ينتج عنها تلقائيا طفرة سكانية نووية ، هى وحدها الكفيلة اذا ما اكتسحت ما حولها من اقاليم باستيعاب تجمعاتها البشرية ضئيلة العدد ، المتخلفة عنها نسبيا ، فتفرض عليها موجة طاغية من شعور بالوحدة، ويحضرنى في هذا المقام تلك الدراسة الاخرى القيمة التى قدمها لنا الدكتور جمال حمدان على صفحات « المجلة » ايضا عن « جغرافية الاستعمار » فابرز دور البيئة التجانسة حين يسرت للطفرة البشرية المنطلقة من دوقية موسكو فرض عناصر الوحدة على روسيا في عصور التكوين ، ثم تلك المقارنة التى عقدها بين طبيعة الاقاليمة في الروسيا والاقليمية في اوروبا ، فهذه الاخيرة وليدة التصارعات بين مراكز حضارية متعددة متقابلة .

ثم هناك تساؤل خبيث لاكنه الالسن التى تريد ايهامنا بانه لولا الاخصاب السومرى لما قامت الحضارة المصرية او لتاخر على الاقل ازدهارها قرونا طوالا ، فهى تشير الى السرعة الفائقة والفترة الزمنية القصيرة التى نضجت خلالها فجاة الحضارة المصرية في حين انها استلزمت قرابة الالف عام في سومر فتعزو الامر الى دفعات خلاقة طرأت على مصر من خارج ، وكأنما ليس من مجال لتفسير سواه .

وذاك موضوع كنت اختزن الكلام فيه لمقالى التالى، ولكن لا باس لو تناولت الآن بعضا من جوانبه ، فهو مرتبط اشد الارتباط بتاثيرات « ايكولوجية » الصعيد على الحضارة المصرية .

فقد استعرت فى حديثى عن الصعيد تعبير الدكتور جمال حمدان « تلك المسافة التى ليس لها مساحة » واشرت الى ان المراكز الحضارية فى « ثنية قنا » ووجهت بامتدادات للوادى شمالا وجنوبا ـ من حيث يأتى النيل والى حيث يذهب ـ امتدادات « مسافية »

متجانسة مع بيئتها لا تقف حائلا بينها وبين التوسع ، بل انها تحثها اليه حثا ، سعيا الى ما قد يحدد لها في النهاية وحدتها البيئة التى تفتقد ، فاذا ما وقعت آخر الامر على منطقة القاهرة الحالية ذلك الموقع الذى « وكأنه من صنع الاله » كما يقول الدكتور حمدان ايضا ، فهو الذى يحدد لها آخر الامر البؤرة المركزية لمصر جميعا ، حين يتلاحم صعيدها مع دلتاها .

والذى اريد ان اقول ان الحضارة في صعيد مصر لم تشعر قط فى ابانها بانها تمثل « كلا » ، بل ران عليها دوما احساس عميق نابع من اوضاعها البيئية بانها تفتقد شيئا ما ، يحول بينها وبين التمام فهى مدفوعة ابدا الى استكمال « نقص » يشوبها ، وان عليها ان تسعى وان تواصل السعى .

وليس مثل هذا دافعا الى تطور ثم الى مزيد من تطور ، فترتقى الحضارة المصرية بسرعة مذهلة الى مرتبة النضوج .

وابعد ما يكون عن ذهنى ان اغمط حق الدلتا ، بل ان ظروفها المحلية ربما جعلتها سباقة الى مستويات من ترف فكرى ، يتمثل في تكامل بلورة شخصيات آلهتها المحلية التى استوعبت فيما بعد في « البانثيون » المصرى ، وانما الذى اريد ان اقول انها كانت بحكم البيئة عبارة عن مراكز حضارية محصورة متعددة متقابلة ، متصارعة ، حرية لولا المد الطاغى من الصعيد بان تتطور آخر الامر الى النمط السومرى ، حيث المدينة تحيط بها المناقع من كل جانب ، فهى وحدة حضارية قائمة بذاتها ، تشعر بذاتيتها وتنعم منذ اللحظة الاولى بشعور من تمام واكتفاء ، وان كان تزايد السكان يدفع بها تدريجيا الى مزيد من توسعة في استزراع الاراضى ، فتتصادم حدود المدن في النهاية ، وتسعى كل منها الى فرض السيطرة على جاراتها .

تلك البيئة السومرية لم تعرف الوحدة الا فرضا واستعلاء ، حين تبلغ احدى المدن من القوة ما يهيىء لها السيطرة على شقيقاتها جميعا ، ولكنها وحدة مضطربة غير مستقرة لا ترقى قط الى ان تقارن بالوحدة السياسية التى عرفها وادى النيل منذ فجر التاريخ فتميزت بها الحضارة المصرية عبر القرون .

وان تاريخ الدلتا نفسه ليحمل ركائز مماثلة ، اما الصعيد فقد كان دوما المنطلق الى اعادة توحيد مصر خلال تاريخها الطويل .

فهو ـ ان صح التشبيه ـ مع الفارق الكبير روما مصر » في مواجهة « المدن الدول » Polis على النمط الهلينى التى فى الدلتا ، الصعيد دينه الوحدة السياسية ، غلاب في النهاية ، وان كانت قد بزته فكريا مدن الدلتا التياهة بذاتها ، ولكن الاوضاع البيئية فى مصر يسرت على الصعيد فرض الوحدة قبل انفصال كبير فى تفاوت المستويات .

لست من أنصار الحتم الجغرافي ، فالانسان هو عنصر المبادرة ، ولكن البيئة لها احكامها وخاصة حين تكون امكانيات الانسان متخلفة عن فرض سيطرتها على الطبيعة بالصورة المتزايدة التى نراها الآن ، تماما كما هو الحال بالنسبة لنهر النيل العظيم فان طبيعة الارض المصرية لم تخلق هذا النهر الى وجود ، وانما كان لها اكبر الاثر في تحديد المجرى والاتجاه لمياهه الفائرة الدافقة .

وقد دفعت الى التساؤل ، هل من دلائل على ما أقول في جوف الاساطير ؟ خاصة وان البعض قد حلا له ان يصور أوزير في صورة الزعيم الاسيوى الذى نقل الحضارة ففرضها على وادى النيل .

وقد فعلت ، فهل جانبني التوفيق فيما استخلصت من نتائج من خلال استقرائي للنواحي التى ركزت عليها من اسطورة اوزير ؟ قد يكون ، ولكن اقدامى على ما اقدمت عليه انما في حقيقته خطوة في سبيل انتهاج اسلوب في البحث ، هو جديد في المناخ الفكرى لمصر على الاقل .

فانى لا أتصور ان ننحى الاساطير جانبا فنقول انه « من المؤكد اننا لا نستطيع ان نستمر في تفسير القصص الدينى على اساس استخدامه في أثبات بعض الوقائع التاريخية » .

لم احاول أولا « أثبات » وقائع تاريخية وانما ارتكز جهدى حول محاولات استقراء ترسم اتجاها ولا تدعى انها قد اصابت « يقينا مطلقا » ، فانما هذا فوق طاقة البشر في كل زمان ومكان .

ولماذا ننحى الاساطير جانبا وقد ارتقى بها العلم الحديث الى مراتب تؤكد اهميتها كمستودعات للحقائق الحضارية ، تطورها المستمر نفسه مرآة لتطورات القيم الحضارية .

هل يحق لنا بعد هذا ان نقصر دراستنا على المخلفات المادية وحدها ــ وانها احيانا بضع من اوان فخارية او مكاحل ولا تزيد ــ ام انه يجب علينا ان نتجه ايضا الى المخلفات الروحية ــ ان صح هذا التعبير فانما الحضارات افكار ومشاعر وعقائد هى القادرة وحدها على دفع الانسان الى الصنعة المادية ثم على طبعها بطابعها الخاص المميز .

بل ان الكشف عن النصوص المكتوبة فيما يسمى بالصورة التاريخية والنجاح في فك طلاسمها ليس وحده كافيا طالما افتقدنا القدرة على النفاذ الى « المنطق » الذى تحكم في اساليب تفكير اسلافنا الاولين ، فكم من لوحة تحكى لنا فتوحات هذا الفرعون او ذاك فاذا بها منبثقة من رمزية مطلقة ، تعداد لصفات مفروض انها كامنة في شخص الملك ، وليست بالضرورة سرد لوقائع فعلية ، كما اذا قيل ان الملك فيصل هو « حامى حمى الحرمين » ، فذاك لقب يضفى تقليدا على شخص ليس هو قصرا حاميا لحماها أو زائدا عنه .

فالكتابة الهيروغليفية التى لا زلنا نسعى الى فك طلاسمها ، ليست هى اللغة المنطوقة ، بل ان اللغة المنطوقة نفسها ، حسب احدث ما وصلت اليه العلوم اللغوية تنقسم من حيث وظيفتها الى لغة معنية والى كلام فعلى ، هذا عدا ما قد توحي به الدراسات الصوتية والى غير ذلك من فروع ابرزها لنا مؤخرا الدكتور محمود السعران في مؤلفاته الرائدة .

وطالما هذا حالنا فادعى لنا الا نهمل دراسة الاساطير سعيا الى مزيد من أضواء تلقيها على تاريخنا القديم فتنير لنا الطريق الى خصائص مميزة هى التى صنعتنا ثم وجهتنا وربما ما زال بعضها يحركنا دون ان ندرى .

ومع ذلك فاذا قيل لنا ان المنهاج الحق هو تنحية القصص الدينى عن مجالات الاستقصاء ، فلماذا نلجا اليه حين يخيل الينا انه مؤيد لوجهة نظرنا فنقول ان من القرائن على تغليب سلطة الشمال على الجنوب « قصة اوزوريس الذى كان يحكم مصر شمالا وجنوبا في حين حكم ابنه حوريس منطقة غرب الدلتا وحكم اخوه ست مصر العليا .. » الخ

ومن قال ان اوزير كان يحكم مصر شمالا وجنوبا، انما هى رواية محدثة ضمن عديد من روايات ، والاصل كما يقول الدكتور عبد العزيز صالح وغيره من كبار الاساتذة المتخصصين ان اوزير لم يصور اطلاقا مليكا على البشر في حياته ، الا بعد ان طرأت على الاساطير تطورات اثر تطورات وقد اشرت الى هذا فى مقالى بما فيه الكفاية .

القضية ، فى نظرى ، هى : هل تكون الاساطير عاملا مساعدا ام لا تكون ؟ .

ثم هناك موضوع « النقاء السلالى » وانى لمتفق فى الراى مع الدكتور عبد المنعم ابو بكر ، فان مقالى عن « الحضارة المصرية » هو الرابع في سلسلة متصلة ، ثانيها بعنوان « الاجناس البشرية ونشاة الانسان » (العدد ١٠٨ من المجلة) فيه ارجعت كل تقدم بشرى فى العصور الحجرية الى التحام الثقافات ، اما تلك الجماعات التى عزلت عن غيرها ، فقد أصابها التدهور بل احيانا الانقراض .

وفي ثالث المقالات « النيل اذ جرى » (العدد ١١٢) اسهبت في وصف الفناء الذى تمتعت به مصر حين التقت على ارضها ثقافات شتى من جميع الاتجاهات . ثم كيف اجتذبت جميعا الى حواف حوض وادى النيل حين زحفت عصور الجفاف فصهرتها أرض الوادى الى تجانس مبدع استمد حيويته من احتكاك الصفات مختلفة الاصول .

اشياء كثيرة قد فصلتها في هذين المقالين ، فلا أرى مجالا لتكرارها وانما الذى لم اذكره اذ لم يكن هناك مجاله ، ولم اتطرق اليه فى مقالى الاخير خشـية مط وتطويل ، ان ارتباط شرق الدلتا باسم اوزير ربما كانت له رواسب تعود الى تلك العصـور السحيقة بالاضـافة الى الربط الذى حدث ، حـين اصيبت الحضارة « الجرزية » بضربة قاصمة في شخص احد ملوكها الكبار ، قتل على الارجح في معركة دارت هناك.

فقد هبطت الى الوادى من جميع الاتجاهات حين زحف الجفاف عديد من قبائل تبغى استقرارا ، ومنها تلك القبيلة التى يصعب الطعن في أصولها الآسيوية والتى أصبحت مدينة « عنجت » عاصمتها فيما بعد ، وقد ضاع كما حدث لغيرها اسم الهها الاصلى ـ بل يحسن بنا ألا نقول انه قد ضاع ، فتلك كانت عادة متاصلة في القبائل الرحل ، يتحاشون النطق باسم الاله عن رهبة واكبار ، ويلجأون عوضا عن ذلك الى نسـبته للمكان ، فهو « عنجتى » ولا يزيد ، ذاك الذى اضفيت صفاته من بعد على « اوزير » حين ارتقت مكانته ، الى الوهية عالم الاموات ، فحق لمتون الاهرام أن تخاطبه بقولها : « وبث فيك حور حياة اذ سميت عنجتى ».

فالقول بأن « اوزير » قد اتى من الشرق قصة لها اصل ، ولكن الذى اتى لم يكن أوزير صانع الحضارة وانما « عنجتى » الراعى الجلف هـربا من جفـاف زاحف ، فاذا ما استقر ومارس فنون الزراعة ، وارتقى بها كما ارتقت به ، تطور به الامر الى حضارة محلية بحت ، هى قصـارى ما هيئت له ظروفه البيئية ، الى انتأتى عليه الحضارة الجرزية بمميزاتها الفريدة والتى كانت منطلقا الى الحضارة المصرية .

فاذا ما بثت الحياة « المفهوم الاوزيرى » استجابة لمطالب حضـارية رأت أن تخلق لتلك القوة الطبيعية المؤلهة صورة بشرية ، فانها تضفى عليه ، دن أن تدرى وبطريقة تلقائية ، منبثقة من اللاشعور الجمعى ، صفات « عنجتى » ، مضافا اليها تلك الرواسب التاريخية ، الحرية بأن تضع لاوزير في صورته الجديدة ، تاريخا قادرا على اشعاع اطياف من اصول بشرية وانى لأشكر الدكتور عبد المنعم أبو بكر على التحذير الذى اطلقه فلا نتردى في الخلط بين الاصول المختلفة للاله الواحد فقد كان هناك فعلا على الاقل اربـع صـور متباينة الجذور للاله « حور » ، وما انطبق على حور ينطبق على غيره وخاصة تلك الألهة التى ارتفعت فيما بعد الى مكانة كبرى ، كما هو الحال بالنسبة لحتحور (حت حرو) فهى أمور كان لها فضل وأى فضل فى ثراء رمزية الاساطير المصرية .

وانما فى نظرى ترتكز اهمية ذلك الصراع الآخر بين حور وست ، فى انها ارست الاصول الحضارية التى حفظت « الوهية » فرعون ، من أن تصبح موضـوع تنازع ، فينهار حجر الاساس الذى قامت عليه الحضارة المصرية فى ذلك الوقت .

الموضوع ليس فى أن حور كان ملكا على الدلتا وست ملكا على الصعيد ، فالشمال والجنوب انما تحكمهما نسبية الموقع الجغرافى ، تماما كما هو الحال الآن ، اذا ما توجهنا بسؤال الى المصرى فى بنى سويف فيشير جنوبا ويقول « دا هناك فى قبلى » كانمـا ليست بنى سويف من محافظات الوجه القبلى .

المغزى الحضارى الحقيقى لقصة الصراع بين حـور وست ، هى فى ان حور كان يستمد احقيته فى ارتقاء العرش من ان « ايست » هى أمه ، حملته جنينا حين القت بنفسها على جسـد أوزير بعد مقتله ، بل ان بعض الروايات تزيد على ذلك فتقـول بأنه كان ينقصه حينذاك العضو الذكر ، الذى سوف يعثر به « حور » فيما بعد وقد أخفاه ست فى يده فينتزعه منه انتزاعا .

وأخشى أن أطيل فاثقل ، فاكتفى بالاشارة الى ذلك الفرض الذى كان يقضى على ولى العهد أن يتزوج من أختـه ، وهو أمر كان قـاصرا على الاسرة المالكة فلم يتعداها الى المجتمع المصرى بعامة ، فتتحدد شخصية فرعون من خـلال النسـبين الابوى والامهى جميعا ، لا خلاف عليه طالما كان النسب الابوى متصلا ، فاذا لم يخلف فرعون ابنا ذكرا ، انحصر الحق الاوزيرى فى كبرى بناته ، ويصبح ولدها كأنما هو من نسل «اوزير» (أى فرعون الذى مات) ، هو « ابن ايست » ، الذى له حق الجلوس فى حجرها (أى على العرش) ، دون العم حتى ، (أى ست) اذا كان له اعمام .

فاذا ما أسعفتنا كشوف قادمة ، ربما وجـدنا هنا تفسيرا للخـلافات العنيفة التى اسـتعرت بين فروع الاسرتين الاولى والثانية ، الى أن استقرت القوانين المنظمـة لوراثة « الوهية » العرش ، خشـية انهيار المرتكز الذى فيه اسـتقرار الدولة الفرعـونية ، اذا ما ظل عرضة لمنازعات أو تطلعات .

وربما وجدنا فى هذا أيضا تفسيرا لليسر الذى صاحب انتقال الحكم ـ من أسرة الى أخرى دون ظهور بوادر صراع أو نزاع ، الا فى أقل القليل وانما نجد ـ كلما تيسر لنا تسلسل الأسماء فى الدولة القديمة ان كبرى بنات آخر فراعنة الاسرة الراحلة ، هى أم فرعون الجديد، وانه كثيرا ما صاحب ذلك حيرة أو اختلاف فى الرأى بين علمـاء الآثار فى مكانة زوجهـا ، أهو رأس الاسرة الجديدة أم لا ، فان موقفه فى الحقيقة لم يتعد أن يكون همزة الوصل .

وانى أتقدم بخالص التقدير للاستاذ الكبير الدكتور عبد المنعم أبو بكر والى هيئة تحرير المجلة ، فلعل أن يكون هذا التعليق على التعليق قد هيأ القاء مزيد من أضواء جانبية على الموضوع .



و

تعقيبات

أخى مصطفى مشرفه

بقلم : د. عطيه مشرفه

ولد اخى مصطفى مشرفة فى ٢١ من مايو عام ١٩٠٢ فى مدينة دمياط ، وسافر عقب حصوله على البكالوريا الى انجلترا للعلاج من الروماتيزم . وهناك اكب على الدرس والتحصيل حتى حصل من جامعة كمبردج على شهادة فى الشعر الانجليزى ، ثم اجتاز امتحان البكالوريوس فى اللغة الانجليزية من جامعة كمبردج سنة ١٩٢٩ ، وبذلك اتقن اللغة الانجليزية كابنائها الانجليز انفسهم . فعهدت اليه كلية جنوب غربى انجلترا بتدريس اللغة الانجليزية من سنة ١٩٣١ الى سنة ١٩٣٩ .

ولما عاد الى مصر ، اختير لتدريس اللغة الانجليزية بمعهد الصحافة بكلية الآداب بجامعة فؤاد (القاهرة) فى اواخر عام ١٩٣٩ ، ولما شغرت وظيفة الأستاذية للغة الانجليزية بهذه الكلية وكان يشغلها استاذ انجليزى تقدم بمذكرة رفعها لمجلس الكلية قال فيها :

« ان من التقاليد المعترف بها بجامعات الغرب (انجليزيه أم غير انجليزية) ان يكون مدير سياسة تعليم اللغة الأجنبية فيها وطنيا ، حتى يعمل بما يوافق حاجيات ابناء وطنه وتفكيرهم ، فاذا توافرت كفايته كان خير من يقدر على أن يحل مشاكل اللغة ، لمعرفته بلغة اهله وعوائدهم وتقاليدهم الأدبية ، لذلك اتقدم لمجلس الكلية الموقر ملتمسا منه أن يتقدم بمؤهلاتى ومؤلفاتى لملء كرسى الأستاذية بها الى :

(١) الدكتور جون مرى مدير كلية جنوب غربى انجلترا بجامعة اكستر .

(٢) الأستاذ هوراكس رئيس القسم الانجليزى بها .

(٣) الاستاذ فيرز استاذ فقه اللغة بجامعة لندن ،

(٤) الأستاذ ايفانز بجامعة لندن .

(٥) الاستاذ ايرنست بنيانز عميد كلية سانت جونز بكمبردج ومدير الجامعة السابق . »

فوقفت السياسة الانجليزية فى تعيين الأستاذ المصرى ليكون رئيسا لقسم اللغة الانجليزية بكلية آداب القاهرة بالمرصاد ، حتى لا تخسر وظيفة ممتازة كان يشغلها الانجليز دائما .

وفى سنة ١٩٤٥ نشر كتاب « تاريخ حياة كمال أتاتورك » بالانجليزية وسماه :

Attaturk, A Biography

ثم سافر لانجلترا حيث عين مديرا لادارة الدعوة والنشر بالمعهد الثقافى المصرى بلندن ، ولطلاقة لسانه وتمكنه فى اللغة الانجليزية عهد اليه بتحرير « المجلة » التى كان يصدرها المعهد من سنة ١٩٤٥ الى سنة ١٩٤٧

ومن انجلترا كان يراسل الجرائد المصرية اليومية باسم « ويتكر Witeker » ، على انه مراسلها الخاص بانجلترا ، وبذلك استطاع ان ينقل الينا كل الأحداث المهمة التى كانت تجرى بانجلترا ولها علاقة ببلادنا ، وفيها نشر ايضا سنة ١٩٤٦ الجزء الاول من كتابه « مسح ثقافى لمصر الحديثة

Cultural Survey of Modern Egypt



مصطفى مشرفة

الذى قدم له الاستاذ جون مورى John Murray مدير جامعة اكستر ، ولما كتب الجزء الثانى ، قـدم له الاستاذ هولدين ٠

كذلك اشترك مع البروفسر جرانفيل الأستاذ بجامعة كمبردج فى كتابة مقال عن مصر ، تناول فيه الفقيد القسم الخاص بالتاريخ الحديث فى دائرة معارف هاتشنسون ٠ وقد ترجم الكتاب بجزئيه للغة الروسية فيما بعد ٠

ثم نقل لمثل وظيفته لأمريكا ، حيث قضى عدة سنوات فى المعهد الثقافى المصرى ، ونظم الشعر باللغة الانجليزية وكتب عدة دراسات ادبية بلغت من الجودة حداً ادى الى اعتراف الأجانب به رائدا من رواد الفكر المصرى ، وكانت لغته متأثرة الى أبعد حد بالروح العلمية العصرية ، فتعرف على الحضارة الغربية وآمن بها وتحمس لها ، وعاد الى بلاده داعيا لها ، كما نقل الى البلاد الأجنبية حضـارة المصريين وثقافتهم وتراثهم ، وبعد أن حصل على درجة الدكتوراة فى اللغة الانجليزية عاد لمصر فعين فى وظيفة المستشار الفنى لهذه اللغة Technical Adviser بوزارة التربية والتعليم ، وبمجرد أن شغل هذه الوظيفة، رأى ان الطالب يقرأ كتبا أجنبية عن بيئته المصرية ، فابتدأ يبعد هذه الكتب الانجليزية عن المدارس الاعدادية والثـانوية ، ليحل محلهـا كتبا ألفها عن أسماء مصرية صميمة وموضوعات شيقة محببة للمصريين تذكرهم بمجدهم الخالد ، وبذلك مصر الكتب الانجليزية ، ونقلهـا الى بيئة التلميذ المصرية الطبيعية ، وملأ نفوس التلاميذ بالزهو والافتخار بمعرفة مدنية المصريين وتراثهم الخالد ٠

ان مشاعرى تختلج بشتى الذكريات ، وفى خاطرى تتزاحم صور واضحة متتابعة كلها رائع فى تاريخ هـذا الرجـل الذى يعتبر بحق أبرز الأدباء والعلمـاء الذين انجبهم هذا العصر ، ممن طرقوا بعلمهم وادبهم ميادين مختلفة جعلت من حقهم علينا ان نعمل على تخليد ذكراهم٠ من هذه الذكريات ما يدور حول روايته « قنطرة الذى كفر » المليئة بالصـور والحكم والأمثال الشعبية التى تنبض فى حوارى عابدين وأزقة السيدة وغيرها ، والتى أثارت ضجة كبيرة بين الأدباء والنقاد ، واعتبرتها لجنة القراءة بمؤسسة السينما عملا ادبيـا عظيما فى الفـن الروائى » ، وقررت صلاحيتها للانتاج السينمائى مع ضمها الى مكتبة السينما الأدبية ، وبذلك ادخلها الاستاذ نجيب محفوظ ، وكان وقتها المستشار الفنى للمؤسسة المصرية العامة للسينما والاذاعة والتليفزيون ، فى خطة الانتاج ٠

ولعلها كانت تجربة هامة فى الكتابة باللغة العامية، لغة الشعب التى تعبر عن مشاعر افراده واحساساتهم ، وخلجات أنفسهم ، بل لعله اراد أن يخرج فى كتاباته عن لغة الضاد الى لغة الأدب الشعبى الذى يفهمه سكان الأزقة والحارات من المصريين ٠

أما كتابه الثانى « هذيان » الذى اخرجه ايضا قبيل وفاته ، فقد كتبه فى أسلوب متين بسيط وعبارة سهلة ، استنبطها من واقع المشكلات الكثيرة التى تواجه المصرى فى نضاله من أجل حيـاة أفضـل : فمقاله قبل ثورتنا المباركة عن « فلسفة الألقاب » اراد ان يلقى به ضوءا على موقف من المواقف كى يستشف منه معنى معينا يريد ابرازه لقارئه فيعدد الألقاب بقوله : « هناك أصحاب العزة والسعادة والعطوفة والفخامة والفضيلة والعظمة والمجـد والنبل والسمو والمعالى والرفعة والعصمة ، ثم أصـحاب الجنابات والدول والمقامات والنيافات ، ثم الشيخ والجليل والشريف والزعيم والوجيـه والسيد والخـواجة والأديب والفاضل ، وسليلة الشرف وكريمة المجد والعالم العلامة ٠٠٠ مما لو احصيناه لملأ صفحات ٠٠٠ ومن الواضح أن هذه الألفاظ لا تستعمل فى معناها ، فليس صاحب السعادة بأسعد من غيره ، ولا صاحب العزة بأعز من غيره ، ولا صاحب الدولة بمالك لها ٠٠٠ وانما لاعلام المخاطب بانه ممتاز عن المتكلم او العكس » ولذلك ترجم بعض هـذه الألقاب الى لغة مفهومة تدل على معناها ، فقال رحمه الله : « ان الافندى = ممتاز ، والبك = ممتاز جدا ، وسعادة الباشا = ممتاز جدا جدا ، ومعالى الباشا = ممتاز جدا جدا جدا ، ودولة الباشا = ممتاز جدا جدا جدا جدا الخ مع أن معظم دول العالم حرمت نظام الالقاب » ، ثم أضاف متهكما :

« وهناك ظاهرة غريبة لا أعرفها فى أمة غير مصر ، ففى بلاد كانجلترا مثلا لا تجد أفراد الشعب تتهـادى الألقاب كما نفعل نحن ، اذ لا يخطر على بال « مستر » جون سميث ، اذا اراد مداعبة مستر جون سميث آخر أن يقول له « يا سير جون » ولا « السير » جون اذا أراد

ارضاء « سير جون » آخر أن يقول له « يا لورد » سميث اما فى مصر فكل افندى « بك » وكل بك « سعادة البك » ..

وكل اقتصاد فى استعمالها يعتبره المجتمع وقاحة وخروجا عن آداب اللياقة ، وكما يستغل صاحب اللقب لقبه ليتمتع بلذة الامتياز وباعجاب الناس حوله ، وليوفر على نفسه مئونة القيام بواجبه ، بان يخلق حوله سياجا من الخوف ، وبان يعتمد على ارهاب الناس : كذا يستغل صاحب الحاجة لقب صاحب اللقب لنوال مآربه بان يستشعر الخوف أو يتظاهر به .. وبان يبدى الخضوع ويسرف فى الثناء .. وبذلك يرتب نجاح احد الخصمين على قدرته فى تمثيل دوره » .

وينهى مقالته بقوله :

« وهكذا نحن قوم صغار فى امة صغيرة ينقصنا فهم احترام الغير ، بانه لا يعدو احترام النفس ، كما ينقصنا الكثير مما يعتز به الرجل الفاضل من خلق العلم والجمال وتقدير الخير والقيام بالواجب ولذة التدرج من النقص الى الكمال » .

وباقى قصصه ومقالاته يجد فيها القارىء باقة يانعة من المرح لا يجيده سوى المصريين ، ولا اظنها تقل فى مستواها عن كثير من القصص العالمية . وبذلك جاءت اعماله القصصية محاولات جريئة لتطوير التعبير الأدبى أثارت الاهتمام والمناقشة لأنه صاغها فى قالب قريب من لغة التخاطب اليومى العادية .

كذلك كان خياله - رحمه الله - سخيا يتسع لعدة الوان من الجمال ، فكان يعتقد ان الموسيقى ترمى الى تربية النفس على حب الجمال والكمال ، وأن اهمالها نقص فى تهذيب الحواس ، لذا كان احد أعضاء الجمعية المصرية لهواة الموسيقى سنة ١٩٤٢ ، وألف رسالة فيها اسماها « كتيب عن الموسيقى الشرقية والغربية »
Pamphlet on Music — Eastern and Western
نشرت بلندن ، والرسالة عبارة عن تلخيص لمحاضرة القاها فى جامعتها فى اسبوع الامم المتحدة ، بناء على طلب الجامعة ، وقد دلت على دراسة واعية للموسيقى مكنته من ادراك أسرارها النظرية والعلمية والفلسفية .

كما استهوته منذ صغره الفنون الجميلة فكان نابغا فى التصوير وفى رسم اللوحات وفى كتابة بعض المسرحيات وعزف البيانو والفلوت (الصفارة) ، وكان مستواه فى كل هذا أرفع من مستوى المحترف وأعمق من مستوى الهاوى .

أما بالنسبة لنشاطه الوطنى ، فقد كان المرحوم مصطفى مشرفة ماهرا فى شبابه فى صيد الانجليز فى ثورة مصر سنة ١٩١٩ فقد كان عضوا فى الخلية الثورية التى كان بها أولاد عنايت أفذاذ الوطنية المصرية ، وقاد المظاهرات ضد الغاصب ، ودخل السجون والكوى بنارها ؛ وتحرك فى اطار الفكر الاجتماعى الاشتراكى . وفى انجلترا وأمريكا ومصر كان يستقبل شباب المصريين ويعرفهم بالفكر الاشتراكى المستنير ، ومؤسسة طباعة الألوان المتحدة التى أنشأها عام ١٩٥٧ دليل ساطع على اشتراكيته فقد كان يحدب على عمالها ويعمل على رفع مستواهم المادى والذهنى ، وكان له دور هام فى تدريب بعض الشبان وتسليحهم وارسالهم على نفقته للقتال أثناء العدوان الثلاثى ، وكان يزودهم بنصائحه الغالية وارشاداته ، وكان يود ان يذهب معهم لولا العجز الذى أقعده فى السنين فى السنين الأخيرة من حياته .

وكان أخى المرحوم مصطفى مثالا للرجولة فى تحمل المرض والقدرة على تحويل العجز الى مقدرة ، فقد منى فى ربيع حياته بروماتزم مزمن أقعده عن الحركة ، مما اضطره أن يحيل نفسه الى المعاش للعجز الصحى عام ١٩٥٧ وفى خريف حياته أصيب أيضا بقرحة الاثنى عشر نتج عنها نزيف داخلى كان يفاجئه بين الحين والآخر ، ومع ذلك ظل يؤدى رسالته على أحسن وجه ، فاصدر الكثير من الكتب والمقالات العلمية والادبية ، وانهى معظم معجمه الانجليزى العربى الذى أسماه « معجم مشرفة » .

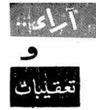
وكان رغم آلامه المبرحة من مرضه مثال الشخص الوديع الهادىء الرقيق . وكان من الشخصيات النادرة التى تمثل المعنى الكامل للانسان المثقف فى العصر الحديث .

وعندما اشتدت عليه القرحة بالاثنى عشر وزاد نزيفه المفاجىء الداخلى ذهب الى لندن فى الشهر السادس من سنة ١٩٥٨ لعرض نفسه على الدكتور نورمان تانر بمستشفى « ميدلسكس » ، لاجراء عملية جراحية ، فنجحت العملية ورجع لمصر معافى .

وفى سبتمبر ١٩٦٦ سافر الى روسيا سعيا وراء التخفيف من مرض الروماتزم ورجع منها فى اكتوبر من نفس العام دون اجراء اية عملية جراحية لأن الروماتزم كان قد أثر فى قفص الصدر مما جعل من الصعب جدا اجراء عملية جراحية له لصعوبة التنفس .

ويكفى أخى فخرا أن اسمه مدون فى الدليل الدولى International who is who ، كما قررت دائرة المعارف الأوربية سنة ١٩٤٧ وضع اسمه فيها تحت قائمة اشهر شخصيات الشرق الأدنى .

وفى الرابع من سبتمبر ١٩٦٦ مات أخى مصطفى أيضا ميتة الفجاءة التى أحب أن يموتها فسكت اللسان، وخمد الذهن ، ووقف الفؤاد ، وطواه الردى كلمح البصر بعد أن كان يجيش بالحياة وينبض بالطموح . غلبه الموت وهو الذى طالما غلب الأهوال ، وارتفع على الشدائد والأحداث ، ونفذ حكم الله الذى لا مرد لقضائه ، اسكب الله على جدثه شآبيب رحماته ، واسكن قلب المنكوبين فيه الهدوء والعزاء .



نقد .. لنقد

بقلم : ألفت الادلبى

فى العدد (١٢١) من « المجلة » يعمد السيد عدنان الداعوق ، الذى أخذ فى ربيع حياته الأدبية - كما يتضح من متابعة عمله الأدبى - الى النقد وذلك بعرض الكتب الأدبية وتحليل موضوعاتها فيكرس صفحات كثيرة من دراسته لكتابى « وداعا يا دمشق » . والنقد ما برح وهو يسير مع تطور الحركة الادبية فى شرقنا العربى مباحا لمن اراده ليس ما يحتم على من ينصب نفسه له ان يكون ملما المام الاحاطة بكل منحى من مناحيه ،خبيرا كل الخبرة بخوافيه وأبعاده شأن النقاد الأقحاح من الخبراء القدامى الذين هم بمثابة المرشدين أو الرواد . ولقد كان من نتاج ذلك أن صعب كثيرا على من استهواهم الانصراف الى الاعمال الادبية من رجال أو نساء ان يثقوا بمن أخذوا على أنفسهم نقدهم ، وان يطمأنوا الى مايدلون به من نصح وارشاد وفاقا للغاية المثلى التى وضع من أجلها النقد .

ولعل من امثلة ذلك ان السيد الداعوق يحشر فى مقدمة مقاله هذا ، وفى أسطر معدودة طائفة كبيرة من اديبات سورية ، ومن بينهن الأديبة وداد سكاكينى التى يقايس بينها وبينى ، وكوليت خورى ، وغادة السمان، وجورجيت حنوش ، ورنيه عبودى ، وقدر كيلانى . وخديجة النشوانى أم عصام وغيرهن ، ثم يتعجل تصنيفهن تصنيفا ديكتاتوريا يسميه تصنيف الأدب النسائى فى سورية .

ثم يأخذ بتوزيع الصفات والألقاب عليهن بنقدات عجلى قد ترتكز على خلاصة دراسة كتاب واحد ، أو موضوع ، أو مقطع ، أو عنوان قصة كتبته احداهن . ويعمد بعد هذا فيسلم لكل منهن وثيقة شهادته بها وكأنه عميد كلية الادب القصصى النسائى فى سورية . اما الباقيات اللواتى ما أراد أن يذكرهن من أديبات القصص فى سورية فقد بعث اليهن جميعا برشاش من عطائه فقال :

(وهناك فئة غير قليلة تتخذ الأدب (موضة) عصرية فتجرب كل واحدة منهن نصيبها . وبالطبع لايكون تاريخها المجيد من التقليد أو الاهمال والنسيان) الصفحة (١٢٣) من المجلة .

ويتخلص من هذه المقدمة المكثفة تكثيفا غريبا الى نقد كتابى فيختار من سبع عشرة قصة فيه خمس قصص يلخصها على عجل وكيفما شاء . ثم يكاد يقف فى نهاية كل واحدة منها ليوجه الأسئلة ، وبلهجة المعلمين حين يؤشرون على أوراق تلامذتهم ، ولو انه حاول أن يفهم سياق القصة لما وجد مسوغا لأسئلته هذه .

ففى قصة (الرقية المجربة) يقول بعد أن يلخص القصة :

تنتهى القصة هنا ويقف المرء متسائلا : المراة الزوجة بسيطة غاية البساطة كما صورتها الكاتبة . الم يكن بامكانها ان تستجير باولادها من زوجها لحل المشكلة ؟

الجواب على سؤاله هذه يجده فى الحوار الذى يدور بين الزوجة وابنها البكر فى الصفحة (١١) من الكتاب حين يقول فيه :

الله يرضى عليك ، ملائكة السما ترضى عليك ، أبوك رجل عنيد لا تصطدم معه ، لا تعمل لنا فضيحة ، لا تصيرنا سيرة بفم الناس .

الا يفهم من هذا الحوار ان الزوجة كانت تدرك أن زوجها رجل عنيد لا ينصاع لآراء أولاده ، وقد خشيت ان هى عرضت عليهم الامر أن يصطدموا مع أبيهم فتلوك

الألسن سيرة الأسرة ولذا آثرت ان تخفى الأمر عن اولادها ما استطاعت ، وتلجأ الى السحر ، ومن الثابت ان لبعض الناس ايمانا بقوة السحر الخارقة تفوق اى ايمان آخر، وبطلة قصتى كانت من هذا النوع .

ثم يستطرد الناقد فيسأل :

هل اقلع الزوج عن الزواج ؟ ان الكاتبة لم تخبرنا بذلك .

الجواب على سؤاله هذا يجده فى الحوار الذى يدور بين الزوجة وجارتها (خـدوج) فى الصفحة (١٢) من الكتاب حين تقول لها :

هاتى البشـارة .. لقد بطل زواج أبى صـافى ، وعادت المياه الى مجاريها ، الم اقل لك ان ام زكى أم العجايب ورقيتها المجربة لا تخطىء أبدا .

الا يفهم من هذا الحوار ان الزوج قد اقلع عن الزواج ؟ فلم لا يفهم الناقد ؟

أيريدنى عافاه الله أن أكتب له تقريرا ؟ ان ماكتبته كان واضحا لا لبس فيه ، فانا اعمد الى البساطة فى عرض قصصى ما استطعت ، لأننى اعتقد ان التعقيد فى الادب عيب مهما يكن لونه ، والبساطة فى الاسلوب لا تتعارض مطلقا مع عمق الفكرة .

ولكن الناقد لأمر ما لم يشأ ان يفهم، وهذا مايتعارض مع امانة النقد وصدقه .

ثم ينهى السيد الداعوق نقد لقصة الرقية المجربة بقوله :

(زد على ذلك ان القصة لم تترك عند القارىء اى انفعال او تأثير) .

حين قرات تلخيص الناقد للقصة فهمت انه لم يدرك الهدف الأساسى الذى تتركز عليه القصة ، ولذا فانا اعذره اذا لم ينفعل بها لانه لم يفهمها !

ان قصة الرقية المجربة لاتعالج مشكلة تعدد الزوجات فحسب انما تصور الحنان الانثوى حين يتفجر فى قلب زوجة بسيطة مخلصة عطوف ــ قد لا نجدها الا فى شرقنا هذا ــ فيجعلها وهى الغاضبـة على زوجها أن تعدل عن ترداد الرقية التى تعلمتها ودفعت ثمنها غاليا لتحول دون زواج زوجها عليها خشية ان يصيبه سوء من الرقيـة أو يمسه عارض من الجن فتخسره الى الأبد . انه ابو اولادها التسعة ، وعشيرها مدى خمس وعشرين سنة وزين رجال الحارة فكيف ترمى به الى التهلكة ؟! انها تتمنى ان يظل زوجها سليما معافا ولو تزوج من غيرها . الم ينفعل السيد الداعوق ويتأثر بهذه العاطفة الانسانية النبيلة ؟ اما القائمون على مؤسسة السينما فى سورية فقد تأثروا بها ولذا اختاروا قصة (الرقية المجربة) من بين عشرات القصص التى عرضت عليهم ليخرجوها فيلما ، لأنهم وجدوها خير ما كتب فى هذا الموضوع .

اما عن قصة الحقد الكبير فيقول الناقد :

كان من الممكن جـدا أن تبدو هـذه القصة رائعة لو استطاعت المؤلفة ان تنقلنا الى صميم الجو الثـائر ، لا ان تتحدث لنا عن الثورة والثوار من الخارج وعن لسان طفل ساذج لا يدرك ما يدركه الكبار . وثمة نقطة أخرى كانت تستحق ان تبدا القصة منها . كان تبتدىء بالقصة مثلا حين يقف الصبى فى ساحة المرجة ويلمح جثة الحلاب بين الجثث .

لا أدرى اذا كان الناقد يجهل أم يتجاهل بان القاص حر فى تصوير ما يريد ، يصور من الزاوية التى يريدها ويبدا من حيث يشاء ، لا من حيث يشاء له الناقد . وان الثورة يجب ان تصور من الداخل ومن الخارج على السواء

وانا حلا لى ان اصور مشاركة الذين لا يحمـلون السلاح للذين يحملونه فى الثورة مشاركة لا يقل خطرها والتضحية فيها عما يبذله الذين يخوضون المعارك . لأننى اجد ان هذه الناحية جديرة ايضا بالتصوير. ولا يعيب القصة اذا صورت من وجهة نظر طفل ساذج تاثر بفظائع المستعمرين ، وفى اعتقادى ان هذا يعطى القصة قوة . فشعور الاطفال وانطباعاتهم يشغل حيزا كبيرا فى آداب الامم كلها . وربما هذه الصورة بالذات التى لم تعجب الناقد اعجبت لجنة المؤلفين فى وزارة التربية والتعـليم فجعلتهم يدرجون قصة (الحقد الكبير) فى كتاب القراءة المقرر لدور المعلمين والمعلمات فى سورية لتدرس كنموذج للادب القصصى الحديث فى سورية .

اما قصة وداعا يا دمشق فيلخصها النـاقد كعادته فى التلخيص ، ويفهم من تلخيصه انه لم يفهم الهـدف الأساسى الذى تدور حوله القصة ، فهى لم تعالج معضلة امراة متزوجة وذات عشيق كما توهم ، انما تتركز على تصوير يقظة الضمير عند رجل عشق فى مطلع شبابه فتاة عشقا جامحا فلما زوجها اهلها من غيره هاجر الى البرازيل ليبعد عن مأساته ، ثم يعود الى دمشق بعد عشرين سنة وقد ظن انه قد شفى من عشقه القديم فاذا الصلات تعود بينه وبين المراة ذاتها واذا هى فى السادسة والثلاثين من عمرها اجمل منها فى السادسة عشرة ، وتعود جذوة الحب أكثر اشتعالا فى قلبى العاشقين فيفكران بالهـرب معا ــ وهناك فارق كبير بين التفكير بالأمر وتنفيذه ــ واذا طفلا المراة ياتيان كملاكين صغيرين ليقبلا امهما قبل النوم ، فاذا الأم تحنو على طفليها وتعانقهما ، ويؤثر هذا المنظر فى شعور الرجل العاشق فيستيقظ ضميره فيفر هاربا ليدع الأم لطفليها .

يستغرب الناقد ان توجد فى دمشق امراة متزوجة وام أطفال وذات عشيق وتستطيع ايضا ان تدعو عشيقها

الى بيتها لتعرفه على زوجها فيسالني في الصفحة (١٢) من المجلة قائلا :

أين دمشق هذه يا ترى ؟ ومتى يحصل هذا ؟ وكيف يا حضرة الكاتبة ؟

ضحكت ٠٠٠٠ وحمدت للرجل حسن ظنه بدمشق ، فهو يربأ بها ان توجد فيها امراة من هذا القبيل ٠٠ انني اطمئنه ٠٠ فلا يضير دمشق مطلقا ان توجد فيها امراة مثل هذه المراة ٠ فمع الأسف الشديد هذا النوع من النساء موجود منذ الأزل والى الأبد ، وفي كل بلدان العالم وحتى في اكثرها تزمتا ، والمراة لا تعوزها الحيل في مثل هذه المواقف منذ قديم الزمان فكيف تكون الحال ونحن نعيش هذه الحياة العصرية التي تبيح اختلاط الجنسين في اية مناسبة ؟

ثم يستطرد الناقد في نقده فيقول :

ان المشكلة لم تنته عند هروب العاشق من حبيبته ومن دمشق كلها ٠ فهو قد هرب بالفعل ، ولكنه ترك المشكلة قائمة وراءه ، والمؤلفة هربت أيضا من الحل الذي يجب أن يكون في نهاية القصة ٠

ان سؤال الناقد يدل على بدائية في فهم الفن القصصي !

متى كان حتما لزاما على القاص أن يضع الحلول في نهاية قصصه ؟

قد يضع القاص الحل أحيانا حسب مقتضيات القصة، وأحيانا يكتفي بطرح المشكلة لأنه ينبه الأفكار اليها ، ويحفز على الثورة عليها فتزويج فتاة على الرغم منها برجل لا تحبه يؤدي الى مثل العواقب التي تعرضت لها بطلة قصة (وداعا يا دمشق) ٠ فانا لم أهرب من الحل كما توهم الناقد ، انما طرحت مشكلة ما زالت قائمة في بلادي وكان في عرضي لها تحذيرا منها ، ودعوة الى الثورة عليها ٠

اما قصة (ماتت قريرة العين) فبعد أن يلخص الناقد القصة ويعطي ملاحظاته عليها يقول :

وبالاختصار فان معاني الكفاح والثورة والنضال لم تتوضح ابدا في هذه القصة ٠ وربما لأمر ما ارادته المؤلفة ان يكون غامضا ، هذا اذا لم نقل شيئا آخر ٠

أكاد لا أدرك ماذا يعني السيد الداعوق بقوله هذا ؟ ما هو هذا الأمر الذي اردته أن يكون غامضا ؟ وما هو هذا الشيء الذي لم يقله الناقد ، ولماذا يحجم عن قوله وقد وجدناه في نقده أكثر من صريح ؟! ٠٠٠

كان الناقد اراد ان يتهمني في شعوري الوطني فوجدها كبيرة ٠٠٠ فراح يغمغم ٠

لا ادري كيف يسوغ له ضميره ان يتهم الناس في أعز شعورهم بمثل هذا اليسر واللامبالاة !!

واحب ان اخبر الناقد ان قصة (ماتت قريرة العين) التي يقول عنها ما يقول ، قد اذيعت من اذاعة الجزائر ضمن برنامج الأدب النضالي الذي كتب عن ثورة الجزائر، ولم يجد القائمون على الاذاعة هناك أن قصتي تنافي معاني الكفاح والنضال وهم في اعتقادي اكثر تفهما للمعاني الثورية ، وأشد غيرة من الناقد عليها ٠

اما قصة سراب فبعد ان يلخصها ، وما من شيء كالتلخيص يشوه القصة القصيرة ويمسخها ، يقول عنها :

من الغريب جدا ان تسمى هذه القصة قصة ٠

اما كان الأحرى بالناقد ان يكتب لنا في مطلع مقاله عوضا عن تصنيف الأدب القصصي النسائي فيسورية شيئا عن مفاهيم القصة عنده ومقاييسها ، وابعادها ، وعن الفن القصصي ، وما هي هذه المقاييس التي يقيس بها ، وهذه الأبعاد والحدود التي يزعم انه عليم بها ، وكيف يطبقها على القصة المنقودة فما يكفينا بعد ان يشوه القصة بالتلخيص ان يشير بقلمه بان هذه قصة وتلك ليست بقصة وعلينا نحن والقراء ان ندعن لقراره صاغرين ٠٠

ثم يعطينا ملاحظات عامة على القصص اشبه ما تكون بكليشيهات جاهزة للنقد ينثرها حيث شاء وكيفما اتفق دون أن يعلل او يفند أسبابها والدواعي اليها ٠

وعلى الرغم من ذلك كله لا يسعني الا ان أشكر السيد عدنان الداعوق فانا أعترف انه لم يبخل على حين قال :

كل تلك الملاحظات لا تمنعنا من ان نقر ان المؤلفة تتقن الى حد كبير وصف وتصوير ـ وقد لا يستطيع ذلك غيرها ـ الصور الشعبية القديمة والتقاليد والعادات والاعراف التي كانت متبعة في يوم من الايام في دمشق.
ثم ينهي السيد الداعوق مقاله هكذا : ان التفاعل مع الزمن ٠٠٠ والتفاعل مع الجو ٠٠ واستيعاب الحادثة (قال ناقد كبير) هي المجال الضخم لبناء قصصي رائع ٠

لماذا لم يذكر لنا اسم الناقد الكبير ، وعهدنا به مولع بالاستفهامات ؟؟

أم تراه يلمح لنا بان الناقد الكبير ما هو الا ناقدنا نفسه ؟؟



«أ. ب» والمسرح الوثائقى

قدم مسرح الجيب أخيرا مسرحية « سيف ديموقليس » ـ أو «ا ، ب» ـ للشاعر التركى الجنسية العالمى الولاء « ناظم حكمت » . وهى تعرض قصة اندحار شاب طيب فى مجتمع رأسمالى عات لا يعترف الا بالقوة والمال ، ولامكان فيه للقيم الاخلاقية أو للمشاعر الانسانية الصادقة . ويكاد بطل المسرحية فى قمة تأزمه ويأسه أن يدمر العالم بقنبلة ذرية فاتكة ، لولا أن تتغلب عليه طيبته ، فيعدل فى اللحظة الاخيرة عن عزمه الجهنمى .

ان الهدف السياسى للمسرحية واضح لا يحتاج الى تأكيد ، ومع ذلك فهى خالية من كل أثر لوعظ مباشر أو خطب حماسية ملتهبة مما يحفل به عادة هذا النوع من المسرحيات . فقد اختار لها مؤلفها شكلا مسرحيا محكما ، تغلب عليه الحركة والتشويق واستطاع بواسطة الاحداث المتلاحقة ، وبعض حيل « الفودفيل » و « الميلو دراما » ، أن يعرض مأساة فرد فى بيئة اجتماعية معينة ، فرأينا من خلالها مأساة الانسانية المعاصرة كلها ، دون أن نفقد ، لحظة واحدة ، استمتاعنا وتحفزنا المشوق لمتابعة ما يدور أمامنا .

واستطاع مخرجنا الشاعر « نجيب سرور » أن يفجر كل امكانيات النص ، واستغل مسرح الحلبة أحسن استغلال ، حين حول حركة الممثلين الى حركات دائرية متلاحقة أقرب ما تكون الى مطاردات الملاكمين وتلاحمهم فوق حلبة الملاكمة .. وعاونه فى تحقيق أهدافه ، وابراز أفكار المؤلف مجموعة من الشباب المثقف الممتاز هم أعضاء فرقة مسرح الجيب ، الذين يكونون معا فريقا متلاحما متعاونا ، لا شك أننا نعتز بجهوده ، ونتوقع منه الكثير فى المستقبل .

ورغم ذلك ، فقد خرجت من المسرح وأنا أتساءل : لماذا قدمت هذه المسرحية فى مسرح الجيب الذى يقتصر جمهوره على صفوة المثقفين مع أنها مسرحية تقليدية بكل معانى الكلمة ، ومضمونها انسانى بسيط خال من كل تفلسف أو تعقيد ، أو أى محاولة للتجريب؟!

لقد آن لهذا المسرح الصغير ، الحافل بالامكانيات الفنية أن يدرك دوره الطليعى فى ارتياد مناطق فنية جديدة ، واستكشاف أشكال مسرحية غير مألوفة لدينا ، وتجريبها عمليا . وسواء حققت هذه الأعمال نجاحا يغرينا بنقلها الى المسارح الجماهيرية أم لم تحقق فهى فى الحالين تسهم فى تطوير مفاهيمنا المسرحية وتطعيم انتاجنا المسرحى بخامات وأفكار جديدة .

وحين أقول « التجريب » أو « الطليعية » لا أعنى فقط مدرسة العبث والاغراب الحديثة التى تنصرف اليها الأذهان عادة عند ذكرها تين الكلمتين . فما أكثر الاتجاهات التجريبية التى عرفها المسرح خلال عمره الطويل ، وما أحوجنا الى التعرف عليها والتمرس بها ، وبخاصة ما يهتم منها بالتوعية السياسية والاجتماعية ، وقد سبق أن أشرت فى هذا المكان الى اتجاهين من هذه الاتجاهات الاخيرة ، وهما « مسرح الدعوة والاثارة »

الشعب العريضة وتوعيتها ، والخروج بها من سلبيتها للمشاركة فى معركة الانتاج وغيرها من المعارك السياسية التى نخوضهـا بكل قوانا ·

وقد ذكرتني وفاة العالم الامريكي الشهير « روبرت أوبنهايمر » بشكل مسرحى ثالث قرأت عنه نبذة موجزة منذ بضعة أشهر فى النشرة الدورية التى تصدرها هيئة المسرح العالمية ·

ويمثل هذا الشكل المسرحى الجديد احدى الاستجابات الفنية لأزمات العصر وحرص الجماهير على متابعة قضاياه والتعرف على حقائقها · فبعد قضية « أوبنهايمر » الشهيرة (وتجد قصتها مفصلة فى مكان آخر من هذا العدد) ألفت عنه قصائد وقصص ومسرحيات عديدة ، تدافع عنه ، وتشيد بموقفه ، وتدين المتآمرين عليه وعلى كرامة العلم فى شخصه · ومن أهم هذه الأعمال مسرحية ألفها الكاتب الالمانى « هينار كيبهارت » ، وقد حققت نجاحا كبيرا دفع عددا من المشتغلين بالمسرح الى العمل على تقديمها فى عواصم بلادهم · ومن بين هؤلاء كان الممثل والمخرج المسرحى الكبير « جان فيلار » الذى شرع يستعد لتقديم المسرحية على « مسرح الاثينى » بباريس · ولكن الدكتور « أوبنهايمر » أعلن اعتراضه على بعض أجزاء المسرحية ، فاضطر « فيلار » الى مراجعة نصها لتعديله بما يتفق مع رغبة أوبنهايمر ، ولكنه ما لبث أن استبعد نص « كيبهارت » بأكمله ، وفضل أن يرجع الى النصوص الأصلية لمحاكمة أوبنهايمر ، ومن هذه النصوص كتب « فيلار » مسرحيته الجديدة ، موجدا بذلك شكلا مسرحيا جديدا أسماه « المسرحية الوثائقية » أى التى توضع على أساس وثيقة فريدة ، والوثيقة هنا كانت ملف التحقيق مع دكتور أوبنهايمر ومحاكمته ، وهو يستغرق أكثر من ألف صفحة ، تتطلب ما يقرب من مائة ساعة لعرضها ، اختار « فيلار » من بينها ما يزيد قليلا عن ساعتين ·

ومعنى هذا أن المسرحية الوثائقية لا تتطلب الا قدرا ضئيلا من التأليف الابتكارى الخلاق أولا تتطلب أى قدر منه كما يرى « فيلار » نفسه · غير أن « الاختيار » يقوم هنا بدور خطير ، اذ يجب أن تختار المادة الوثائقية بطريقة تستحوذ على اهتمام الجمهور ، وتقدم له الشخصيات فى صور متنوعة ومقنعة ·

وقد سبقت عدة مسرحيات محاولة « فيلار » فى نفس الاتجاه ، لعل أهمها مسرحية « النائب » لرولف هوتشهاوث ، وان كانت لا تنطبق عليها بدقة مواصفات المسرحية الوثائقية كما حددها فيلار ·

وقد حققت أول مسرحية وثائقية نجاحا ضخما ، اذ ظلت تعرض موسما بأكمله ، الأمر الذى دفع « فيلار » الى التفكير فى اعداد مسرحيات جديدة من نفس النوع ، وقد فكر فى ثلاث شخصيات رأى أن وثائق حياتها تصلح مادة لمسرحيات وثائقية ، وهم دريفوس ومارشال بيتان ، وغاندى ، ويبدو أنه سيبدأ بالشخصية الاخيرة ، اذ كلف أحد مساعديه بجمع كل الوثائق المتصلة بحياة غاندى ·

ترى هل يقدر لنا أن نرى نماذج لهذا الاتجاه المسرحى الحديث على خشبة مسرح الجيب ؟ ·· فلعله يحقق نجاحا يحفزنا الى تقديمه على نطاق أوسع ، ولعله يحفز مؤلفينا الى استلهام وثائق تاريخنا ونضالنا لتقريبها الى جموع الشعب ، فلا شك أن مشاهدة الاحداث الهامة على خشبة المسرح أسهل وأقرب للنفس وأقوى تأثيرا فيها من قراءتها مسطورة فى الكتب ·· هذا اذا تصورنا أن باستطاعة الكتب أن تصل الى سواد شعبنا الأمى ·